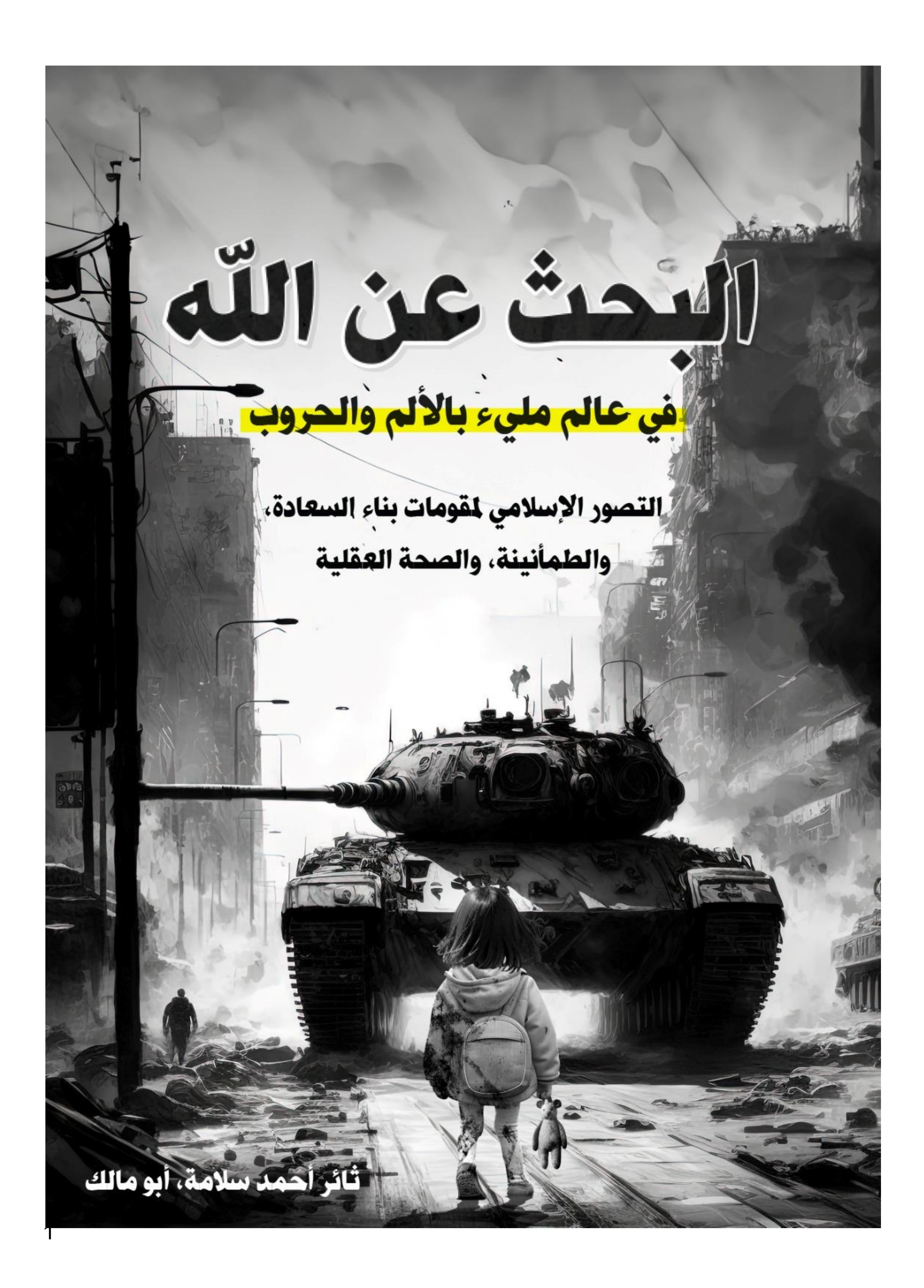

البحث عن اللّه
في عالم مليء بالألم والحروب
التصور الإسلامي لمقومات بناء السعادة،
والطمأنينة، والصحة العقلية
ثائر أحمد سلامة، أبو مالك



البحث عن الله في عالم مليء بالألم والحروب

"التصور الإسلامي لمقومات بناء السعادة، والطمأنينة، والصحة العقلية"

ثائر أحمد سلامة، أبو مالك

الإهداء:

إلى جميع الذين يسعون لفهم عدالة الله، في ظلال التجارب والصعوبات، والحروب والآلام، والابتلاءات والمحن التي نواجهها في الحياة، والذين يعانون من المعاناة والشقاء والمرض والألم، إلى الذين يعيشون غموضا يكتنفهم، يحيط بهم من كل الجهات، والذين يعانون من الاكتئاب، والقلق، ويسألون عن الغاية والهدف من الحياة، والذين يبحثون عن فهم شامل للتحديات والصعاب في الحياة، وعن حلٍ لمعاناتهم، ومساعدة، هذا الكتاب مكتوب خصيصًا من أجلكم، إن المعلومات المدعومة برؤية مستنيرة وشرح واضح ستقدم لهم نهاية لآلامهم وإجابات صحيحة ومعقولة لفهم العالم، وفهم أسباب الشر والمسؤولية عنه، وستوفر لهم مسارًا واضحًا نحو السكينة، والسعادة، والطمأنينة، والإيجابية، والإيمان، وسيعرفون أين يقع مكان الله في إدارة شؤون هذا العالم.

في وسط عواصف الحياة وعدم اليقين، من الطبيعي أن تسأل وتشك، وتتساءل عن دور الله تعالى، بل وعن عدالة الله لتفسير ما يجري من حولك. إنه جزء من رحلة الإنسان الأهم: أي البحث عن إجابات للأسئلة العميقة التي تكمن في قلب وجودنا. تمت كتابة هذا الكتاب بأخذ ذلك في الاعتبار، لتزويدكم برؤى عميقة ومعرفة تساعدكم على التنقل في التضاريس المعقدة لتحديات الحياة. لا يكتفي الكتاب هذا بتقديم الإجابات، بل سيقدم لكم مسارًا نحو الشفاء والسلام الداخلي، والطمأنينة والحبور،

إن الحياة مليئة حقًا بالتجارب والمحن، وغالباً ما تشعر بأنها تشبه تسلق الجبال. ولكن من خلال الفهم والإيمان، من خلال تسليط الضوء على مفهوم التوكل على الله، يمكنكم العثور على الراحة والمعين الذي يملأ نفوسكم قوة لازمة في وجه الصعاب.

في هذه الصفحات، ستجدون تجليات الحكمة التي يمكنها وضع نهاية لآلامكم. ستجدون إجاباتٍ معقولةً لأسئلتكم الأكثر إلحاحًا حول العالم ومكانتكم فيه. ستحصلون على وضوح حول دور الله في إدارة شؤون هذا العالم، وستدركون أنه حتى في أظلم اللحظات، هناك هدف إلهي إيجابي رائع يتم تحقيقه، لمنفعتكم، ومصلحتكم، ولخيركم، ستجدون الدافع للإيجابية ونفي السلبية عن تصوراتكم، وفهمكم للملمات والابتلاءات والمحن.

التجارب والمحن هي جزء من تجربة الإنسان، ولكنها ليست تعريفاً لنا. من خلال الإيمان والفهم والاتصال الأعمق بالله، يمكنكم العثور على السكينة والفرح وإحساس متجدد بالغرض والهدف من الحياة، والدافع للعيش. إن هذا الكتاب هو دليلكم في هذه الرحلة التحولية نحو حياة أكثر إشراقًا وإشباعًا.

لذا، إلى جميع الذين يبحثون عن الراحة، وإلى جميع الذين يتوقون إلى الإجابات، وإلى جميع الذين يتوقون إلى ارتباط أعمق مع الخالق - اعلموا أن هذا الكتاب مكتوب من أجلكم. نأمل أن يكون مصدرًا للتنوير والشفاء والأمل، المرشد نحو حياة مليئة بالإيمان والطمأنينة والسكينة والإيجابية، والتوكل، والسلام الدائم.

الفهرس

التصور الإسلامي لمقومات بناء السعادة، والطمأنينة، والصحة العقلية

ماذا عليَّ أن أفعل باقي عمري؟

في برنامج على راديو السي بي سي الكندي، استضاف الفيلسوف لي ماكنتاير Lee McIntyre والذي كانت له تجربة فريدة، حيث نصب في محطةٍ لقطار الأنفاق في نيويورك طاولةً وضع عليها لوحة كتب عليها: اسأل الفيلسوف!

وبعد مضي بعض الوقت توقفت امرأة في عقدها السادس وعلى وجهها كل ملامح الجدية، وخلعت معطفها، والشال الذي يغطي رقبتها، وقالت في حزم: أنا امرأة في العقد السادس من عمري، متقاعدة عن العمل براتب مريح، لدي درجة علمية هي الماجستير لا يوجد عندي أسرةٌ، فأنا مطلقةٌ، وقد نهضتُ مؤخراً من سرير الشفاء بعد عمليةٍ خطيرةٍ بقيت ندوبُها في رقبتي، **وأريد أن أعرف ماذا علي أن أفعله باقي عمري**؟ أريد سبباً أعيش لأجله!

ألا يذكرك سؤال هذه المرأة بحياتك أنت؟ هل تعرف سبباً تعيش لأجله؟ ماذا عليك أن تفعل باقي عمرك ليكون لعمرك ولحياتك **معنى** حقيقياً؟ أوليس واقع الحال أن حيواتنا مغطاة "بطبقات رقيقة" ما أسهل أن تزول، لتنكشف حقيقةُ أننا غارقون في هذه الحياة دون هدف أو وعي أو طرح تساؤلات حقيقية، ننتظر أن نتقاعد كي نكتشف أن حياتنا العملية التي غطت غالبية الوقت، وأخذت شبابنا وزهرة أعمارنا، واندمجنا فيها بصناعة المسار المهني، والارتقاء الوظيفي، والرخاء الاقتصادي، والتسوق والرحلات وعطل نهاية الأسبوع، ومشاهدة آخر الأفلام ومتابعة البطولات الرياضية، أو حتى السعي لأجل التغلب على الضنك والمشقة، وتأمين لقمة العيش، ودفع الفواتير، كي نكتشف أن هذه كلها -مع المتعة المصاحبة لكل شيء فيها، أو العناء، ومع أهميتها في حياتنا- ليست السبب الحقيقي الذي ينبغي أن نعيش لأجله أو الذي وُجدنا في هذا الكون الذي تم تصميمه وتعييره تعييراً دقيقاً منضبطاً محكماً خارقاً لتوجد فيه الحياة ويكون مضيافاً لها، وليوجد فيه هذا المخلوق الذكي القادر على التساؤل والاستكشاف والفهم والإدراك،

فإذا ما ارتفعت تلك "الغلالات الرقيقة" وما عاد لها وَهَجُها الذي صاحبها في رحلة الشباب وبناء المستقبل والنظر بتفاؤل لمعيشةٍ مريحةٍ هانئةٍ، أَلَحَّ وقتها، وبِكُلِّ قُوَّةٍ ذلك السؤالُ الذي سألَتْهُ هذه المرأة، ماذا علي أن أفعله فيما تبقى لي من عمر! ما هو السبب الذي سأعيش من أجله! فتعود الذاكرة وقتها للوراء لتسأل: هل كنتُ أعيشُ للسببِ الذي كان عليَّ أن أعيشَ له فيما مضى من عمر؟ هل عشتُ حياتي بشكل صحيح؟

قد ينتظر المرء فيه وقتا طويلا ليكتشف أنه يعيش بلا هدف، وأنه مفرغ تماماً من عناصر الوجود الإنساني، وأنه مصاب بخواء روحي، يركض حياته كلها بلا هدف، مشوباً بالقلق والحيرة والتمزق النفسي، لا

يعرف جواباً على سؤال: ما معنى الحياة؟ على الرغم من أن هذا السؤال لصيق بالفكر الإنساني، وشرط أساسي لإدراك كينونة الإنسان، كي لا يقع في الخواء الفكري، والفراغ الأخلاقي، والشذوذ السلوكي!

فماذا عنك وأنت في رحلة كهذه في هذه الحياة الدنيا؟ ألا ترى أهمية الإجابة على نظائر هذه الأسئلة لتفسر لك سبب وجودك في الحياة، ومن أتى بك؟ وماذا بعدها؟ **وماذا يراد منك**؟ لماذا جئت إلى هذه الحياة؟

هل الحياة هي: المسار المهني؟ وأن تغرق في تفاصيله حتى تعيش لأجله، تنتظر نهاية الشهر لتحصل على الراتب، وتدفع الفواتير، وتستمر عجلة الحياة -نمط العيش- في روتينٍ صارخٍ كأنها متاهةٌ لا تستطيع الخروج منها -إلا لحيظات قليلة ثم تعود إلى تلك المتاهة مرغماً أو راغباً؟ فإذا ما ماتَ أحدُنا هذه الساعة، وهو في هذه المتاهة غير قادرٍ على الخروج منها، فهل يستطيع وضع الإصبع على المعنى الحقيقي لحياته؟ إن السؤال المركزي في الحياة ولا شك هو: ما هي الغاية من الحياة؟ لماذا أنت في هذا الوجود؟

إنما مثل الحياة؛ بمسارها المهني، وبمالها، وببنيها، وبمتعها الحسية والمعنوية، ومثل الإنسان يحيا تلك الحياة، كالماء بالنسبة للسمكة، تسبح فيه، ولا تدرك أنه المحيط من حولها، فهي تعيش، إلا إنها لن تستطيع أن تبلغ أن تكون الحياة بالنسبة لها هي المحيط بعجائبه وبجماله الأخاذ، وبتوازنه وتنوعه واستعداداته لاستقبالها لتعيش في كنفه، فهي وإن كانت سمكةً شفافةً صغيرةً، إلا إنها قادرة على العيش على أعماق لا يستطيعها الإنسان بدون آلات قادرة على تحمل الضغوط الهائلة عليها، لكنها لم تدرك ذلك، واقتصرت "حياتها" على الانشغال عنه بإشباع جوعاتها، واتقاء أعدائها، فلم تحفل بتأمل ذلك الجمال الأخّاذ للمحيط، وتدبّر تهيئته -على ضخامته- ليكون حاضنة لها، وتهيئتها هي لتتمكن من العيش فيه، ولا بتدبر دورها في ذلك التوازن العظيم، لم تتأمل في صلتها بالوجود، وصلة الوجود بها، لتدرك الغاية من وجودها، والهدف والمعنى الذي يترتب على ذلك، وكذلك الإنسان الذي يعيش يومه كأمسه في تلك المتاهة، دون تأمل وتفكر وتدبر وإدراك!

هل الناس في الغرب سعداء؟

أما فهم السـعادة والطمأنينة فيختلف الناس في فهمها، وفيما يقيمها في الواقع، فرب فقير يظن سـعادته في أن يغتني، ورب مريض يرى أن سـعادته لا تتحقق إلا أن يُشـفى شـفاءً تاماً، والمذاهبُ الماديةُ ترى السـعادةَ بإشـباع الغرائزِ والحاجاتِ العضـويةِ بأقصـى درجةٍ، وبإطلاق الحرياتِ وخصـوصـاً الحريةَ الشـخصـيةَ[1]، فهم يفهمون السعادةَ على أنها "المتعة" أو "النشـوة" أو "الرفاهية"، الأمر الذي انعكس على صورة فوضى مجتمعية لا حد لها، انعكسـت على صـورة تفشـي مشـاكل العنف، والأمراض، والتفكك الأسـري، والمخدرات والجريمة، وامتلاء السـجون بشـكل غير مسـبوق في التاريخ،...الخ، وأضـحى امتلاك السـلطة والشـهرة والمال، وتنميته بأي وسـيلة غاية الغايات، الأمر الذي أفرز طبقة قادرة على التحكم بمقدرات الدول، وشـعوباً عاملة عندها بما يقيم أَوَدَهَا، فامتلك أقلُّ من خمسة بالمائة من السكان أكثر من تسعين بالمائة من الثروة، وامتلكوا كلَّ السلطة أيضـا، وتوزع الباقي على الباقي مصـحوباً بشـظف العيش (ديوناً هائلة على الأفراد والأسـر) ومشـقة العمل، فكانت أسباب السعادة لديهم أسباب تعاسة حقيقية!

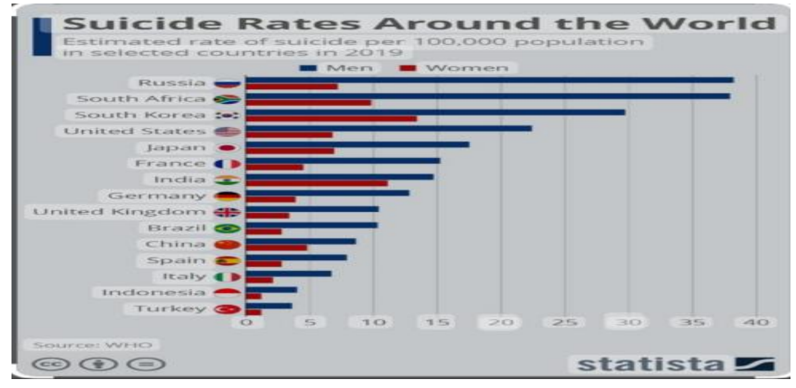
وكان التركيز على الإشـباع المادي، والنشـوة، والمتعة الآنية، والفخر بالإنجازات، والثقة بمسـتوى الرفاهية، مصـحوبا بإغفال أهمية القيمة الروحية وضـرورة إشـباعها، الأمر الذي أفضـى لتصـوّرٍ منقوصٍ عن الحياةِ، ومجافاة لأثر السـعادة على النفس المتمثل بالطمأنينة والراحة النفسـية، والسـلام النفسـي، والرشـد العقلي، والإيجابية، والرضـا عن الذات، **والذي لا يتم إلا بالقناعة بصـحة مرجعية السـلوك**، ووضـوح الهدف من الحياة، ووجود المعنى الحقيقي الإيجابي الذي يعيش الإنسـان لأجله، وبالقناعة بصحة الأفكار والمشـاعر التي يمتلكها الإنسـان، والتي يُسـير بها حياته، والتي توفر له القدرة الحقة على التعامل مع ضـغوطات الحياة، بتفسـيرها تفسـيراً صـحيحاً يفضـي **للرضـا والطمأنينة**، وليسـت السـعادة الحقة بالسـعادة النسـبية الآنيَّة المتقلبة، أو تلك الديناميكية المتغيرة، التي تنقلب إلى سـلبية قاتلة تدمر رضـا الإنسـان عن ذاته، أو عن الظروف التي تكتنفه حين تقلُّبها.

إن الفصـل الذي تم في الغرب بين الإنسـان -الذي امتلك رفاهية في العيش-، وبين المفاهيم والمقاييس والقناعات التي سـينبثق عنها النظام المسيّر للسـلوك، فاهتمت بالأولى (الرفاهية)، وقطعت الحبل السُّرِيَّ بين ذلك الإنسـان وبين الثانية (أن تكون رفاهيته نتاج مفاهيم ومقاييس وقناعات صـحيحة تسـير السـلوك)، إنما هو إحداث شـرخٍ فكري بين السـعادة، وبين الأسـاس الذي لا تنفصـل عنه في الحياة، وهو امتلاك الإنسـان

[1] "في التصـور الحالي عن العالم يُعتقَد أن الحرية هي إطلاق العنان للرغبات، في حين أن الحرية الحقيقية تكمن في التغلب على الذات والنزوات، بحيث يصل المرء في نهاية المطاف إلى تلك الحالة الأخلاقية التي تمكّنه من أن يكون سـيّداً حقيقياً على نفسـه في أي لحظة. أما السـعي المستمر وراء تحقيق الرغبات الجامحة فلا يؤدي إلا إلى العبودية" يوميات كاتب، فيودور دوستويفسكي.

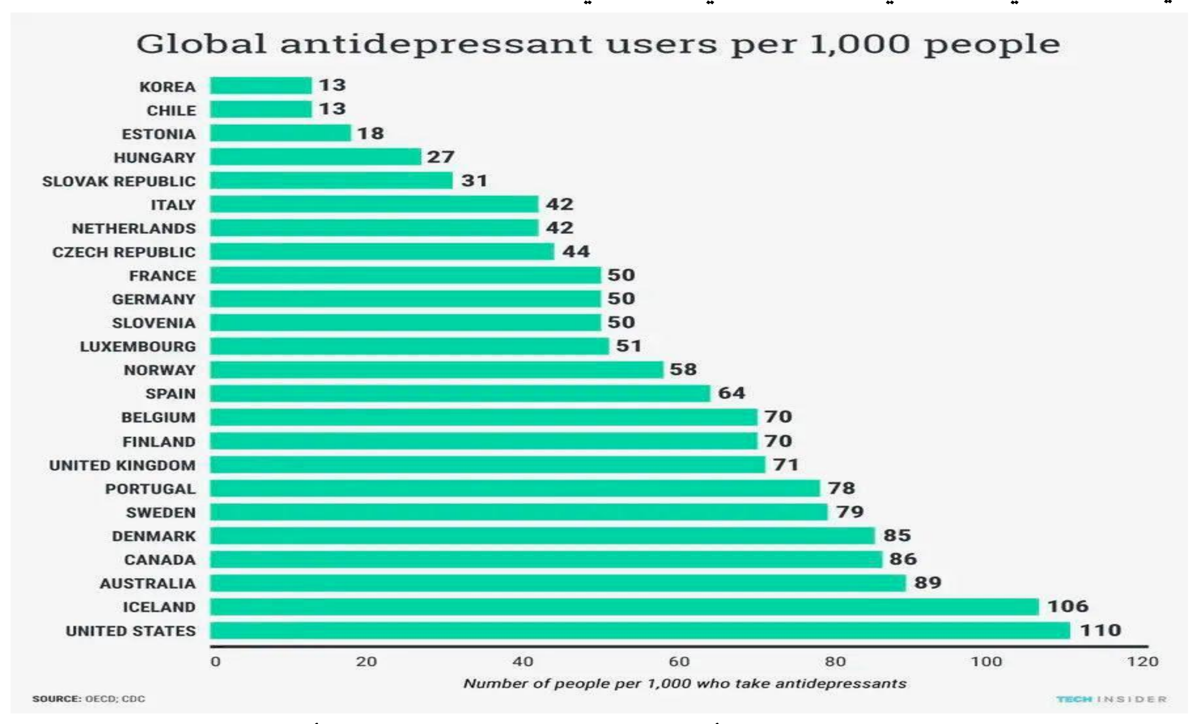
لمفاهيم ومقاييس وقناعات صحيحة، تسيّر السلوك، فالرفاهية لا تحقق الرضا عن الذات بالضرورة، ولا تحقق السلام الداخلي، ولا الطمأنينة، بينما الصلة بين المفاهيم والمقاييس وبين الرضا والطمأنينة والسلام الداخلي، وبين السعادة صلة دائمية، مهما تقلبت الظروف، والتي قد تتجلى في صورة رفاهية، أو فقر، أو صحة أو مرض، فرب فقير مطمئن سعيد راض، ورب غني لا ينام الليل من حيرته وتقلبه!

ولكننا نرى أن عصر الحضارة الغربية قد أتخم معجم الأطباء بأنواع لا تحصى من الأمراض النفسية مثل الإجهاد النفسي (Stress)، والاضطراب التوتري النفسي(Stress-related Disorder) ، والقلق(Anxiety) ، والاكتئاب (Depression)، والإحباط (Frustration)، والتوهم (Delusion)، والفصام (Schizophrenia)، والهستيريا (Hysteria)، والهلوسة (Hallucination)، والهوس الاكتئابي (Bipolar Disorder)، والوسواس القهري (Obsessive-Compulsive Disorder)، والإدمان على الكحول (Alcoholism)، واضطراب ما بعد الصدمة النفسية (Post-Traumatic Stress Disorder - PTSD)، واضطراب النوم (Sleep Disorders)، واضطراب القلق الاجتماعي (Social Anxiety Disorder)، واضطراب فرط الحركة وتشتت الانتباه (Attention-Deficit/Hyperactivity Disorder - ADHD)، والهوس (Mania)، واضطراب الهوس والاكتئاب (Cyclothymic Disorder)، والإدمان (Addiction)، وغيرها، فتجد الإحصائيات المرعبة لأعداد المصابين بهذه الأمراض النفسية في الغرب، فمثلا تجد أن 110 أشخاص من كل ألف في الولايات المتحدة يتعاطون أدوية مضادة للإحباط، وفي أستراليا وفي الدنمارك 89، وفي السويد 85 من كل ألف، ويعاني واحد بالمائة في أمريكا من التوحد (Autism) في العام 2022، مقابل 1 من كل 150 في العام 2000، ويعاني 1.5 شخص من كل 10 آلاف من الفصام، وتنتهي حياة 5% منهم بالانتحار، وتتراوح نسب المنتحرين في العالم الغربي (بل في العالم الذي تسيطر عليه الرأسمالية كنمط عيش) من كل مائة ألف من السكان في العام 2023: ما بين 10 إلى 25 مثلا: نسبة الانتحار في السويد 14.7 شخصا، وكانت الدولة الأعلى معدلا في الانتحار في العالم الغربي منذ الستينيات من القرن الماضي، وأما بلجيكا فتبلغ النسبة فيها 18.3، والولايات المتحدة 16.1، وفنلندا 15.3، جدير بالذكر أن النسبة في روسيا هي 25.1 شخصا، وهي التاسعة على مستوى العالم في نسبة الانتحار.



صورة تمثل معدل الانتحار في دول العالم 2019 لكل مئة ألف، الأزرق: رجال، والأحمر: نساء

في الصـورة المرفقة، إحصـائية تظهر عدد الأشـخاص الذين يتعاطون أدوية مضـادة للإحباط نسـبة إلى **كل ألف شـخص في تلك البلاد**، أي إن 110 أشـخاص مصــابون بالاكتئاب في الولايات المتحدة من بين كل ألف شخص يعيش فيها، أي نسبة تقارب العشرة بالمائة، وهي نسبة هائلة، و85 في الدنمارك، و79 في السويد، و71 في بريطانيا، و70 في فنلندا وفي بلجيكا، و50 في فرنسا وفي ألمانيا:



صورة تمثل معدل من يتعاطى أدوية للإحباط في دول العالم لكل ألف من السكان،

كذلك فإنك تجد أغنياء مشــهورين في قمة المجد ينتحرون لخواء الحياة في نظرهم، فالفخر بالإنجاز، والشهرة، والمال، والترف، والرفاهية ليست بضمانات حقيقية على تحقيق السعادة الدائمة، كيف لا، وقدرتها كلها على تحقيق الســعادة الحقيقية مرتبط بوجود القناعة بصـحة مرجعيات الســلوك، وبوجود المفاهيم الصحيحة عن الحياة، فهذه وحدها الضمانة بأن لا تنقلب السعادة تعاسة حين يخبت وهج الشهرة، أو يقل المال، أو تنقلب الرفاهية ضــيقاً، فيحار المرء كيف يفســر ذلك كله، **فإذا لم يجد في مفاهيمه ومقاييســه الفكرية مرجعيات صحيحة تجعل سـعادته مسـتدامة، أو حين تنقلب رفاهيته "روتيناً قاتلاً"، فإنه أسـرع ما يسير نحو هاوية الاكتئاب والقلق ويتحطم رضاه عن نفسه أو عن مجتمعه**!

"إن الأهم من إشـباع الغرائز والحاجات العضـوية هو كيفية الإشـباع (أي تنظيمه) لا الإشـباع بحد ذاته، فالقضــية ليســت كم يأكل الناس، وماذا يلبســون، ولا كم يتملكون، بل القضــية هي ماذا يأكلون، وكيف يكسبون ما يشترون به ما يأكلون، وكيف يتملكون، هل النظام الذي ينظم حياتهم الاقتصادية يجعل تملكهم

هذا يمر عبر نظام ديون ربوية تضعهم تحت ثقل ديون باهظة يدفعها الآباء والأبناء طوال أعمارهم؟ نظام مصمم بعناية ليزيد الغني غنى والفقير فقرا؟

فالقضية ليست هل يعيش الناس أم لا يعيشون، بل القضية لماذا يعيشون؟ وكيف يعيشون حياة تتناغم مع الغاية من حياتهم، لا مجرد: كيف يعيشون، وهل يطغى إشباعهم لغرائز وحاجات عضوية على حساب غيرها؟ أم هناك توازن في الإشباع يتمثل في نظام ضابط يحقق هذا التوازن؟ لأن عدم التوازن سيفضي حتماً للاضطراب والحيرة والقلق، أي إلى الشقاء لا السعادة، هكذا يحكم بأنهم سعداء فعلا أم سعادتهم موهومة، أو آنيَّة، مبنية على مقاييس خطأ".[2]

وهذا لا يعني أن الناس لا يعيشون لحظات حياتهم في مسرات وهناء، إذ يتمتعون بمناظر جميلة ونزهات لطيفة، ولكن المعنى أن توجد السعادة الحقيقية الناشئة عن التوازن في تنظيم حياة الإنسان، والطمأنينة الناشئة عن نمط العيش، وعن التفسير الصحيح لمعنى الحياة، إذ إن نقيض السعادة هو الشقاء، فالنظام الذي لا ينصف المجتمع سيجعل جُلَّه شقياً وإن كانت لديهم لحظات مسرّات مؤقتة!

وليس من طبع الحياة تمام نعيمها، فإنما يتقلب الإنسان من محنة إلى منحة، ومن نعيم إلى شقاء، ومن سعادة إلى كدر، بل فوق ذلك، قد يتطور الأمر بمن شقي وانكسرت روحه، وخوى قلبه، فيرتكس في حال من التعاسة والإجهاد النفسي، والقلق والاكتئاب، والإحباط؛ وبعض من وصلت بهم الحال لهذا، كانوا في قمة مجدهم، وعطائهم، وشهرتهم، وغناهم، إلا إن نفوسهم خلت من السعادة القائمة على الطمأنينة، والإيجابية، وعلى السلام الداخلي، والراحة النفسية، وعلى الإيمان، بدلا من تلك السعادة الآنية القائمة على إشباع الغرائز والحاجات العضوية بأقصى درجة، وعلى إطلاق الحريات وخصوصاً الحرية الشخصية، تلك "السعادة" الآنية التي تتأسس على أنها "المتعة" أو "النشوة"، أو "الرفاهية" وتحقيق القيم المادية وحدها، فهذه سعادة لا تفضي إلى الطمأنينة، إذ إنها تغفل القيمة الروحية، وتغفل التوازن في إشباع الغرائز والحاجات العضوية بين تحقيق القيم الإنسانية والروحية والمادية والخلقية، فالسعادة الحقيقية، والطمأنينة ناشئة عن نمط العيش الذي يحقق التوازن في تنظيم حياة الإنسان، ناشئة عن تحقيق الإنسان لحياة فيها هدف، فيها "معنى" يعيش لأجله. يقول عالم الأعصاب والمحلل النفسي النمساوي (فكتور فرنكل) (Vector Frankl): "لدى الكثير من الناس اليوم وسائل تمكنهم من العيش، غير أنهم يفتقدون معنى يعيشون لأجله"[3].

فكيف عمل الإسلام على إيجاد الطمأنينة والإيجابية، والسلام الداخلي، والراحة النفسية، والإيمان، ما هي المقومات التي ارتكز عليها الإسلام لينتج شخصيات إيجابية تستجيب لكافة ضغوط الحياة دون أن تصل إلى الإحباط والإجهاد النفسي، والقلق، والاكتئاب، والإحباط، والانفصام، والهستيريا، والهلوسة، وغيرها!

---

[2] بتصرف، عن محاضرة للأستاذ أحمد القصص بعنوان: مفهوم السعادة في الإسلام، إصدارات رابطة الوعي الثقافية، بيروت.

[3] مشكلة الشر ووجود الله، د. سامي عامري ص 26

"فلسفة الإسلام في تصور الحياة" (نظام (خطة) الوجود)

إن نظام الاستخلاف في الأرض اقتضى أن يستخلفَ اللهُ الإنسانَ العاقلَ المكلَّفَ المسؤولَ المحاسَبَ، ذا الإرادة الحرة والقدرة على الاختيار والتخطيط والتنفيذ، وسخر الله تعالى للإنسان كل شيء، ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان 20]، لتمكينه من أسباب ما يلزم لاستخلافه في الأرض، وفق معادلة بشرية يوضحها القرآن، سنحاول اختصار "فلسفة الإسلام في تصور الحياة" (أي نظام (خطة) الوجود)، وهذه المعادلة فيها مجموعة من العوامل التي تلعب دوراً اساسياً في تصور الحياة:

أولا: العقل، والعقل آلة الإنسان لمعرفة خالقه وإدراك سر وجوده في الحياة، وللعلم وفض كثيرٍ من مغاليق هذا الوجود وتفسيرها بالربط الذكي، والفهم والإدراك، وإنشاء الأفكار، والبحث والاستنباط والاستقراء، والعقلُ مناطُ التكليفِ. وحيث كان للعقل هذه المكانة الهائلة في "خطة الوجود"، وفي امتياز الإنسان العاقل عن سائر المخلوقات والاتكال على العقل في إدراك الصلة بالخالق؛ فلا شك أنه آلة بالغة الأهمية، **بالغة القدرة**. ويؤكد القرآن على التحالف بين الايمان والحق والعقل. ومن أسلوب القرآن أنه يطرح الأسئلة على القارئ بطريقة نقدية ليجبره على إعادة التفكير في معتقداته، لأن الوصول إلى الحق يستلزم تحرير العقول من الموروثات، فالتعلم يلعب دوراً أساسياً في تطورنا وتزكيتنا كبشر.

يركز الإسلام بقوة على ترسيخ الإيمان من خلال الأدلة العقلانية القطعية التي لا لبس فيها، متجاوزاً مجرد الخضوع. ويحرم الإسلام التقليد في العقيدة، بما في ذلك تقليد اعتقاد الآباء أو المجتمع الأوسع. بدلا من ذلك، يدعو الإسلام إلى الإيمان الذي يتم زراعته من خلال البحث الدقيق والاستجواب النقدي والتفكير المستنير. يؤكد هذا النهج على أهمية المشاركة الفكرية الفردية في رحلة الإيمان، مما يضمن أن الإيمان ليس موروثا فحسب، بل يتم فحصه بدقة وتأكيده شخصيا. تلعب هذه المنهجية دورا حاسما في تنمية أساس قوي من الإيمان والتحفيز والثقة في المبادئ الأساسية التي توجه الفرد طوال رحلة حياته. وهذا ضروري بشكل خاص عند مواجهة الشدائد والابتلاءات والمحن. ومن خلال تبني هذا النهج، يكون المسلم مستعدا جيداً، ويتعزز لديه الشعور بالرضا بالاعتماد على الله، والتوكل عليه، فيستمد القوة منه لتجاوز أي واقع صعب. وهذا يضمن مرونة متجذرة بعمق في الإيمان، وثقةً لا تتزعزع في الحكمة الإلهية، مما يمكّن الفرد من التنقل وسط تعقيدات الحياة بنعمة وثبات، وصبر ورضا.

ثانيا: التكليف، والمنهج، والمسؤولية، والمحاسبة، والواجبات، والحقوق: وقد أقام الله تعالى نظام الوجود على العدل ومنع الظلم، وإعطاء كل ذي حق حقه، واستخلفَ الإنسانَ وارتضى لهُ أن يُصلحَ في الأرضِ ولا يُفسدَ فيها، فرداً أو جماعة، ولم يترك تنظيم الحقوق وإقامة العدل ومنع الظلم، وضبط السلوك الذي يفضي للإصلاح لا الإفساد، وفض الخصومات والنزاعات دون تشريعٍ وتنظيمٍ يضبطه وينظمه، ويقيم الحجة

على الخلائق، ويحاسبهم على أساسه، لم يتركه للبشر وأهوائهم وتسلط قويهم على ضعيفهم، وتخبطهم في معرفة التنظيم الصحيح الذي يصلح أحوالهم ويقيم نظامهم ويمنع فسادهم. فتشريع الله هو الضامن لتحقيق العدل وإقامة ميزان القسط في الأرض، ويتحقق ذلك التنظيم على مستوى الجماعة من خلال دولة وأنظمة الحياة المختلفة، وقد أكمَلَ اللهُ الدينَ، وأتمَّ به النعمةَ على المسلمين، وأيأسَ منه الكافرينَ. والمسؤولية مفهوم بالغ الأهمية، يتضمن مسؤولية الإنسان عن أفعاله، ومسؤوليته عن نفسه وعن غيره، ومسؤوليته وواجباته تجاه الآخرين بحمل الدعوة لهم والحرص على صلاحهم، والمحافظة على القيم الإسلامية التي تسود مجتمعهم، كما وتتضمن المسؤولية معنى المساءلة عن الأفعال والحقوق والواجبات.

ثالثا: العبودية والطاعة، والعدل والإحسان، والمراقبة والتقوى، والمحبة والخوف والرجاء، "وحيث إن الوجود كله من السماوات والأرض وما سواهما لله تعالى، فهو الأوْلى أن يُعبَدَ، فيُتَذلَّلَ إليه، ويُخضع له، ويُنقاد لأمره، فيُطاعَ فلا يُعْصَى، وأوّل قمةٍ للعبادةِ أن تشهد بأن لا إله إلا الله، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السمٰوات والأرض[4]"؛ "يدبر أمر عباده؛ يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقه إلا بعلمه، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع[5]" وما دام إلهاً فلا بد أن يطاع، ولا يطاع إلا بمنهج، ولا منهج إلا بأمرٍ ونهيٍ، أي بافعل ولا تفعل، ولقد حصر الله تعالى حقَّ التشريعِ بِهِ وحدهُ، واختص بِهِ ذاتَهُ العَلِيَّةَ، فأنزله كتاباً وسنةً أوحى بهما إلى نَبِيّهِ ﷺ، ومنع غيره منه (وهو ما اصطُلح عليه بمسمى الحاكمية[6])، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾ [57 الأنعام، 40 يوسف، 67 يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى 10]، والحكم في اللغة هو المنع ومنه قيل للقضاء حكمٌ لأنه يمنع من غير المقضيّ، وعليه فلله وحده الحق في منع المحكومين من أن يتصرفوا إلا وفق شريعته[7]، فالتشريع يقيم معنى العبودية لله!

فالعبودية لله تحرر الإنسان من أن يستعبده غيره من البشر، بتشريعاتهم، وقوانينهم، وأحيط مفهوم العبودية بمفاهيم **المحبة والخوف والرجاء**، فالله تعالى ذو الهيبة والعظمة والجلال، فلا بد للأعناق من أن

---

[4] تفسير الشعراوي.

[5] ابن قيم الجوزية، الفوائد

[6] الحاكمية من خصائص الربوبية باختصاص الله بالتشريع، ومن خصائص الألوهية بإفراده تعالى بالعبودية والتقديس بالتزام ما شَرَعَ وعدم اتخاذ غيره أرباباً يَشرَعونَ من الدينِ ما لم يأذنْ به اللهُ، أو يغيروا أحكامه، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف 40]، جمع في هذه الآية بين حق الطاعة وحق العبادة، فحق على العباد أن يطيعوا الله فيما أمر، وأن يعبدوه، فالربوبية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية ومن يحكم بغير ما أنزل الله فإنه يرفض ربوبية الله وخصائصها في جانب، ويدّعي لنفسه هو حق الربوبية وخصائصها في جانب آخر.

[7] من هنا فإن تشريع العبيد بعضهم لبعض فيه اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله!

تخضـع لعظمته، وللنفوس من أن تنكسـر أمام هيبته، وتتذلل لعزته، وتسـتكين أمام كبريائه، ولا بد للقلوب من أن تخشـع له، وللجوارح من أن تسـتقيم على أمره. والله تعالى ذو الكمال المطلق والجمال الكامل، والحكمة البالغة في أفعاله وتشـريعاته، وتصـرفه في ملكوته، فلا يملك العبد تجاه ذلك إلا أن يُقبِل عليه بحبٍّ يكون له طبْعاً لا تَكَلُّفاً، والله تعالى أرحم الراحمين، البَرُّ اللطيف، فتتجلى عبودية العبد لربه ومولاه بانبعاث الرجاء والأمل في كل أرجاء نفسـه، طمعاً في فضـله ورغبة في تفضـله، ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَـرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا **وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف 56]، وبإحسـان الظن بربه. فهو الكافي، وهو الرزاق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو الرب، كاشـف الضر، بيده الخير، فيفوض العبد أمره كله إلى ربه، راضياً بقضائه، واثقاً بحكمته، يطمع في أن يتولاه ربه.

ويتدبر المرءُ ما أحاط الله به أحكام الشـريعة من جعلها حدوداً لله، بيَّنها للناس، وأَمَرَ بإقامتها، ونهى عن الاعتداء عليها، أو تجاوزها، وجعلها آيات الله، وحذر من اتخاذها هزواً، فهي من الكتاب والحكمة، وحذَّر من مخالفة الأمر ومعصـيته، وتوعد على ذلك بالعقوبة بالعذاب الأليم، وأمر بالطاعة المطلقة غير المقيدة للأمر والنهي، فإن لم تترجم تلك الطاعة إلى عمل، ملؤه الامتثال والتنفيذ، والتسـليم التام بالحكم، حتى تخلو النفس من كل أثر للحرج من الحكم والقضاء، عدَّ الإيمان زعما لا حقيقة له، وجعل طاعة الرسول ﷺ طاعةً لله، واتباعَه شـرطاً لمحبة الله، وأمر بالتأسـي بأفعاله، وبالرد إليه وإلى كتابه، والأخذ بكل ما يأتي فيهما، وتحكيمهما في كل ما يشجر من أمر، وجعلت قضاء الرسول ﷺ في أي أمر كقضاء الله تعالى **لا تخيير في وجوب الأخذ به**، فقد أحيطت الأوامر والنواهي بسياج العدل، والانتقام والعقوبة، والسخط لتنقمع النفوس الأمارة بالسـوء، ولتسـتعين بذلك على كبح جماح شـهواتها، ولهوها ولعبها، فتنقبض أَعِنَّةُ رعوناتها عن أن تقتحم سـياج حدود الله، امتثالا للطلب، واجتنابا للنهي، خوفاً وخشـيةً وحذراً، طاعة وامتثالا وأملاً، ورغبةً ورهبةً ومحبةً وتقرُّباً، وهذه كلها من تجليات العبودية لله.

والطاعة والتقرب والتقوى والمراقبة سياج يقرب المؤمن من ربه، ويباعده عن المعاصـي، فهو يعلم أن ربه سميع بصير عليم خبير بذات الصدور، فلا يكتفي العبد بالامتثال بالقول والفعل، بل في خطرات النفس، وفي أعماق النوايا والسـرائر، يزن كل ذلك بميزان الشـرع، فلا يبقي في أعماق نفسـه ولا في ظاهر أمره ما يسـتحيي منه من الله، أو ما يخالف فيه عن أمره!

والإحسـان يرقى به في معالي الارتقاء نحو أعلى الدرجات في صـقل شـخصـيته، وإدراك معنى إنسـانيته، والمحبة والخوف والرجاء يُبلِّغه سـموَّ القرب من الله. "وجماع ذلك أنه سـبحانه يتعرف إلى العبد بصـفات إلهيته[8] تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهودُ صفاتِ الإلهيةِ: المحبةَ الخاصةَ الخالصة، والشوق إلى

[8] سُـمي الله: إلهًا لأن الخلق يتألهون إليه ويتضرعون في حوائجهم وشدائدهم، وهناك آراء مختلفة حول الأصل اللغوي للكلمة. بعض العلماء يرون أنها مشـتقة من الارتفاع والعلو، والبعض الآخر يراها مشـتقة من العبادة والتعبُّد. الاسـم الله هو تعظيم لهذا المعنى بإضـافة الألف واللام لكلمة:

لقائه، والأنس والفرح به، والسـرور بخدمته، والمنافسـة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه. ويوجب له شهود صفات الربوبية: التوكل عليه، والافتقار إليه، والاسـتعانة به، والذل والخضـوع والانكسـار له، وكمال ذلك أن يشـهد ربوبيته[9] في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزّه في عفوهِ، وحكمته في قضـائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبرّه ولطفه وإحسـانه ورحمته في قيوميّته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وسـتره وتجاوزه، ويشـهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه[10]".

رابعا: الاجتماع، والتدافع، وحاجة الإنسـان إلى الاجتماع والتعاون على قضـاء المصـالح وتنظيم رعايتها يتطلب اجتماعهم، وسـينتج عن الاجتماع بالضـرورة أن يتعارف الناس، وأن يتدافعوا، ومن فوائد التدافع أن يحصـل التوازن والاسـتقرار والتعارف، وألا تفسـد الأرض، إذ إن انتصـار الحق على الباطل حتمي، والأرض مسرح لتدافع الحق مع الباطل، ومن التدافع بين البشر: تصادم الحضارات، وينتج عنه بروز نزعات السيطرة وتنتج النزاعات والحروب، والعدل والظلم، ويريد الإسـلام أن يخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأن يحقق الاستخلاف والتمكين والأمن والعبادة.

خامسـاً: والإيجابية، والابتلاء، (الابتلاء بالفتنة، بالخير وبالشـر، وبالمحن والشـدائد، والدنيا دار اختبار ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلًا﴾ [الملك 2] وهو اختبارٌ في كتاب مفتوح لا مغاليق فيه، وابتلاء التمحيص (للتمييز)، والعقوبة على المعاصـي)، وعلى عكس كل الديانات يؤكد القرآن على عدم سلبية الابتلاء والمعاناة، فهما ضروريان لتزكية الإنسان ولصيرورته، وقد صقل الإسلام معان إيجابية راقية **للصبر والقدر والرضا بالقضاء وللتوكل وللنفع والضر، والموت والحياة،**

إله، للدلالة على العظمة والفرادة، وتم حذف الهمزة لتسـهيل النطق نظرًا لكثرة اسـتخدام الكلمة. "الله" هو المعبود بحق، الذي يسـتحق العبادة والتعظيم والخضوع، وهو ملجأ الخلق في جميع حاجاتهم وشدائدهم.

[9] يأتي الرب في العربية بمعنيين: 1) السيد أي المتصرف المدبر، الآمر الناهي، الحاكم المشـرع، 2) المالك: أي مالك العين أو الشيء ملكية تعطيه حق التصرف في العين. أنظر: الحاكمية وسيادة الشرع للدكتور المسعري ص 28-29.

قال ابن فارس: (الرب) الراء والباء يدلُّ على أُصولٍ. فالأول إصلاح الشيء والقيامُ عليه. فالرّبُّ: المالكُ، والخالقُ، والصَّاحب. والرّبُّ: المُصْلِح للشّيء. يقال رَبَّ فلانٌ ضَيعتَه، إذا قام على إصلاحها. وهذا سقاء مربُوبٌ بالرُّبِّ. والرُّبّ للعِنَب وغيرِه؛ لأنّه يُرَبُّ به الشيء. وفَرَسٌ مربوب. والرّبُّ: الـمُصْلِح للشّيء. والله جلّ ثناؤُه الرَّبٌّ؛ لأنه مصلحُ أحوالِ خَلْقه. والرِّبِّيُّ: العارف بالرَّبّ. وربَبْتُ الصَّبيَّ أرُبُّه، وربَّبْتُه أربِّبُه. والرَّبيبة الحاضِنة. معجم مقاييس اللغة.

و ﴿رب﴾ في الأصل: مصدر بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا، وذلك يجمع النعم كلها، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل. وقيل: هو وصـف من ربّه يربّه، وأصـله: ربب ثم أدغم، سـمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ولا يطلق على غيره تعالى إلا بقيد كقوله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ﴾. قال ابن جزيّ: ومعانيه أربعة: الإله والسـيد والمالك والمصـلح، وكلها تصـلح في ﴿رَبِّ العَالَمِين﴾، إلا أن الأرجح في معناه: الإله لاختصاصه بالله تعالى. تفسير البحر المديد لابن عجيبة بتصرف،

وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: الرب: السيد والمالك والثابت والمعبود والمصلح وزاد بعضهم بمعنى الصاحب.

[10] ابن قيم الجوزية، الفوائد

فالصبر كمفهوم متعلق بالأعمال يتمثل في حمل النفس على القيام بالطاعات بأقصى ما تطيق، وبحبس النفس عن المعاصي بأبعد ما تستطيع البعد، فيكون الصبر بذا حمل النفس على التزام الحكم الشرعي بأحسن ما يكون الالتزام. ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [97 النحل]، وروى مسلم في صحيحه: «ما نَهَيْتُكُمْ عنه فَاجْتَنِبُوهُ، وَما أَمَرْتُكُمْ به فَافْعَلُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ»، وقال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [112 هود]، فلا تخيير في التزام أمر الله تعالى، أي إن ضد الاستقامة الطغيان، أي تجاوز الأمر وعدم الالتزام به، فإن اشتد في الطغيان وأسرف فيه دخل في وصف الطاغوت، أي أعظم الطغيان، الذي أمرنا الله تعالى بالكفر به، ونهانا عن الاحتكام إليه، وجاء سفيان بن عبد الله الثقفي يوما فقال: يا رسول الله: حدثني بأمر أعتصم به، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل آمنت بالله، ثم استقم»، رواه مسلم، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف 13]، وَقَالَ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا فِي قَوْل اللَّه تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: مَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُول اللَّه ﷺ فِي جَمِيع الْقُرْآن آيَةٌ أَشَدّ وَلَا أَشَقُّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَة وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ حِين قَالُوا: قَدْ أَسْرَعَ إِلَيْك الشَّيْبُ فَقَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُود وَأَخَوَاتهَا»؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «اِسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا».

وأما الصبر كمفهوم متعلق بالاعتقاد، فيكون بتسليم مقاليد تصريف الأمور في الكون إلى الخالق، فيما يقع في دائرة القضاء والقدر، فلا تغير صروف الدهر من حسن صلة المسلم بربه، فلا يجزع، ولا تغيره الابتلاءات والمحن، بل تشحذ نفسه بعزيمة ليمضي في الدنيا عالما أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فيبقى المسلم بصبره شامة بين الخلائق يرقى دوما في معالي العلا. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [31 محمد]، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [17 لقمان]،

القدر يحمل على الإيجابية، بينما القدرية الغيبية فتحمل على التسليم والسلبية:

ومفهوم الإيمان بالقدر أبعد ما يكون من أن يوضع في قالب التسليم والاستسلام، وقالب "ما هو مكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين"، مع أن الغيب (المكتوب) علمه عند الله! ولا يستقيم أن يستسلم المؤمن الذي أعطاه الله مسئولية العمل والأخذ بالأسباب، لواقعٍ طُلِبَ منه التفاعلُ معه وتغييره، فبدلا من التغيير والأخذ بالأسباب يستبدل بها القعود والتواكل، وكأن واقعه السيء "مكتوب عليه لا يتحمل مسئولية تغييره"؛ الأمر الذي أفضى لانتشار القدرية الغيبية بين المسلمين، بدلا من القالب الصحيح الذي صُبَّت العقيدةُ فيه، أي قالب الإيمان بالقضاء والقدر، وقالب التوكل على الله، وهو قالب الإيجابية والتحريك والدفع للقيام بالعمل على أفضل وجه، من هنا كان لا بد من فصل القدر عن القالب الذي صُب فيه في عصور الانحطاط والتأثر بالفلسفات الأخرى، وإعادة مزجه بالقالب الأصلي العقدي، أي أن يُتَّخذَ الإيمانُ بالغيبِ دافعاً إيجابياً للعمل، وقيادةً فكرية تذلل الصعاب وتبعث على الطمأنينة **والتوكل الحق**،

[مثال عملي: فُصل موظف من العمل، وهذا أمر مقدر من الله، فقد يتصرف بأن يقعد عن البحث عن عمل محتجاً أو مقتنعاً بأنه مقدر عليه الشقاء وأن يعاني، وفي الواقع هو لا يعلم هل مكتوب عليه الشقاء أم السعادة! فلا يصح <u>أن يَخلط</u> "قنوطه" <u>وتخريصه</u> بأنه مكتوب عليه الشقاء <u>بعمله</u>، فهذا الخلط هو القدرية الغيبية، <u>ويجب أن يُفْصَلَ عن العمل</u> أيُّ تفكيرٍ يضع في الاعتبار أنه مكتوب عليه كذا أو كذا. لأنه لا يعلم، فلعل في فصله من عمله الأول خير له، فحين يسعى ويحصل على العمل الجديد يجده أفضل من سابقه (في دنياه وعاقبة أمره)، وأن عمله السابق كان مُقيِّداً له عن البحث عن عمل أفضل، فخلَّصه الله من هذا القيد، لذلك فالموقف السليم هو أن يتصرف بأن يأخذ بالأسباب ويبحث عن عمل جديد، وحصوله على عمله الجديد الأفضل هو بقدر الله أيضاً، لم يكن يعلمه، ولكن حسن ظنه بالله، وأن ما يأتيه من الله كله خير، وما أصابه ما كان ليخطئه، وإيمانه بأن الرزق من عند الله، كلها شكلت عنده دافعا للإيجابية والسعي والهمة والطمأنينة بدلا من الارتكاس واليأس والقنوط الذي تدفعه له القدرية الغيبية والقعود، لذلك ينبغي فصل العمل عن القالب الأول (قالب القدرية الغيبية) ودمجه بالقالب الثاني: أي الطمأنينة والإيجابية والثقة بالله، دون أن يضع في حساباته حين السعي بحث أن الله قدَّر عليَّ فصلي من العمل، والشقاء، وهو مكتوب، ونتيجته الطبيعية المعاناة ونقص في الأموال، (فالفصل عن قالب القدرية الغيبية هو المطلوب) لكن لا يمكن أن نفصل المسلم عن فهم القدر الإيجابي المبني على الثقة بالله وأنه الرزاق، فهذا قالب إسلامي عقدي، وفي كل الأحوال ينبغي السعي والأخذ بالأسباب، **<u>إن الإيمان بالقدر يشكّل: قيادة فكرية إيجابية تدفع المؤمن للعمل ولتذليل الصعاب</u>**]

الاستهداء بقدر معروف لكن توقيته وكيفية تحققه مجهولة لنا:

على أنه ثمة فرق بين الاستهداء **بقدر معروف**، رغم أن **توقيته غير معلوم**، وكيفية تحققه غير معلومة لنا، كوعد الله تعالى أنبياءه والذين آمنوا **بنصره**، وتكفله سبحانه وتعالى لعباده **بالرزق**، فيطمئن المؤمن إلى أن الله سينصره، وسيرزقه، وأنه حسبه إذا توكل عليه، فلا يبالي حينها بمقدار اضطراب موازين القوة في الدنيا، ولا يقول: إذا قامت الدولة الإسلامية فكيف لها أن تقف في وجه الشرق والغرب، وبالتالي: يُقْدِمُ على العمل مطمئنا مشحونا بعزيمة وطاقة هائلة، بخلاف من يتسرب اليأس إليه، ويترك السعي والعمل، ويثبط العزائم ناظرا في موازين القوى مستثنيا منها ميزان أن الله ناصر دينه ومتم نوره ولو كره الكافرون، فالناظر في حال الرسول ﷺ قبيل بيعة العقبة يرى أن قومه كانوا قد قاطعوه مقاطعة شاملة، ألجأت المؤمنين إلى أكل ورق الشجر والجلود، وكان جل المؤمنين له في الحبشة، ومن كان في مكة كان المستضعفون منهم يُسامون سوء التعذيب، ومن يعايش حالا كهذا يصعب عليه أن يَقْبَلَ أن الأسباب المادية توحي باقتراب نصر مؤزر، ومع ذلك كان الصحابة يؤمنون بفتح فارس منذ ذلك الوقت! الأمر الذي تحقق بعد تلك المعاناة بعشرين سنة فقط!

جواب مفاجئ من الرسول ﷺ على طلب من أنهكته جراح التعذيب!

الدرس العميق الذي يمكن استخلاصه من فترة تعذيب المؤمنين في مكة، هو أنه، حتى في ذروة الشدائد، اقترب صحابي شاب فقير من النبي ﷺ، وعلى ظهره آثار ندوب عميقة، مثل الأخاديد، جراء تعذيب قاسٍ بالحديد المحمى، طالبًا التدخل الإلهي للنصر والعون. بعكس ما يمكن توقعه من رد فعل الرسول ﷺ بأن يرفع يديه إلى السماء داعيا الله تعالى تحقيق ما يطلبه خباب، وبانتصار الإسلام وظهوره وتحقيق الغاية التي من أجلها أرسل الرسول! رد النبي، ﷺ، بمنظور تاريخي مؤثر، بالغ التعبير، شديد الروعة؛ قال الإمام البخاري - رحمه الله -: عن خبَّابِ بن الأرتِّ قال: "شكَوْنا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو الله لنا، قال: «كان الرجلُ فيمن قبلكم يُحفَرُ له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيُوضَع على رأسِه، فيُشقُّ باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَط بأمشاطِ الحديد ما دون لحمِه من عَظْمٍ أو عصَب، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، والله ليُتمنَّ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمِه، ولكنكم تستعجلون».

أما أهم الدروس المستفادة من هذا الجواب التاريخي المسطر بماء الذهب، فهو أن الثقة المطلقة بقوة أفكار العقيدة الإسلامية، وقدرتها على إمداد المؤمنين بها بطاقة هائلة تجعلهم يتحملون أشد الأهوال دون أن يدور في مخيلة أحدهم أن يتنازل عنها، إنما لأنها الحق الذي لا باطل فيه، ولأنها انعقدت في قلوبهم، جراء تميزها بِرقِيِّ تَصَوُّرِها عن الكون والإنسان والحياة، ثم في تَمَثُّلِ هذا التصورِ في إطارِ منهجٍ عَقَدِيٍّ شاملٍ راقٍ كُلِّيٍّ غَائِيٍّ يفسّرُ الكونَ والحياةَ، ويحددُ علاقات الإنسان بالحقائق الكونية الكبرى[11]، وعلاقاتها هي بالإنسان، على وجه صحيح، ويوضح له غايته من الوجود، ويبينُ للإنسان موقعه ومسؤولياته ودوره في الحياة، رابطاً ذلك بما قبل الحياة الدنيا، وما بعدها.

ولقد صبَّ الإسلامُ ذلك المنهجَ العقديَّ الشاملَ في قالبٍ "ذاتيٍّ مستقلٍّ، وفق طبيعته الكلية، التي تخاطب الكينونة البشرية جملةً، بكل مقوماتها وطاقاتها، ولا تخاطب "الفكر البشري" وحده خطاباً بارداً مصبوباً في قالب المنطق الذهني"[12]، فزاوج بين الإيمان والعمل الصالح! فكان عقيدةً نابضةً بالحياةِ، لا فلسفة جافَّةً باردةً، كان مفاهيمَ حيويةً تحركُ النفوسَ، وتبعثُ في أرْجَائِها السَّكِيْنَةَ والطُّمَأْنِيْنَةَ والتَّأَثُّرَ والتَّأْثِيْرَ، والتَّفْكِيرَ والتَّدبُّرَ، والانطلاقَ لحملِ رسالتِهِ، والثِّقَةَ المطْلَقَةَ بالوصولِ للحقيقةِ المطلقةِ وامتلاكِها، والعمل بمقتضاها! وهذا يفسر لنا كيف استطاعت هذه النفوس التي صقلت بهذا الفهم الراسخ والإيمان العميق للعقيدة الإسلامية أن تدخل نصف الكرة الأرضية المعروفة في ذلك الزمان في سلطان الإسلام وعدله، دون أن تُكره

---

[11] الله، والربوبية، والألوهية، والملك والسلطان، والحاكمية، وصلة الخلق، والتنظيم، والتدبير.

[12] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الشهيد سيد قطب رحمه الله، كَلِمَة في المنْهج.

أحدا على تغيير معتقده، لكنها بسطت نمط العيش الراقي، والحضارة التي سمت بالإنسان، حيث يُشكِّلُ الإسلامُ هويةً ثقافيةً ومزاجاً نفسياً، وانتماءً حضارياً وتاريخياً صاغ المقومات الخاصة والعامة للشعوب والأعراق التي دانت به أو خضعت له، فصهرتها بعملية صهرية فريدة ليس لها نظير في التاريخ، في بوتقة العقيدة الإسلامية والشريعة السمحة لتكون قوام أمة واحدة من دون الأمم، هي خير أمة أخرجت للناس، بل ولقد أثرت الحضارة الإسلامية حتى في الأمم التي بارزتها العداء أحيانا! ولقد امتلك الإسلام القدرات الجبارة على تحريك المنتمين للأمة في معارك الوجود الفاصلة، وكان بمثابة خط الصمود الأول والدفاع المستميت عن كرامة الأمة وهويتها، وعن سلطان الأمة وسيادة أحكامه في معترك الحياة، -عقيدة تتحرك في الجوانح، ونظاما سياسيا يشكل الدرع الواقية التي يقاتل من ورائها ويتقى بها، وشخصيات فذة، وقادة، وعلماء، ومدارس فقهية، ومراكز علمية-، فانتقل الإسلام بالأمة نقلة نوعية ليكون مسوغ وحدتها، ومصدر قوتها، وتميزها، وقوامتها على البشرية، وخيريتها، وليكون بُعدها النفسي والفكري المحرك لمجتمعها في ميدان صلاحها وفق أحكام شريعتها.

ولقد كان الإسلام منهجاً لصياغة حركات المجتمعات المتعاقبة وتدافعها عبر التاريخ مع غيرها من الأمم، ومقياساً لنهوضها وانحطاطها، ووازعاً لها للنهوض بعد كل كبوة، من خلال منظومة دقيقة للفهم، محكومة بنواميس وسنن كونية ربانية يكون اكتشافها وتدبرها وفهمها وتنزيلها على الواقع طريقاً من طرق العبادة والتقرب إلى الله، ودافعاً للعمل دوماً لاقتعاد مقعد السيادة والريادة والقوامة على البشرية، والقيام على الأمانة التي أنيطت بالأمة، ذلك النهج وتلك المقاييس رفضت رفضاً تاماً أي نوع من التهويم والعشوائية والارتجالية وأن تخضع حركة المجتمع لضرب من التجارب، بل عوضاً عن ذلك تسلحت الفكرة الإسلامية بالعلم وأدواته الدقيقة المنضبطة بالوحي، فقدم للعقل البشري فرصته الاستثنائية لكي يتحرك حرا في الفهم والابداع والاستنتاج، بعد أن قدمت له الفكرة الإسلامية منظومة متكاملة من القيم والشرائع والمقاييس التي يستنبط منها الأحكام اللازمة لعمارة الأرض وتحقيق قيمة الاستخلاف فيها.

ولقد تجلى الإسلام منبراً ومدرسةً معرفيةً، وتجلى هويةً حضاريةً للأمة على عظيم دورها وضخامة قيمتها، وإلى جانب ذلك كان حامل منظومة قيمية ومفاهيم للإنسانية ترتقي على حدود العرق واللون والطبقية، ليكون نظام حياة للإنسان الذي يخضع لأحكامه، مسلماً كان أم ذمياً، يقيم الإسلام في المجتمع ميزان الحق والعدل، على اعتبار أنه رحمة للعالمين. ويقيم على البشرية وما لديها من نظم وثقافةٍ الحجةَ بقيمه ورحمته وأنظمته.

والدرس الثمين الثاني من هذه القصة العظيمة -قصة خباب- هنا هو المسؤولية العميقة التي نتحملها في إنقاذ الإنسانية من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. نحن مقدر لنا أن نقضي على الظلم، ونقيم العدالة الحقيقية، ونحرر المظلومين، ونضمن توزيع الثروة بشكل عادل، بتطبيق شرع الله تعالى. إن الإسلام يجعل

المؤمن لا يرضى أن يعيش على هامش الحياة، بل يضطلع بدور المسؤولية عن الغير، بل عن الأمم الأخرى بحمل الرسالة والدعوة لينشر الخير ويهدي الناس للدين الحق،

إن هذه المهمة الضخمة تتطلب إيمانًا ثابتًا وصلابة. الأمر الذي سيفضي قطعا إلى الاصطدام العنيف مع الهياكل السلطوية القائمة، التي يتلاعب بها أولئك الذين يخدمون مصالحهم، ولا بد إذن أن نثبت جدارتنا بأننا حقيقون بالدعم الإلهي لإنجاز التغيير. لكي نكسب هذا، يجب أن نتبع خطى الأمم السابقة، ونظهر إيماننا الثابت، ونثبت جدارتنا في الحفاظ على هذه المهمة السامية. وبذلك، نغنم ثواب كل عمل يعمله أي مسلم يأتي من بعد إلى يوم القيامة، لا ينقص من ثوابهم شيئا، وأجر كل روح تجد الهداية وتؤدي الأعمال الصالحة تحت عدل الإسلام، وتنجو من العذاب. وهذا بدوره، يعزز من مرتبتنا في الجنة. (يرجى أخذ الأهمية العميقة لهذا المفهوم بعين الاعتبار لفهم السبب الذي يجعل الجهاد والكفاح المسلح قد يُستخدم كوسيلة من قبل الأنبياء والمؤمنين عند مواجهة الظلم والشخصيات السلطوية التي تقاوم السماح لنور الإسلام وقيام العدل بالانتشار في الإنسانية والمجتمع، إلى جانب أن الإسلام ليس بفلسفة جامدة، ولكنه منهج عيش ونظام دولة، ولا يمكن للدولة إلا أن تمتلك القوة للدفاع عن نفسها وعن رعاياها، أو لمواجهة خصومها أو لتحقيق موقعها المتناسب مع مسؤوليتها التاريخية عن البشرية وأهدافها.) علاوة على ذلك، تبرز هذه القصة للمجتمعات أهمية الصلابة في أوقات الشدة. إن مثل هذه المحن تُطهر إيماننا، تقربنا من الله وتجعلنا جديرين بدعمه النهائي في هذا العالم والآخرة.

بل وفي ظل هذا الوضع طلب الرسول ﷺ النصرة من بني شيبان، فوافقوا على نصرة مشروطة منقوصة يعطونه إياها على العرب دون العجم، لارتباطهم بعهود ومواثيق مع الفرس، فرفض الرسول ﷺ قبول نصرتهم لأن «دِينَ اللّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إلّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ»، وما هي إلا أن سخَّر الله لهم الأنصار حتى قامت الدولة. وأيضا، بخلاف قَدَرٍ غير معلوم، ومثاله: هل الخير في هذا العمل أو في هذا التخصص من الدراسة أم لا؟ فأمثال هذا لا يوضع الغيب في الحسبان، يأخذ بالأسباب ويفوض الأمر إلى الله أن يختار له أحسنه، وفي هذا يدخل موضوع الاستخارة، التي كان الرسول ﷺ يعلّمها أصحابه في كل شأن، فعليهم الأخذ بالأسباب والقيام بالخيارات، ومن ثم يستخيرون الله بأن يختار لهم الخير، وأن يوفقهم لما فيه خيري الدنيا والآخرة.

ومن المهم بمكان أن يفهم المسلمون أهمية هذا المفهوم: "الاستهداء **بقدر معروف**، رغم أن **توقيته غير معلوم**، وكيفية تحققه غير معلومة لنا". فمثلا: حين تقع على المسلم مصيبة أو يبتلى بابتلاء، فإنه يعيش ظروفا صعبة تتقلب فيها نفسه بين الأمل والخوف، والطمع والظنون، لكنه يستعمل تلك القوانين الربانية التي صاغتها العقيدة الإسلامية ليستهدي بها، فمثلا: مهما ضاقت عليه أمور الرزق، يؤمن قطعا بأن الرزاق هو الله سبحانه وتعالى، سيأتيه بالفرج بعد العسر، في الحديث قال ﷺ «إنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أنَّ نَفْسًا لنْ تَمُوتَ حَتّى تَسْتَكْمِلَ أجَلَها وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَها، فاتّقُوا الله وأجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلا يَحْمِلنَّ أحَدَكُمُ اسْتِبْطاءُ الرِّزْقِ

أنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ الله، فإنّ الله -تَعَالَى- لا يُنالُ مَا عِنْدَهُ إلاّ بِطاعَتِهِ»، ف"قانون" أن الرزق بيد الله، وقانون ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم 47]، وقانون: أن النفع والضر بيده وحده، وبيد الله تعالى كشف الضر، وإرادة الإنسان بالخير، وأن يمسه بالخير، ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ۝ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ **وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ** فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [106-107يونس][13]، ﴿أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن مُمسكات رحمته﴾ [الزمر 38]، هذه القوانين ونظائرها يستعين بها المؤمن دوما لتقوده قيادة فكرية إيجابية فلا تنكسر نفسه لظرف ملم، ولا يخشى أحدا، ولا يرجو أحداً إلا الله، ولا يتسرب اليأس إليه، ولا تنكسر عزيمته، ولا يضعف ولا يستكين، ولا يشك ولا للحظة واحدة بمعية الله تعالى، وبإنفاذه تعالى لتلك القوانين.

ألم تر إلى حال المؤمنين حين أحاط الأحزاب بالمدينة المنورة، فوصفه الله تعالى بأبلغ الوصف ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب 10-11][14]، بلغت الشدة والزلزلة أن زاغت الأبصار، أبصار المؤمنين، وزَيْغُ الأبصار أن يريد البصر التوجه نحو ناحية فيقع إلى صوب آخر من شدة الرعب والاندعار، وبلغت القلوب الحناجر، تمثيلا لشدة اضطراب القلوب من الفزع والهلع، حتى كأنها جاوزت مقارّها، وترتفع من شدة خفقانها من الصدور لتبلغ الحناجر، من شدة الضيق، والمراد بزلزلة المؤمنين شدة الانزعاج والذعر لأن أحزاب العدو تفوقُهم عَدداً وعُدة، واشتد البلاء وطال حتى ظنت الأنفس بالله الظنون، وتظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة؛ فالمؤمن وإن كان يثق بوعد ربه لكنه لا يأمن غضبه من جراء تقصيره، ويخشى أن يكون النصر مرجَّأ إلى زمن آخر، فإن ما في علم الله وحكمته لا يحاط به، والمنافق يظن أن ما وعد الله لرسوله ما هو إلا غرور، ويظن المخلصون منكم الثابتون في ساحة الإيمان أن ينجز سبحانه وعده في إعلاء دينه ونصرة نبيه ﷺ، ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾ إذن، فالآية الكريمة تنبهنا إلى ضرورة إحسان الظن بالله حتى في أحلك الملمات، فالله تعالى أهلٌ لأن ينصر دينه ويعزَّ جنده ويهزم الأحزاب وحده، أهلٌ للتوكل عليه والثقة به.

---

[13] والإرادة بالخير: تقديرُه والقصدُ إليه. ولما كان الذي لا يعجزه شيء ولا يتردد علمه فإذا أراد شيئاً فعله، فإطلاق الإرادة هنا كناية عن الإصابة كما يدل عليه قوله بعده: ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾، وقد عبر بالمس في موضع الإرادة في نظيرها في سورة [الأنعام 17] ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ **وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ** فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولكن عبر هنا **بالإرادة** مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراده تعالى كائناً من كان بحيث لا يستطيع التعرض لله في خيره ولو كان بمجرد إرادته قبل حصول فعله، فإن التعرض حينئذٍ أهون لأن الدفع أسهل من الرفع، وأما آية سورة الأنعام فسياقها في بيان قدرة الله تعالى لا في تنزيهه عن المعارض والمعاند [التحرير والتنوير لابن عاشور]. هذه القوانين تدفع المسلم إلى الطمأنينة، فما ظنه برب العالمين؟ روى البخاري في الحديث: «يقولُ اللَّهُ تَعالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي» فمن ظن بالله خيرا في حال الشدائد، وذكر الله، كان الله معه، وكان عند ظنه به.

[14] التحرير والتنوير لابن عاشور، وروح المعاني للآلوسي بتصرف شديد.

صقل الإسلام عقلية المسلم للتعامل مع المصائب والابتلاءات والمحن بإيجابية ورضا وتفاؤل وطمأنينة:

أما المصائب والابتلاءات والمحن، والنفع والضر، فقد صقل الإسلام عقلية المسلم لتتعامل معها بإيجابية، وبنظرة ملؤها التفاؤل والطمأنينة، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا **كَتَبَ اللّهُ لَنَا** هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة 51]، أي **إن كل ما يصيبنا** ما كان إلاّ **بتقدير الله لمصلحة المسلمين** في ذلك، **فهو نفع محض** كما تدلّ عليه تعدية فعل ﴿كَتَبَ﴾ باللام المؤذنة بأنّه كتب ذلك لنفعهم، وموقع هذا الجواب هو أن العدوّ يفرح بمصاب عدوّه لأنّه ينكد عدوّه ويُحزنه، فإذا علموا أنّ النبي ﷺ **لا يحزَن لما أصابَه** زالَ فرحُهم. وفيه تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم لئلا يهنو وتذهب قوتهم"[15]،

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد 22-23]،

وقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى سبيل الوقاية، وطريق التوفيق، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «كنتُ خلفَ رسولِ اللهِ ﷺ يومًا قال يا غلامُ، إني أعلِّمُك كلماتٍ: **احفَظِ اللهَ يحفَظْك**، احفَظِ اللهَ تجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، **وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللهِ**، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفَ»، وقد حوى هذا الحديث من القوانين ما يشكل مدادا لكل كتاب يسطره المؤمن في سيره في حياته، وقيادة فكرية تبعث الطاقة الهائلة على الثقة والطمأنينة ومعية الله تعالى، والتوكل عليه والاستعانة به.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد 22]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام 38] معناها إلا أمم أمثالكم مكتوب أرزاقها، وآجالها وأعمالها، كما كتب أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم، ما تركنا وما أغفلنا في اللوح المحفوظ من شيء، فأطلق الكتاب على اللوح المحفوظ، أي كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا كناية عن علم الله، أي ما من شيء إلا والله يعلمه. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود 6]، ومن عَلِمَ أن رزقَهُ على الله وأجَلَهُ بِيَدِ الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ أحداً لا يملك له نفعا ولا ضراً إلا الله تعالى، وأن رزقه وأجله ليس بيد أحد غير الله، ولا يطول عمره، ولا يقصر، سار في الحياة غير هياب، سار مطمئنا واثقا مستعليا بإيمانه سعيدا بمعية ربه، روى أبو سعيد الخدري: «ألَا لا يَمنَعَنَّ أحَدَكم رَهْبةُ النَّاسِ

---

[15] التحرير والتنوير لابن عاشور

أنْ يقولَ بحَقٍّ إذا رَآهُ أو شَــهِدَه؛ فإنَّه **لا يُقرِّبُ من أجَلٍ، ولا يُباعِدُ من رِزْقٍ**؛ أنْ يقولَ بحَقٍّ أو يُذكِّرَ بعَظيمٍ»، **فالمؤمن الذي يدمج إيمانه بهذه المعاني للقدر مع أفعاله**: لا يخشى إلا الله، ولا يتهاون في أداء أمر بمعروف ولا نهي عن منكر مخافة اقتراب أجل أو انقطاع رزق، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَــاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّــلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَــىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة 18]، ولم يخش إلا الله فيقول الحق، فهذا هو المعنى الإيجابي لدمج الإيمان بالقدر بالعمل، فهو طاقة هائلة تعطي المؤمن زخماً هائلا لأداء الأعمال غير هيّاب، وأن يتعامل مع الملمات بطمأنينة ورضا وثقة،

درس بليغ من تعامل الرِّبِّيّينَ مع ما أصابهم في ساحة القتال:

وقد امتاز المؤمنون بتسليمهم ورضاهم بقضاء الله وقدره على غيرهم من الأمم، الأمر الذي ملأ نفوسهم طمأنينة ورضا، وحياتهم إيجابية، فلم يرتكسوا لما أصابهم، ولم يهنوا ولم يضعفوا؛ ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُواۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران 146 - 148][16]، و(الرِّبِّيُّون) جمع رِبِّيّ وهو المتّبع لشريعة الرّب مثل الربّاني، والمراد بهم هنا أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء، حين تقرأ الآية السابقة فترى أن معركة قادها نبي، وقاتل معه رِبِّيُّونَ كثير، تظن أن النصر لن يخطئهم، فتتفاجأ بأن نتيجة المعركة كانت هزيمتهم، لكن هذه الهزيمة لم تضعف عزائمهم، طالما أنهم يقاتلون في سبيل الله تعالى، فالأجر متحصل لهم بغض النظر عن نتيجة المعركة، وقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي الربّيّون إذ من المعلوم أنّ الأنبياء لا يهنون فالقدوة المقصودة هنا، هي الاقتداء بأتباع الأنبياء، أي لا ينبغي أن يكون أَتْباعُ من مضى من الأنبياء، أجدر بالعزم من أَتْباعِ مُحمد ﷺ، وجمع بين الوهن والضّعف، وهما متقاربان تقارباً قريباً من الترادف؛ فالوهن قلّة القدرة على العمل، وعلى النُّهوض في الأمر، والضّعف ـ بضم الضّاد وفتحها ـ ضدّ القوّة في البدن، وهما هنا مجازان، فالأوّل أقرب إلى خور العزيمة، ودبيب اليأس في النُّفوس والفكر، والثّاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة. وأمّا الاستكانة فهي الخضوع والمذلّة للعدوّ، وقد نفاها كلها عنهم رغم مصابهم. ومن اللطائف ترتيبها في الذّكر على حسب ترتيبها في الحصول: فإنَّه إذا خارت العزيمة فَشِلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعته المذلّة والخضوع للعدوّ، لذلك استحقوا محبة الله على صبرهم، لم تثنهم الهزيمة عن أن تظهر خصالهم الإيجابية فلا وهن ولا ضعف ولا استكانة، بل عزيمة ومضاء على معاودة الكرة، ودراسة لأسباب الوضع الذي هم فيه للتحضير لما بعده!

ومن الإيجابية أن الإسلام رفض أن يكون فلسفة جامدة، وإنما كان عقيدة حية مؤثرة، تصوغ الحياة على مزاجها الإيجابي، يسير فيه المؤمن مغمورا بسعادة الرضا بالقرب من الله وطاعته، ويحس على الحقيقة أن كل ما أصابه هو مما كتبه الله له لا عليه، وأن أمره كله خير، روى مسلم في صحيحه من حديث رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له»، والشكر والصبر علامة على محبة الله له، يبتليه ليرفع درجاته، وليحط عن سيئاته، وإن مع العسر يسرا، وإن الله تعالى بقدرته قادر على أن يسخر له من الأسباب ما لا يحسنه بقدراته البشرية، إذا ما أحسن التوكل عليه، وأن التوفيق من عند الله، يستنهض الإسلامُ عزيمته ليقوم بمعالي الأمور، وينتهي عن سفاسفها، دائم السعي للكمال وإحسان العمل ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا

---

[16] التحرير والتنوير لابن عاشور، بتصرف.

مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر 32]. وباب التوبة مفتوح، فلا يأس حتى مع الإسراف في المعاصي. ووافقت أقوالهم أفعالهم، فدل طلبهم من الله أن يغفر لهم ذنوبهم، مع ما فيه من العطف على ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ لأنَّه لمّا وصفهم برباطة الجأش، وثبات القلب، وصفهم بعد ذلك بما يدلّ على الثبات من أقوال اللِّسان الَّتي تجري عليه عند الاضطراب والجزع، أي أنّ ما أصابهم لم يخالجهم بسببه تردّدٌ في صدق وعد الله، ولا بَدَر منهم تذمّرٌ، بل علموا أنّ ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، أو لعلَّه كان جزاءً على تقصير منهم في القيام بواجب نصر دينه، أو في الوفاء بأمانة التكليف، فلذلك ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، ثُمّ سألوه النصر وأسبابه ثانياً فقالوا: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلم يصُدّهم ما لحقهم من الهزيمة عن رجاء النَّصر، فصيغة القصر في قوله: { وما كان قولهم إلا أن قالوا } قصر إضافي لردّ اعتقاد من قد يتوهمّ أنَّهم قالوا أقوالاً تنبئ عن الجزع، أو الهلع، أو الشكّ في النَّصر، أو الاستسلام للكفار. والإسراف هو الإفراط وتجاوز الحدّ، ويجوز عندي [ابن عاشور في تفسيره] أن يكون المراد بالإسْراف في الأمر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدوّ، وهذا الظاهر من كلمة أمْر، بأن يكونوا شكُّوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوّهم ناشئاً عن سببين: باطنٍ وظاهر، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهرُ هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر، وقوله: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إعلام بتعجيل إجابة دعوتهم لِحصول خيري الدنيا والآخرة، فثواب الدّنيا هو الفتح والغنيمة، وثواب الآخرة هو ما كتب لهم حينئذ من حسن عاقبة الآخرة، ولذلك وصفه بقوله: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ لأنَّه خيرٌ وأبقى.

سادساً: والاختيار (في ظل أن الإنسان كائن أخلاقي، لديه نوازع للخير وأخرى للشر ﴿وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وقدرة على الاختيار بين الإيمان أو الكفر، بين الهدى أو الضلال، بين الاتباع أو المعصية، بين الإصلاح أو الإفساد، بين الاختيار أن يكون شاكراً أو كفوراً ﴿إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إمّا شاكِرًا وإمّا كَفُورًا﴾)، فقد أعطي الإنسان مطلق حرية الإرادة في اختيار معتقداته وأفعاله، وتمكينه من خيار اتباع المنهج الرباني أو الإعراض عنه، مع تحميله المسئولية الكاملة على أفكاره وأفعاله وقراراته، وما ينتج عنها من ظلم لنفسه أو لغيره، ومع المحاسبة الدقيقة على أفكاره وسلوكه وعلاقاته، والثواب والعقاب، وإنصاف المظلوم من الظالم في الدنيا والآخرة.

سابعاً: الدنيا والآخرة، والثواب والعقاب، والجنة والنار، فالآخرة خير لك من الأولى، والدنيا ممر للآخرة، والدنيا زائلة، والآخرة باقية، يحاسب الإنسان على أعماله التي قام بها في الدنيا، ويرى جزاء مثقال الذر من الخير والشر، فيحاسب نفسه قبل أن يُحاسبه الله، ويمتنع عن المساس بحقوق الآخرين لعلمه بأنه سيضطر للتكفير عنها وأنها مبنية على المشاحة لا المسامحة، فلا تفريط.

الغاية من الوجود والهدف من الحياة:

ثامناً: تحقيق الغاية من الوجود والهدف من الحياة. فلم يخلق اللهُ الكونَ عبثاً، ولم يترك الإنسان سدى بلا أمر ونهي، "وبالبحث في القرآن نجد أن أقصى ما سيحققه البشر في الدنيا والآخرة هو علاقة الحب مع الله، ونجد في القرآن ذكر رحمة الله وكرمه وتوفيقه وعطاءه، وسائر صفات الله، يعطيها الله لكل البشر المقبلين عليه بلا موانع، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه باعاً، وأبوابه مشرعة، ويده مبسوطة، وعفوه قريب، ويبسط رزقه حتى للكافر!

والحب هو علاقة بين اثنين، أَمَا وقد غمرَنا اللهُ برحمته ومغفرته وعطائه وتوفيقه ورعايته، فإذا لم نقم بمقتضيات المحبة بعد هذا العطاء بأداء حق الله، فكأنما نكون رفضنا عطاءه، ولم نحبه على الحقيقة، والنتيجة أننا لم نتمكن من الشعور بعلاقة الحب مع الله، لأننا لم نفتح قلوبنا له، وحب الله ينتظرنا ولن نحصل على محبة الله ما لم نَسْعَ لذلك، فلا ينمو هذا الحب أبداً. وكفر النعمة يحدث من خلال الرفض والتجاهل والتنكر للنعمة التي يعطيها الله لنا. من ناحية أخرى فالقرآن يؤكد أن المؤمنين المتبعين سيتمتعون بهذه العلاقة من الحبّ مع الله، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران 31] والله يؤكد أنه يحب صفاتٍ معينةً في البشر كالتقوى والإحسان، والرحمة، والكرم، والصبر.

وبهذا يتضح من القرآن بشكل جلي بأن الهدف من الحياة، أن الله استخلف الإنسان في الأرض، لا ليفسد فيها ولا ليسفك الدماء، بل أراد مجموعة من البشر أنشأت بإرادتها الحرة، وبتفكيرها المستنير، وبقدرتها على التفاعل مع ما سخره الله لها، علاقةً ساميةً من معرفة الله، ومن الحب مع الله، وهؤلاء سيستمتعون بسعادة في علاقتهم مع البشر وفي علاقتهم مع الله، وهي أقصى المتع التي ستبهجهم في الدنيا وكذلك في الآخرة، عندما تنتهي كل المشوشات للأبد، لكن يلح سؤال مهم وهو أنه كان بالإمكان أن يخلقنا الله في الجنة، ويبرمجنا على حبه، فلماذا كان لا بد من الإيمان والابتلاء والصبر والاختبار والتكليف طريقاً للجنة؟

للإجابة عن السؤال، يجب أن نجد الرابط بين المؤمنين وبين الله. إن ما يطلبه القرآن من المؤمنين هو صفات معينة يحبها الله فيهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم 96]، وإذا ما حصرنا قائمة الأعمال الصالحة والصفات الحسنة، كالرحمة والرأفة والمسامحة والكرم والعلم والحكمة والحق وحب الآخرين؛ وسألنا أنفسنا: ما الذي يخبرنا القرآن عن الطرف الثاني في العلاقة (الله)؟ الله هو أحدٌ صمدٌ، ليس كمثله شيء، غير محدود بالزمان ولا بالمكان، حيٌ لا يموت، الخ، لذلك فليس هناك وجه مقارنة ولا تكافؤ بين الله والمخلوقات، ويصعب حينها الوصول للرابط الأساس بيننا وبين الله، فأين هي الصفات الجامعة في العلاقة بين الإنسان وبين الله تعالى؟ ولو تأملت القرآن، فستجد الآيات تصف الله بوصف ثنائي:

بأنه رحمن رحيم، وأنه غفور شكور، وأنه عزيز حكيم، وأنه حليم غفور، وتستطيع معرفة العشرات من صفات الله في القرآن وهذه هي الاسماء الحسنى، فإذا ما قابلتها بصفات المؤمنين التي أرادها منهم، اذن ينبغي علينا التحلي بهذه الصفات، نحن هنا في الدنيا لنعبد الله ونحب الله ونقيم معه علاقة، ولكن كيف نقيم معه علاقة ونحن محدودون نفنى ونموت وهو أزلي غير محدود، فهذه صفات متضادة بيننا وبين الله. فكيف نصبح قريبين من الله بهذه الصفات؟ إذا أردت أن أكون قريبا منك عليّ أن أشاركك في شيء مشترك بيننا، تماما كما يحدث بين الناس بعضهم بعضا،

ولكن كيف لشخص أن يقترب من الله؟ ما المشترك بيننا وبينه؟ لو نظرنا لوجدنا أنه سبحانه أعطانا عند خلقنا نفخة من روحه. لذلك نأتي الى الدنيا بهذه الصفات والميزات بسبب نفخة الروح هذه، ونحن بدورنا كبشر إما ان نُدَسّي هذه الصفات أو أن نزكيها، والتزكية ليست فقط تشعرنا بالسعادة بسبب هذه الخبرة في الحياة الدنيا، ولكن سنتمكن من الإحساس بصفات الله الرائعة من الجمال والقدرة والرحمة والود وكل أسمائه الحسنى، وكل هذه الصفات اللامتناهية تأتي من المصدر اللامتناهي لهذه الصفات الحسنى من الله، كلما جاهدنا لنتصف بالرحمة تمكنا من الاقتراب من الرحمة العظمى لرب العالمين في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكذلك الأمر بالنسبة للرأفة ولنصرة الحق، وكلما جاهدنا لنتصف بصفات المؤمنين كلما تمكنا من الاقتراب من الله ذي الصفات الحسنى وبالتالي نستطيع أن ندرك الله ونعرفه، فكلما تزكينا اقتربنا من الله، وأدركنا عظمة الله، وهو قربٌ أعظم من القرب المادي او العاطفي أو العقلي إنه الاقتراب من الخالق المعبود، المستحق للعبادة، الرب المالك المربي القائم على إصلاح أحوالنا، إنها أعظم المشاعر التي يمكنك أن تختبرها وتمر بها على الاطلاق، لكن، ولأننا كائنات تنمو وتتزكى بالفعل، ولكننا لا نستطيع أن نتصف بصفات الله، ولا أن نرقى بشخصياتنا الإسلامية لنتقرب إليه، ما لم نمر بهذه الأمور السابق ذكرها، من الابتلاء، والتفكير، والإيجابية في تعاملنا مع القدر، والرضا بالقضاء، والتقوى والإحسان... فهي اذن هي كلها لازمة وأساسية لتزكية النفس البشرية، ولا يمكن إسقاط أي عامل منها من أجل أن تكون هذه النفس مؤهلة لعلاقة مع الله"[17].

[17] النقطة الثامنة مبنية على محاضرة بعنوان: الهدف من الحياة - قصة إسلام البروفسور جيفري لانج المحاضرة الكاملة. بتصرف شديد.

مفهوم الصبر في الاسلام

إن لمفهوم الصبر كجزء من مفاهيم الأعماق في عقلية السواد الأعظم من أبناء الأمة الاسلامية معنى سلبيا، يتمثل في خليط من الاستسلام إلى الواقع السيء، والعجز، والتواكل، والقدرية الغيبية، والقعود عن التغيير، ولسان حال فئات عظيمة من المسلمين أنه طالما أننا لا نملك تغيير الواقع، فليس علينا إلا الصبر، بمعنى الاستسلام، وكأن الواقع وتغييره واقع في دائرة القضاء والقدر، كطول الانسان ولون عينيه، وموعد موته.

يقول الحق سبحانه وتعالى في أول آية تناولت موضوع الصبر في القرآن نزولا: ﴿ولربك فاصبر﴾ [7 المدثر]، وهذه السورة التي بها طلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن ينذر بقوله تعالى: ﴿قم فأنذر﴾، ولا بد لمن ينذر قومه، مُخْرِجاً إياهم من عبادة الطاغوت إلى عبادة الله الواحد القهار أن يُؤْذَى في دعوته ولا بد له أن يصبر على حمل الدعوة وما في حملها من شدائد.

قال في لسان العرب: وأَصل الصَّبْر الحَبْس، وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه؛ ومنه الحديث: نهى عن المَصْبُورة ونَهَى عن صَبْرِ ذِي الرُّوح؛ والمَصبُورة التي نهى عنها؛ هي المَحْبُوسَة على المَوْت.

قال ابن عاشور في تفسير سورة العصر في التحرير والتنوير: وحقيقة الصبر أنه: منع المرء نفسه من تحصيل ما يشتهيه أو من محاولة تحصيله (إن كان صعبَ الحصول فيترك محاولة تحصيله لخوْفِ ضر ينْشأ عن تناوله كخوف غضب الله أو عقاب ولاة الأمور) أو لرغبة في حصول نفع منه (كالصبر على مشقة الجهاد والحج رغبة في الثواب والصبر على الأعمال الشاقة رغبة في تحصيل مال أو سمعة أو نحو ذلك).

ومن الصبر: الصبر على ما يلاقيه المسلم إذا أمَرَ بالمعروف من امتعاض بعض المأمورين به أو مِن أذاهم بالقول كمن يقول لآمره: هَلاّ نظرت في أمر نفسك، أو نحو ذلك. انتهى

فالصبر إذن حبس النفس عن الشهوات، وبذا يلزم المسلم نفسه بالبعد عن كل ما حرم الله، أي إن الصبر يقود المسلم ليلتزم الحكم الشرعي، بل ليلتزم تحري القيام بما أمر به على أفضل صورة باذلا أقصى وسعه في حسن القيام بالأعمال، ومتحرياً أن ينآى بُعداً عن كل ما يقرب من المعاصي، إذا دعته عيناه للنظر إلى ما حرم الله تذكر أن الله قد أعانه عليهما بطبقين فيطبق، وإن نازعه لسانه في قول ما حرم الله، يتذكر أن الله قد أعانه عليه بطبقين فيطبق، ويصبر نفسه عن المحرم، وعن أي فعل يقود إلى الحرام، فيكون ملتزما بالحكم الشرعي.

والصبر أيضاً حبس النفس في طاعة الخالق سبحانه، فبعض التكاليف تحتاج لجلد لتحمل مشقاتها، كالجهاد والحج، والخشوع في الصلاة، وحمل الدعوة الاسلامية بمقتضيات هذا الحمل من قول كلمة الحق عند كل ذي سلطان جائر، فتنازع المسلمَ نفسُه كي يركن إلى دَعَةِ العيش ويترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم، فيحبس نفسه في ركن الله المتين، متذكرا الحديث الذي

رواه الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

ففي كل الأحوال اقترن الصبر بحبس النفس في علياء عبوديتها لله، فلا تفعل شيئاً نهاها رب العزة عنه، وتفعل ما أُمرت بأقصى طاقة تستطيعها، روى البخاري رضي الله عنه عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ومن أمثلة الصبر التي يتضح فيها هذا المفهوم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[35 الأحقاف]، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [28 الكهف].

ففي حمل الدعوة ينبغي الصبر اقتداء بأولي العزم من الرسل، الذين دعوا قومهم ليلا ونهارا، سرا وجهارا، وأوذوا فما لانت لهم قناة، حتى بلغ بهم الحال في شدة البأساء والضراء التي أصابتهم إلى أن يتضرعوا إلى الله سائلين النصر، ولكن دون أن تفت عضدهم شدة، أو تصرفهم عن الحق قيد أنملة كل مغريات الدنيا، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[214 البقرة]، وقد اقترن الصبر بالثقة بوعد الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [77 غافر]، ولبلوغ هذه المرتبة العالية، ينبغي على حامل الدعوة أن يتزود بالتقوى والصبر على الطاعات: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [65 مريم]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [132 طه]، كذلك من شأن المؤمنين الصبر في ساحات الجهاد، يدفعون أعداء الله عن دار الاسلام، ويحملون الدعوة إلى سبيل الله في كل حدب وصوب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [110 النحل]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [200 آل عمران]، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [251 البقرة]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ

قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (65) الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[66 الأنفال]،

والصبر أخيرا يتمثل في بلوغ المرء بإيمانه قمة عالية، برضاه بقضاء الله، وعلمه أن فقد عزيز يعني أن الحق سبحانه أعطى وهو من أخذ، فيحبس نفسه عن أن تجزع لقضاء الله، ويسلم أمره لمدبر الكون، مدركا أن الله يقضي في كل أمر بحكمة، فلا يقابل علمه أن أمرا ما تم بحكمة الله بجزع، ويعلم أن الله يبتلي المسلم في حياته بأمراض وبلايا وخطوب، فيحبس نفسه في ثوب الشكر متذكرا أن الله جعل الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر، وأن الله يجزي على الصبر أعظم الثواب.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [44 ص]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ [156 البقرة].

وهكذا فالصبر كمفهوم متعلق بالأعمال يتمثل في حمل النفس على القيام بالطاعات بأقصى ما تطيق، وبحبس النفس عن المعاصي بأبعد ما تستطيع البعد، فيكون الصبر بذا حمل النفس على التزام الحكم الشرعي بأحسن ما يكون الالتزام. ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [97 النحل]،

وأما الصبر كمفهوم متعلق بالاعتقاد، فيكون بتسليم مقاليد تصريف الأمور في الكون إلى الخالق، فيما يقع في دائرة القضاء والقدر، فلا تغير صروف الدهر من حسن صلة المسلم بربه، فلا يجزع، ولا تغيره الابتلاءات والمحن، بل تشحذ نفسه بعزيمة ليمضي في الدنيا عالما أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فيبقى المسلم بصبره شامة بين الخلائق يرقى دوما في معالي العلا. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [31 محمد]. ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [17 لقمان]. والحمد لله رب العالمين

التوكل على الله، من أعظم مفاهيم الاعتقاد:

من الخطأ خلط مفهوم السببية بمفهوم التوكل، فلكلٍّ دوره، ومفهوم التوكل من أعظم مفاهيم العقيدة وأخطرها، وله أثر مباشر على العمل، فهو ليس مجرد مفهوم غيبيّ يُنَحّى عن الو اقع!!

قال الإمام تقي الدين النبهاني: "وأما **التوكل على الله**، فإن المسلمين الأوائل قد فهموه حق الفهم، وتوكلوا على الله حق التوكل، ولذلك قاموا بعظائم الأمور، واقتحموا أشد الصعاب، بخلاف المسلمين المتأخرين،... فكان من نتيجة ذلك أن انحطت الهمم، وضعفت العزائم، وضاق الأفق في النظرة إلى الحياة، فصاروا يحسون بالعجز، ويعتقدون أن قدرتهم محدودة، وأنهم لا يستطيعون إلا ما استطاعوا تحقيقه، ولهذا لن يرجع المسلمون إلى اقتعاد ذرى المجد، والاندفاع في الحياة لتحقيق المعالي، إلا إذا فُهم التوكل على الله حق الفهم، وتوكلوا على الله حق توكله، فإن عظائم الأمور لا يمكن أن يحققها الرجال **إذا حدوا قدرتهم بقواهم الإنسانية وحدها**، فإن هذه القوى الإنسانية إذا نظر إليها وحدها، وعمل بمقدار نظرته هذه قصرت باعه، حتى عن تحقيق الأمور العادية، فضلا عن الأمور غير العادية، ولكن إذا آمن الرجال أن هناك قوى وراء الإنسان تساعده على تحقيق طلباته، فإنه ولا شك يندفع إلى ما هو أكبر من قوته، معتمدا على تلك القوى... فكيف بالمسلم وهو **يؤمن بالله** عن دليل قاطع، ويصدق بوجود الله تصديقاً جازماً مطابقاً للواقع عن دليل، فإنه ولا شك يحقق بتوكله على الله أضعاف أضعاف ما يحققه غير المسلمين، ومن هنا كان التوكل على الله من أعظم مقومات الأمة الإسلامية ومن أهم أفكار الإسلام... وطلب التوكل على الله في هذه الأدلة كلها لم يأت مقرونا بشرط، ولا مشروطا فيه عمل من الأعمال، بل جاءت الأدلة مطلقة في طلب التوكل، فيكون الواجب هو التوكل على الله بشكل مطلق، **في كل أمر من الأمور**، **وفي كل عمل من الأعمال**، يجب أن نتوكل على الله.

وبذلك يكون التوكل على الله فرضاً **بغض النظر عن الأسباب والمسببات**، **وهي ليست قيدا له، ولا بيانا لحكمه**، لأن أدلته جاءت مطلقة غير مقيدة، ولم تقيد ولا بنص من النصوص، ولأن أدلته ليست مجملة، حتى تحتاج إلى بيان، **ومسألة الأخذ بالأسباب والمسببات، مسألة أخرى غير مسألة التوكل**، فهي مسألة ثانية غير التوكل، وأدلتها غير أدلة التوكل، **فلا يصح أن تحشر معه**، أو تجعل قيداً له. **فكما يجب على المسلمين أن يأخذوا بالأسباب والمسببات، كما ثبت ذلك بالأدلة الشرعية، كذلك يجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى**، كما ثبت ذلك بالأدلة الشرعية، وليس أحدهما بقيد للآخر، ولا شرطا من شروطه."[18].

يربط القرآن الأسباب بالمسببات ربطاً مادياً حين يحتاج ذلك، وأحياناً لا يربط الأسباب بالمسببات ربطاً مادياً تظهر فيه كيف تؤثر القوة أو الطاقة القادرة على التأثير في الـمُسَبّبِ لإحداث التغيير في حالته، بل قد لا تجد علاقة سببية مباشرة البتة بين طرفي المعادلة السببية، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

[18] ("إزالة الأتربة عن الجذور" ربط الأفكار والأحكام بالعقيدة الإسلامية، لحزب التحرير)

مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2-3]، وقال تعالى على لسان رسوله نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10-12].

الآيات المذكورة أعلاه من سورة الطلاق وسورة نوح تفيد أن كثيراً من النتائج تنتج من أسباب لا يستطيع الإنسان رؤية الرابط فيها بين السبب والنتيجة. فهي ليست من نوع الأسباب المادية التي تُنتج عادة مثل هذه النتائج المادية. فالرابط بين هذه الأسباب ونتائجها رابط غيبي، أعلمنا اللهُ به. ولذلك فإن الذي لا يؤمن بالله وآياته لا يؤمن بهذا النوع من الأسباب لهذه النتائج. إذ كيف يتصوّر الملحد أنَّ تقوى الله تحلُّ المشاكل وتفرّج الكروب وتجلب الرزق؟! وكيف يصدّق الملحد أن الاستغفار ينـزل المطر، ويأتي بالأموال والأولاد والبساتين؟ وهو لا يرى علاقة مادية بين الاستغفار وبين هذه الأشياء.

أما المؤمن الذي يوقن أن الله هو خالق كل شيء ومسيّر كل شيء، فإنه يعلم يقيناً أنْ لا حركة ولا سكون إلا بأمر الله، ويعلم أن الله حين يعطي لا يحتاج إلى أسباب مادية. والطفل الصغير حين يصرخ تسرع إليه أمه لترى ما حاجته. فالصرخة من حيث هي لا تنقذ الطفل، بل عطف أمه هو الذي يساعده. ولذلك فالطفل يتكل على عطف أمه ومساعدتها. والإنسان المؤمن العاقل يتكل على رحمة ربه وعونه وتوفيقه.

وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ [الملك:15]. وقال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ**﴾ [الأنفال:60].

والآيتان المذكورتان أعلاه من سورة الملك وسورة الأنفال تفيدان أن الإنسان مأمور من الله أن يربط النتائج المادية بأسبابها المادية أيضاً، وليس أن يكتفي بربط النتائج بأسبابها الغيبية فقط. فالآية تقول: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾ فالمؤمن رغم معرفته أن الله هو مقسّم الأرزاق، يرى أن مقسّم الأرزاق يأمره أن يسعى لكسب الرزق، وأن التوكل على الله ليس معناه إهمال الأسباب المادية، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بطاناً**» [رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة] فأثبت له رواحاً وغُدُوّاً لطلب الرزق، وفي حين أن الرزق بيد الله، وأن السعي حالة من الحالات التي يتنزل فيها الرزق، إلا أن الأخذ بأسباب السعي يندرج تحت السببية التي أقام الله الوجود عليها، فالتاجر مثلا يحسن عرض بضاعته، ويقوم بالدعاية المطلوبة لها، ويحسن تسعيرها وما إلى ذلك من أسباب لازمة لتحقق إحسان السعي للوقوع في مظنة الرزق.

والآية الأخرى تقول: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾ والمسلم يعرف أن النصر من الله. ومع ذلك فإن الله الذي تكفّل للمؤمنين بالنصر أمرهم أن يُعِدّوا كل ما يستطيعون من قوّة. ولم يَقْبل الله من المسلمين أن

يكتفوا بالتقوى والتوكل على الله ويهملوا الأسباب المادية. فكان الرسول ﷺ يجهّز الجيش، وكان يأمر بالتدريب كالرماية والسباحة وركوب الخيل. وكان يناور في الحرب، ويسمح بالكذب على العدو، ويحرض المؤمنين على القتال، ويحفر الخندق، ويأمر من يتجسس على العدو، ويعقد الصلح مع عدو ليتفرغ لعدو كما فعل في صلح الحديبية مع قريش ليستفرد بخيبر.

ولذلك فالأسباب في نظر المسلم نوعان: الأول هو تقوى الله. والثاني هو الأسباب المادية التي من شأنها عادة أن تنتج النتيجة المطلوبة. ولا يجوز للمسلم أن يكتفي بأحد هذين السببين متى كان يستطيعهما[19].

وصحابة رسول الله ﷺ حين خالفوا عن طاعة الرسول ﷺ في غزوة أحد، ارتفعت عنهم سنة النصر الإلهية لتخلفهم عن بعض أهم أسبابها، وخضعوا للسنة الإنسانية الثابتة في انتصار القوي على الضعيف، انتصار من يعد العدة أفضل، سواء العدة الحربية من عتاد وجند وسلاح، أو الخطة والحنكة، فكانت الغلبة لعدوهم! قال تعالى يصف ذلك الموقف: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران/140، فسماهم بالناس، وعد ما حصل لهم في غمار ما يحصل للناس في مثل تلك المواقف! وقال: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فخضعوا بذلك للسنن التي يخضع لها سائر الناس، لعدم استحقاقهم حصولهم على السنة الإلهية في ظل عدم طاعتهم للرسول ﷺ.

إذن، فقد أمر الشارع الإنسان بالأخذ بالأسباب المؤدية لتحقيق النتائج، ولكن الإنسان الآخذ بالأسباب يخفق أحيانا في بلوغ غاياته، فجلّى الإسلامُ للإنسان مفهوم التوكل على الله تعالى، وهو إطار عقدي جامع مانع، يتجاوز معضلة ضعف الإمكانيات اللازمة لتحقيق المراد، لوجود العوائق، أو لتجاوز معضلة أن السنن المجتمعية تقضي بانتصار القوي على الضعيف، فيربط عمله بالاتكال على الله ليدبر له من شأنه ما لا يستطيعه بأسبابه التي قدّرها بمعطياته الإنسانية البشرية القاصرة، بأن يعلم أن الله تعالى عون له ونصير، وأن الله العلي القوي القدير وراءه، يسنده ويساعده على تحقيق معالي الأمور، فيندفع بعزيمة ترفعه لاقتعاد ذروة النسر بين الأمم موقِناً أن قوته البشرية المحدودة مسنودة بقوة غير محدودة، وأن خططه وغاياته أوسع من أن تحد بالاقتصار على الإنجازات العادية القاصرة، معتمدا على قوة الله وعلى أنه يسير جنديا لتحقيق الغايات العظيمة التي لأجلها خلق الله الخلق وأرسل الرسل!

[19] مقال في مجلة الوعي العدد 128 -السنة الحادية عشرة – رمضان 1418 – كانون الثاني 1998م بين التوكل على الله وربط الأسباب بالمسبّبات، بتصرف.

نماذج أعمال خارقة قام بها المؤمنون نتيجة التوكل على الله:

فيفوض أمره كله لله، بل يدفعه هذا التوكل للقيام بعظائم الأمور، واقتحام أشد الصعاب، واقتعاد ذروة المجد، والاندفاع في الحياة لتحقيق المعالي الأمر الذي جعل الإسلام ينتشر من أقصى الشرق لأقصى الأرض في أقل من مائة سنة، فتجاوزت إنجازاتهم ما يستطيعه البشر بقواهم الذاتية، فحفروا خندقا شمال المدينة المنورة، ليربط بين طرفي حرة واقم وحرة الوبرة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، وكان طوله خمسة آلاف ذراع (أي حوالي 2.5 كيلومترا)، وحددته بعض المصادر ب (2725) متراً، وعرضه تسعة أذرع، (أي حوالي 4.5 مترا)، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. (أي ما بين 3.5 إلى 5 أمتار)، وجاء في كتاب: أطلس السيرة النبوية للدكتور شوقي أبو خليل: أن طول الخندق كان خمسة آلاف وخمسمائة وأربعة وأربعين متراً (5544) ومتوسط عرضه أربعة أمتار فاصلة اثنين وستين (4.62) ومتوسط عمقه ثلاثة أمتار فاصلة ثلاثة وعشرين (3.23).

وهذه الأبعاد تدل على أن حجم الأرض التي تم حفرها يبلغ حوالي 83 ألف متر مكعب، وفي أرض صخرية تحتاج لآلات خاصة، إلا أن هذا الخندق الضخم بكل المعايير تم حفره في أسبوعين، بأدوات بدائية بسيطة، متضمنا أعمال الحفر وأعمال نقل التراب المحفور من الحفرة إلى أماكن بعيدة، وكان عدد المسلمين في المدينة 3000، منهم المريض والشيخ المسن، والعامل في الخدمة اللوجستية للمشروع، والقائم بالحفر فعلا، وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً، وعلى كل واحد حفر أربعة أذرع، فتح الباري (397/3)، وكانت السمة العامة للمشتغلين بالحفر أن عضهم الجوع والبرد القارس، فقد كان الجو باردًا، والريح شديدة والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، الأمر الذي يجعل العمل خارقاً يتجاوز أي إنجاز بشري بالقوى البشرية الذاتية. قال أبو طلحة: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوعَ فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين».

هزيمة امبراطورية الفرس والإمبراطورية البيزنطية الشرقية في غضون سنوات:

وفي نحو عشرين سنة من تلك الواقعة أنهى المسلمون كيان الامبراطورية الفارسية، وأقصوا الإمبراطورية الرومية عن الشرق وهزموها هزائم منكرة، وفي نحو سبعين سنة من تطبيق الإسلام: محي الفقر من الدنيا أيام عمر بن عبد العزيز!

إن الناس الذين دخلوا مع المسلمين في الصراع الدموي على مر العصور، لم يكونوا يدركون مدى ما للعقيدة الإسلامية، أي للفكر، من قوة وتأثير في القوة المادية، ولذلك كانوا يعتمدون على زيادة قوتهم المادية على قوة المسلمين ليهزموا المسلمين، ولكنهم بالرغم من هذه الزيادة في القوة كان المسلمون ينتصرون عليهم رغم ضعف المسلمين وقلة عددهم، ولم تنفع زيادة القوة المادية أصحابها في ميادين الحرب، وظَلَّ النصرُ حليفاً للمسلمين. هكذا كان حال المشركين مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وهكذا كان حال الروم والفرس مع الصحابة، يقف ثلاثة آلاف من المسلمين أمام عشرات الآلاف من الروم في مؤتة، وفي اليرموك كان تعداد المسلمين 36 ألفا مقابل 70 ألفا من الروم، بأسلحتهم ودروعهم وعتادهم الحربي الذي فاق كثيرا ما لدى المسلمين، وخبراتهم القتالية الدولية، وكان تعداد جيش الفتح الذي اجتاح فارس 18 ألفا من المسلمين، لم تصمد أمامهم راية، وانهارت مدائن الفرس واحدة تلو الأخرى، وفي القادسية كان المسلمون 30 ألفا، والفرس حوالي 70 ألفا، وانتصر المسلمون، وقضوا على الإمبراطورية الفارسية ما بين 11 هـ، و23هـ قضاءً تاماً.

هذه القضايا تقع في دائرة السنن الإلهية، وهي تختلف عن السنن المجتمعية، إذ الأخيرة لا تحابي أحدا، فالأقوى في المعركة سينتصر سواء قوة العسكر أو الخطة أو الآلات، سينتصر حتما، ولكن السنن الإلهية التي أمرت بالإعداد قدر الاستطاعة، وعلم الله أن ستكون ظروف لا يستطيع فيها المؤمنون الإعداد فوق قدرة أعدائهم، فلا يملكون الأسلحة النووية والصواريخ، فكان من رحمته أن جعل سننا إلهية تلغي مفعول السنن المجتمعية وتحقق الانتصار للمؤمنين، فبالطاعة، والصبر، واليقين بالنصر من الله مع الإعداد قدر الاستطاعة والتوكل على الله يحصل النصر مهما كانت قوة الكفار.

هذه القضايا تبين صحة عقيدة التوكل على الله، **وأنها فوق الأسباب**، وأنها تحقق للأمة انتصارات تجعلها سيدة الأمم في أقل وقت إن هي اعتصمت بأمر ربها، ولم تستنصر إلا به، ولم تتوكل إلا عليه، وإن هي أقامت دولتها وحكمت شريعة ربها، وأخلصت لله نياتها. وليس معنى أنها فوق الأسباب أنها لا تجري وفقا لسنن الوجود، وأنها معجزات، ولكن الله تعالى يسخر لها من العوامل ما يحققها وإن كانت سنن العادة لا تدل على تحقق نظائرها، أو يسخر الله من أسباب الوجود ما ليس بإمكان أحد غيره تسخيره، كتسخير الريح الشديدة نصرة للمؤمنين في الخندق، وإمدادهم بالملائكة في بدر، أو تعمية عيونهم فلا تبصرهم كما في الغار، فلا أحد يستطيع أن يضع في الخطة السببية تسخير الريح مثلاً.

درس من غزوة تبوك:

والحصان يحتاج يوميا لأربعين ليتر من الماء علاوة على الزاد، ومن العجيب أن نرى أن المسلمين ساروا من المدينة إلى تبوك في أشد ما يكون الصيف حراً، استغرقت الغزوة على أقل تقدير خمسين يوما، إذ تتراوح المسافة من المدينة الى تبوك بين 580 كم الى 600 كم ومن المعتاد أن تقطع القوافل في مثل هذه الحالة من 40-50 كم كل يوم. لهذا من المحتمل أن تقطعها القافلة في 12 يوم (مرحلة) إذا كان السير متواصلاً، لكن من عادة القوافل الراحة ليوم أو يومين بعد كل 3-5 مراحل، ونعتقد أنهم أقاموا فترة يوم أو يومين في كل من: مرحلة "ذو خشب"، وادي القرى، وفي الجو قرب قاع لالا، إضافة إلى الفترة التي لبثها ﷺ في المنطقة يرسل السرايا ويحمل الدعوة.

جاء في المواهب اللدنية للقسطلاني متحدثا عن غزوة تبوك: وكان معه عليه الصلاة والسلام ثلاثون ألفًا: وعند أبي زرعة سبعون ألفًا، وفي رواية عنه أيضًا أربعون ألفاً، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس. انتهى. الأمر الذي يعني الحاجة لتأمين أربعمائة ألف ليتر من الماء يوميا للخيل وحدها، ناهيك عن الجيش، أي أنهم كانوا بحاجة لنهر جار!

سلك الجيش النبوي عبر درب معروف هو درب القوافل بين المدينة والشام، أولاً عبر وادي الحمض، ثم أسفل وادي الجزل، ثم عبر وادي القرى والعلا، ثم الحجر، وبعد الحجر تركوا الدرب المعهود للشام، والذي يمر بالمعظم، واعتسفوا صعود حرة عويرض رغم صعوبتها وارتفاعها، لكن ألجأهم لها أنهم بحاجة لمراعي منطقة الجو ومائه. نزلوا من عويرض الى وادي الشق، وعسكروا في منطقة الجو يوماً أو يومين كي ترتاح الإبل وتتغذى على المرعى الجيد والشرب سيكون من مماسك الماء في وادي الشق. بعدها تركوا الجو واتجهوا الى درب البكرة لأنه أخصر الدروب وأسهلها ولتوفر خزان ماء ضخم فيه، سلكوا عبر درب البكره قاطعين وادي الأخضر ثم الزرداب ثم وصلوا العقبة أو الثنية المشهورة (النقب) ثم تركوا جبل برك يمينهم ووصلوا الى تبوك، وقد قدر زيد العدد بثلاثين ألفا وهذا عدد كبير جدا لا تتحمله موارد الدرب. (خصوصا حاجات الخيل للماء كما أسلفنا) لهذا واجه الركب النبوي حالات عطش عديدة.[20] في شدة الحر، لذلك كان توكلهم على الله هو الدافع لإنجاز ضخم بكل المقاييس كهذا الذي أنجزوه!

كيف استطاعت مكة والمدينة توفير الدعم الكافي خلال أيام الفتوحات مع أن إمكانيتهما تكاد لا تعتبر ذات قيمة بالمقارنة مع مدن الإمبراطورية الرومانية والفارسية آنذاك؟

---

[20] تحقيق زمن و درب غزوة تبوك.

عجائب فتح الأندلس بشرى من الرسول ﷺ

جرى حوار لطيفٌ بين الرسول ﷺ وبين خالته من الرضاعة أم حَرام بنت مِلْحان زوج عبادة بن الصامت: روى البخاري رضي الله عنه: «كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ علَى أُمِّ حَرامٍ بنْتِ مِلْحانَ، وكانَتْ تَحْتَ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ، فَدَخَلَ عليها يَوْمًا فأطْعَمَتْهُ، وجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنامَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وهو يَضْحَكُ، قالَتْ: فَقُلتُ: ما يُضْحِكُكَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ناسٌ مِن أُمَّتي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللَّهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هذا البَحْرِ، مُلُوكًا علَى الأسِرَّةِ -أوْ: مِثْلَ المُلُوكِ علَى الأسِرَّةِ، شَكَّ إسْحاقُ- قالَتْ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، فَدَعا لها رَسولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وهو يَضْحَكُ، فَقُلتُ: ما يُضْحِكُكَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ناسٌ مِن أُمَّتي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللَّهِ، كما قالَ في الأُولَى، قالَتْ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: أنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ. فَرَكِبَتِ البَحْرَ في زَمانِ مُعاوِيَةَ بنِ أبِي سُفْيانَ، فَصُرِعَتْ عن دابَّتِها حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، فَهَلَكَتْ». ويعتبر الإمام ابن حزم في رسالته القيمة في فضل الأندلس، التي حفظها لنا المَقَّري كاملة فاتحي الأندلس هم ثانية الجماعتين اللتين أخبر عنهما رسول الله ﷺ في الحديث الشريف في فضل الجهاد في البحر، وهو تشريف لفاتحي الأندلس، فيقول: "ومثل هذا التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل الترجيح، فالجواب، وبالله التوفيق، أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وأُمر بالبيان لما أوحي إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعُدول عن العُدول بطائفتين من أمته يركبون ثَبَجَ هذا البحر غُزاة واحدة بعد واحدة، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها ﷺ وخبره الحق بأنها من الأولين، وهذا من أعلام نبوته ﷺ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه، وضح البرهان على رسالته بذلك، وكانت من الغُزاة إلى قُبرُسَ، وخرَّت عن بغلتها هناك فتوفيت، رحمها الله تعالى، فثبت يقينا أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشر بهم النبي ﷺ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه"[21]، وحين نتأمل العجائب التي رافقت هذا الفتح العظيم، وركوب البحر وما فيه من أهوال، وما كان ينتظر المسلمين على طرفه الآخر من قوم أولي بأس شديد، أدركنا عظيم شرف ما صنعوا، واستئهالهم لشرف بشرى الرسول ﷺ بصنيعهم العظيم هذا!

كيف استطاع المسلمون عبور البحر إلى إسبانيا، وبأية أعداد، وبأية أدوات حربية، مع العلم أن الفَرَسَ والجَملَ لا يتحمل دوران البحر؟ ولو فرضنا أن الجيش استطاع عبور البحر؛ فكيف تمكن من الصمود والانتصار والتوغل في مجاهل تلك البلاد البعيدة والغريبة؟ "بين سبتة في المغرب، وجبل طارق في الأندلس مسافة 14 كم، وجرت مراسلات بين موسى بن نصير والخليفة في دمشق: الوليد بن عبد الملك، الذي أمر موسى بأن يجرب الأندلس بالسرايا أولا، وهكذا كان، وكانت أول سرية من خمسمائة، معهم مائة فارس على الخيل بقيادة طريف بن مالك، وهو بربري مسلم، لقبه: أبو زُرْعَة، وذهبوا في رمضان سنة 91 للهجرة، ونزلوا

[21] نفح الطيب، عن: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة للدكتور عبد الرحمن الحجي. ص 51.

في الجزيرة في لسان أرضي داخل في المحيط الأطلسي يعرف الآن باسم طريفة، دخلوا بلادا كان يحكمها القوط منذ قرنين، وهم قوم أولو بأس في الحرب، ولم يكن انتصار المسلمين بسبب ضعف جيش القوط، أو الخيانات فيه كما يروج من لم يقرأ التاريخ، بل إن القوط أمة عسكرية لم تعرف الهزيمة طيلة قرنين من الزمن، إلا على يد المسلمين، وعادت السرية بأخبار البلاد لموسى، ومعلومات أعانت على وضع خطة للفتح، فجهز الجيش، فتجمع لديه سبعة آلاف، غالبيتهم الساحقة من البربر المسلمين، واختار لها القائد المسلم البربري طارق بن زياد، أمير الحامية العسكرية في مدينة طنجة المغربية، الذي كانت له صولات وجولات في الجهاد في السنغال، وكان عمره 28 عاما، وهو من قبيلة نَفْزَة، من البربر البُتْر، والمسافة بين طنجة وجبل طارق 22 كم، وكل العبور تم من مدينة سبتة، ولم تفتح سبتة، وحاكمها كان من القوط، واسمه يُلْيان، أمدَّ المسلمين بالمراكب للعبور، كل مركب يحمل ما يقارب الخمسين إلى المائة على أقصى تقدير، فإذا ما اصطحبوا معهم الجمال والخيل، فإن حمولة السفينة لن تزيد عن الخمسين في كل مرة، وعلى الأرجح أنه كان للمسلمين مراكبهم أيضا، لأن عدد الجيش كبير يتطلب مراكب كثيرة، إذ كانت لديهم دور لصناعة السفن منذ فجر الإسلام في شمال أفريقيا، وكانوا قد خاضوا معركة ذات الصواري في سنة 33 هـ من تونس باستعمال أسطول إسلامي قوامه مائتي سفينة، وفتحوا صقلية في سنة 46 هـ بأسطول من مائتي سفينة، والأمة التي يشغلها شأن الفتوحات ونشر الإسلام لا بد أنها أخذت عدتها بلوازم الفتح براً وبحراً، ويذكر ابن حيان أن طارقا تجهز "في سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهم من البربر، **في أربع سفن**، وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين، ولم تزل المراكب تعود [إلى سبتة وتجلب باقي الجند] حتى تَوافى جميع أصحابه عنده بالجبل"[22]، وآخر فوج كان فيه طارق بن زياد،

يقول المؤرخ الإسباني (اغناسيو اولا غي) في كتابه: (الثورة الإسلامية في الغرب). الصادر في برشلونة سنة 1974 ما نصه: "للوصول إلى ايبيريا كان على العرب أن يجتازوا المضيق البحري الذي يفصل أفريقيا عن أوروبا؛ الجمل (سفينة الصحراء) الذي يسبب "دوار البحر" لمن يمتطيه دون خبرة، هو سفينة صحراوية وليست بحرية. كذلك البربر لم يكن لديهم سفن حربية. وحتى لو تزود العرب الزوارق، فقد كان عليهم أن يجدوا الربابنة المهرة. خصوصاً أن مضيق جبل طارق الذي يصل بين المتوسط الخالي من المد والجزر وبين الأطلنطي، يشكل ممراً لتيارات قوية تسير بالاتجاهين، وتخضه بصورة دائمة رياح عنيفة. إنه ممر خطر للغاية، ويعرف عنه أنه مقبرة البواخر". "حسب رواية (أخبار مجموعة) أعار المدعو يُليان العرب [المسلمين] أربعة زوارق، لا يزيد الحد الأقصى لحمولة الزورق الواحد عن خمسين رجلاً إضافة إلى البحارة. يحتاج طارق، في هذه الحالة، لنقل جيشه إلى خمس وثلاثين رحلة. أي حوالي سبعين يوماً. لأن هذا النوع من الزوارق يحتاج، على الأقل، إلى يوم واحد ليقطع المسافة. وإذا حسبنا الأسابيع ذات الطقس السيئ والتي تتوقف فيها الرحلات،

---

[22] نفح الطيب 161/3 عن: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة للدكتور عبد الرحمن الحجي. ص 51.

تصـل هذه المدة إلى ثلاثة أشـهر؛ لا يمكن أن يتم إبحاره كهذا إلا إذا تمكن النازلون على شـواطئ إسـبانيا من النجاة من مجزرة. ذلك حتى يتمكنوا من استقبال من سيلحق بهم".

دخل طارق بن زياد المضيق في 5 رجب، وبينما هم في السـفينة في المضيق، أخذته نومة ثم صحا من نومه وبشر من في السـفينة أنه رآى رسـول الله ﷺ، الذي بشره بالنصر وأوصاه بمن معه خيرا، وبمن سيفتح بلادهم خيرا، ولما وصـل طارقُ جبلَ طارق في الجانب الأندلسـي، في الموضـع الوطيء الذي كان قد عزم النزول فيه إلى البر، وجد القوط بانتظاره بالسـلاح، وعليهم تُدْمير، فابتكر طارق خطة جديدة على الفور، فلما مُنع أوهم العـدو بـأنـه يرجع للمغرب، وبقي يبحر حتى حـل الظلام، ثم كر راجعـا من سـبيـل آخر في البحر إلى خلف الجبل[23]، وهي منطقة تمثل منحدرا بالغ الانحدار والصـعوبة، كأن الجبل مقصـوص قصـاً يرتفع عشـرات الأمتار، ونزل إلى الموضـع الوعر فوطِأَه بالمجادف وبراذع الدواب، ونزل منه إلى البر وهم لا يعلمون، وصـعدوا الجبل والتحقوا بالأفواج التي سبقتهم، ليكتمل الجيش 7000، وقبل المعركة الفاصلة، كان كل فوج يصل من المسـلمين إلى الأندلس يسـتقبله أكبر قائد قوطي اسـمه تُدْمير، الذي كان محافظا لإحدى المناطق والتي تسـمى باسـمه إلى اليوم، وقد انهزم تُدْمير أمام المسـلمين في جميع المعارك دون اسـتثناء، فتعجب، -وهو القائد العسكري الفذ- لما يحدث له، فكتب تُدمير بعد لقائه بأفواج المسلمين فوجاً إثر فوج رسـالة إلى الملك القوطي لوذريق (رودريكو)، -الذي كان منشـغلا بقمع بعض الثورات في الشـمال-، قائلا: "أيها الملك، أدركني، فقد حلّ بأرضـنا قومٌ لا ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السـماء، وقد لقيتهم فلتنهض إليَّ بنفسـك"، فلما جاءه الخبر، ووقع عليه وقع الصاعقة، انبرى من توه لإعداد الجيش الضخم لمنازلة المسلمين. وعلم طارق بالجموع التي جمعها القوط له، فكتب إلى موسى بن نصير يطلب المدد، فأرسل له خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك، فأصـبح عدد الجيش الإسـلامي 12 ألفا، بينما كان عدد الجيش القوطي بتقدير أقل الروايات 100 ألف، يمدهم من خلفهم عشـرات الآلاف حين الحاجة، وقد نازل الجيش الإسـلامي هذا العدد الضـخم في أرضـهم، وبين ظهرانيهم مدنهم، وإمداداتهم الاسـتراتيجية، وروح القوط المعنوية عالية، كانوا متأكدين من النصـر إلى درجة أنهم جهزوا الحبال التي سـيوثقون بها المسـلمين أسـرى ويسـوقونهم، جاءوا بتلك الحبال على عربات خاصـة لكتاف أسـرى المسـلمين، وبدأت المعركة في يوم 28 رمضـان سـنة 92 للهجرة، سـنة 711 ميلادية، واستمرت المعركة تسعة أيام، إلى نحو السادس من شوال، فقاتل الفريقان قتالا شديدا، وصبرا صبرا عظيما، في معركة وادي لَكُهْ، أو وادي برباط، أو معركة شـذونة، وكلها أسـماء لنفس المعركة، بأسـماء المواقع بالإسـبانية، حتى أنزل الله تعالى نصـره على المسـلمين، فلم ينج من القوط إلا من نجاه الفرار، ومنهم لوذريق، ملكهم الذي قتل في المعركة، وقد تابع طارق بن زياد الجيش المنهزم حتى وصل طليطلة عاصمتهم".[24]

---

[23] وقصة حرق السفن، وخطبته في الجيش أن البحر من خلفكم والعدو من أمامكم من الأساطير التي لا أساس لها من الصحة.

[24] تفاصيل معركة الفتح الإسلامي للأندلس - **الدكتور عبد الرحمن الحَجِّي (رحمه الله)، بتصرف.**

هل صبغُ لِحْيَةِ ابْنِ نُصَيرٍ البيضاءَ بلونٍ أحمرَ ثم أسودَ كانَ سببَ فتوحاتِ الأندلسِ؟

ويتابع المؤرخ الإسباني الجاد (اغناسيو اولا غي) في كتابه: (الثورة الإسلامية في الغرب) فيقول: "يقول كتاب (أخبار مجموعة) أن موسى بن نصير حين أراد أن يدفع أهل مدينة ماردة المسورة (بسور لم يَبْنِ إنسان مثله) إلى الاستسلام، قد صبغ لحيته البيضاء بلون أحمر بعد الاتصال بالمفاوضين. ثم جاء إلى الاجتماع الثاني بلحيته الحمراء، صرخ أحد المندوبين: (لابدّ أنه واحد من أكلة لحوم البشر وليس ذلك الشخص الذي رأيناه في المرة الماضية). في الاجتماع الثالث صبغ لحيته بالأسود؛ ولدى عودة المفاوضين إلى المدينة قالوا لسكانها وهم في حالة ذهول؛ أنكم تقاتلون أناساً يتغيرون بمشيئتهم؛ وملكهم الذي كان منذ أسبوع شيخاً مسناً هو الآن رجل شاب. اذهبوا واستسلموا له. هذا مطلبه".

"كانت هذه المدينة من أهم مدن ايبيريا؛ كان يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة. (لابدّ أن العرب فقدوا عقولهم أمام عظمتها). وقد ظلت مركزاً حضارياً هاماً خصوصاً بعماراتها الأنيقة، ولم تكن مأهولة بسكان جهلة. ولم يكن من الممكن خداعهم بحيلة تغيير لون اللحية".

"وماذا عن المدن الحصينة مثل طليطلة أو رُندة، صمدت هذه الأخيرة نصف قرن في وجه أمراء قرطبة الأشد قوة من طارق وموسى مجتمعين. أن يأخذ العرب مدناً بالخدعة الحربية أو بفعل الخيانات المحلية أمر يمكن فهمه، ولكن أن يجتاحوا بسهولة بالغة مئات المدن. كان بعضها من أهم مدن العالم آنذاك، فأمر آخر!!"

ويستمر في طرح الأسئلة الكبيرة والعميقة؛ فيقول: "من المدهش أنه بعد فتح الإسكندرية بدأت المسافات تصبح شيئاً فشيئاً طويلة. وبدأ العرب يواجهون بلاداً ذات طبيعة جغرافية صعبة. وبالمقابل بدأ الوقت اللازم لاجتياح هذه المسافات يقصر شيئاً فشيئاً. ثلاث وخمسون سنة للسيطرة على تونس. عشر سنوات لكامل شمال أفريقيا. وثلاث سنوات لشبه الجزيرة الايبيرية، صحاري وأنهار وسلاسل جبلية تم اجتيازها بسهولة بالغة".

"في الواقع لا يمكن لحملة عسكرية أن تستمر إلى ما لا نهاية. لأن الحملة تفقد قوتها بقدر ما تتوغل وتتقدم. وعندما يتقدم الفاتح، وتفقد قواعده الأولى القدرة على تموينه، يجب عليه أن يؤسس قواعد بديلة؛ الأمر الذي كان يتطلب وقتاً في القرن السابع. لكن العرب [المسلمين] حسب التاريخ التقليدي أهملوا هذا المبدأ الاستراتيجي الأساسي في تلك المرحلة. فما أن يسيطروا على بلد حتى ينطلقوا لاجتياح بلد آخر. لقد وصلوا إلى تونس واتجهوا فوراً نحو المغرب؛ وما أن رأوا أمواج المحيط حتى أبحروا نحو أوروبا. ثلاث سنوات فيما بعد تسللوا عبر جبال التبيريني واجتاحوا مقاطعة اكيتانيا في فرنسا".

"لم يكن العرب على معرفة دقيقة بهذه الأهداف العسكرية، ولم يكن لديهم بعد خرائط ولا يعرفون حتى لماذا جاءوا وما سيفعلون في إيبيرية". انتهى.

لنأخذ اجتماعات موسى بن نصير المذكورة سابقاً. هل تخضيب لحية القائد بالحناء هو الذي فتح الحصن، وأدخل الناس في الدين أفواجاً، وجعلهم يدافعون عنه ويستشهدون في سبيله. ذلك أمر مرفوض حتماً. الذي جعل الناس تؤمن هو ما كان يدور في تلك الاجتماعات، من نقاش وحوار وجدال بين قوة أفكار الإسلام ووهن أفكار الكفر. وحتى إذا ما ثبت لأولئك المعذَّبين بنار الإقطاع وغموض التثليث، وبطش القوط أن التوحيد هو الحق، وأن الرجال الذين يحملون هذه الدعوة صادقون واعون مؤثرون قادرون على إنزال الهزائم النكراء بمثل تلك المجتمعات المتهاوية من الداخل، فتحوا لهم الحصون، وأقبلوا على الإسلام يلتزمون به ويدافعون عنه، لِما لمسوه وشاهدوه من عظمته وعدله.

"فقد كان القوط الذين حكموا الأندلس يظلمون أهل البلاد (الوندال والرومان والأخلاط الأخرى من البشر والأعراق التي كانت قدمت من غَالِية وبلاد الجرمان واللومبارد غزاة ثم استقروا فيها، ومن قبائل الوندال جاء اسم الأندلس)، ثم جاء القوط قبائل متبربرة من أقصى الشمال، وغلبوا على البلاد واستأثروا بخيراتها، وبطشوا بكل من خالفهم، **فلما جاء المسلمون وجدوا قوماً لا يريدون شيئا أكثرولا أهم من التخلص من ظلم القوط**"[25].

لذلك لم يحتجْ الجيش إلى مؤنة تصله من المدينة المنورة ليكمل المسير. فالذين دخلوا في الدين سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، فبذلوا النفس والمال. ولم يحتج الجيش إلى الخرائط، لأن الذين آمنوا من أهل البلاد حملوا الإسلام بأنفسهم، أو وجدوا في الإسلام عدلا كانوا ينتظرونه، وساعدوا جيشهم -الجيش الإسلامي- على التوغل. ولم يحتج الجيش إلى آبار ماء متنقلة أو تقنية متطورة، لأنه استخدم ذلك المتوفر بدافع تلك الطاقة الحيوية الهائلة التي زرعها الإسلام في قلوب الملتزمين به.

ولا شك أن الدعوة سبقت المعركة؛ فالرسول - ﷺ - أرسل الرسائل إلى الملوك والعظماء. فسار على سنته الخلفاء كابراً خلف كابر. وأمر الصحابة بوجوب دعوة الناس قبل قتالهم، والاكتفاء بالجزية إذا قبلوا سلطان الإسلام ورفضوا اعتناق الدين. فالتزم المسلمون بذلك جيلاً بعد جيل. الأمر الذي يؤكد أن الناس علمت بالإسلام وعظمته وعدله قبل وصول المجاهدين. فإذا ما وصل المجاهدون، وشاهدتهم الشعوب الضالة إسلاماً يتحرك فعلاً: إسلاما لا يعتدي، ولا يظلم، ولا يسرق، ولا يغتصب، إسلاما ينصر المظلوم ويعين الضعيف، ويحل العقدة الكبرى عند الإنسان، إسلاما يطبق قوانين الدولة الإسلامية على المسلمين وغيرهم

---

[25] الدكتور وليد سيف، صقر قريش، حوار بين بدر وبين أحد المولَّدين.

ســـواء بســـواء من دون تمييز، دخل الناس في دين الله أفواجا، أو بقوا على معتقداتهم آمنين من الإكراه على تركها، مطمئنين إلى العدل والإنصاف وحسن المعاملة.[26]

ولعلنا نأخذ من التاريخ العبرة، فشـــعوب الأرض اليوم تكتوي من ظلم الرأســـمالية، ومن ضـــنك العيش، فلعلها تفتح أبواب مدنها وقلوبها للإسلام فتدخل فيه أفواجا حين تأتيهم جموع المسلمين فاتحة بالخير العظيم إن شاء الله تعالى.

إذن، **فمفاهيم العقيدة كانت محركاً دافعا للعمل دائما عند المســـلمين، وطاقة هائلة تفتح الآفاق للقيام بأعمال عظيمة لم يكن الذين قاموا بها أنفسهم يتصورون إمكانية القيام بها بقواهم الذاتية يوما،** إلا بعد إيمانهم بهذا الدين، وبوعد الله ورسوله لهم بالنصر ولدينه بالتمكين، وإيمانهم بأنهم أصحاب رسالة، وأمة خيرية وشهادة تشهد على الأمم!

---

[26] أنظر التفاصيل في مقال في مجلة الوعي، العدد 83، السنة السابعة شوال 1414هـ، اذار 1994م: الفتح الإسلامي يذهل المستشرقين، بتصرف شديد.

معضلة الشر: الحجة المركزية للإلحاد:

صرح مايكل روس (Michael Ruse) أحد أشهر فلاسفة العلوم في مناظرته مع اللاهوتي فزالا رانا (Fazale Rana) تحت عنوان "أصل الحياة: التطور أم التصميم؟" سنة 2013 أنه لا يرفض الإيمان بوجود الله إلا لسبب واحد وهو مشكلة الشر، إنها الشبهة التي وصفها الشاعر الألماني الملحد جورج بوخنر (George Büchner) بأنها "صخرة الإلحاد". وفي مناظرته مع اللاهوتي ويليام كريغ (William Lane Craig) صرح الفيلسوف الأمريكي مايكل تولي (Tooley Michael) أن "الحجة المركزية للإلحاد هي حُجَّة الشر".[27]

لماذا هناك ألم ومعاناة في العالم؟ هل يجب على الإله أن "يحب المخلوقات" وأن "يرحمها". كون الإله مطلق القدرة وكلي المحبة غير متسقة مع الشر الواضح والعيوب التي في العالم، من هو المسؤول عن الشر؟ ما هي طبيعة الشر؟ لماذا يسمح الإله بوجود الشر في ملكوته؟ مآل الشر؟ هل الألم والمعاناة شر؟

لعلي أختصر على كل مشكك أو متسائل عن وجود الشر في العالم، وأقطع عليه حجته في استخدام هذه المسألة للتشكيك في وجود الله، أو دوره، أو عدالته، أو للتنصل من مسؤولية الإنسان المباشرة عن الغالبية الساحقة مما نشاهد من حروب وأمراض وفقر وآلام، بحل واحد يقطع الحجة عليه: لقد احتج المؤمنون بأن الله تعالى قد وهب الإنسان الإرادة الحرة، وأن الإنسان أساء استخدامها، ولم يعجب هذا الجواب الكثيرين! وتساءلوا: هل هذا أفضل العوالم التي يستطيع الإله القدير خلقها؟

حسناً، ما رأيكم بعالم يخلو من الإرادة الحرة؟ يجبر فيه الإنسان على كل تصرف وفكر وسلوك، بل ويجبر فيه على مستوى النيات والأسرار الداخلية، فيسير كالريشة في مهب الريح، أو كالسن في الدولاب؟ أهذا عالم أفضل من العالم الذي أعطيت فيه الإرادة الحرة للإنسان فاختار أن يملأ العالم بالشر؟ ما رأيكم في العيش في ذلك العالم؟

ولكن، حين نبحث في معضلة الشر، وانتشار الأمراض النفسية والمجتمعية، وانتشار الفقر والمجاعات، والحروب، وقبل النظر في نسبة المسؤولية عن الغالبية الساحقة من المشاكل التي يعاني منها الإنسان اليوم إلى الخالق أم إلى الإنسان، فإنه يلزمنا أن نفهم بدقة أثر نمط العيش السائد، **والفكر الغربي الذي نشأ في أوروبا منذ القرن السابع عشر الميلادي، ومن ثم طغى في العالم عبر موجات من الاستعمار والهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية، التي امتدت إلى اليوم، والحروب والاستثمارات الاقتصادية، وكان أثر ذلك واضحا على هذا الإنسان، ودوره في إفراز هذه المشاكل، ودوره في تشكيل عقلية ونفسية الإنسان الذي يعيش نمط الحياة الذي أسست له الحضارة الغربية، في العالم الغربي، بل وحتى في البلاد التي سيطرت عليها، سواء من خلال الإعلام، أو التعليم، أو السياسة والاقتصاد والاجتماع، أو النمط الثقافي السائد، أو أسلوب**

---

[27] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص18.

العيش، أي إننا ندرس هنا جذور المشكلة التي أفضت إلى انتشار غير مسبوق "للشر" في العالم، ونحمل الفكر الغربي المتمثل بالعلمانية والليبرالية والديمقراطية والرأسمالية والحداثة وما بعد الحداثة والعولمة والاستعمار والشركات العابرة للقارات، والبنك الدولي، والسوق الحرة مسئولية ضخمة عن الشر الذي يعاني منه العالم:

الرؤية المادية الميكانيكية العبثية التي أفرزتها الأنظمة العلمانية و انعكاساتها على الإنسان:

وسندرس ثلاث أفكار مركزية لوضع اليد على هذه الرؤية العبثية، أولها: نشأة العلمانية، وقطعها للحبل السُّرِّي بين الإنسان وبين الفكر عن الوجود، وعن وظيفته في الحياة، وأثر ذلك، وثانيها: إحاطة الإنسان من كل جوانبه بالرؤية الميكانيكية المادية التي لا تعترف بأشواق روحية، وحصرها للمنفعة بالمنفعة المادية، والرفاهية، وتأسيسها للنظام الاجتماعي على أساس النشوة والمتعة، وثالثها: التحولات الفكرية في الفكر الغربي من الحداثة إلى ما بعد الحداثة والتحول من مركزية الإنسان في الكون إلى مركزية السوق الحرة، والانتقال من النضال والتنظير لتحرير الإنسان إلى تشييئه تمهيدا لابتلاعه واستغلاله. جدير بالذكر، أننا فصلنا تفصيلا حول هذه القضايا مبنياً على الأدلة ومستنداً إلى الآراء الفكرية المباشرة من أفواه منظري المبدأ الرأسمالي العلماني الديمقراطي الليبرالي أنفسهم، ومن تاريخ تطور ذلك المبدأ، في كتابنا: الصندوق الأسود للفكر الغربي: مأزق الدولة الحديثة.

بابوات الكنيسة، وبابوات الليبرالية الرأسمالية!

صادرت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى عقلَ الإنسان برمته، ومنعته أن يستقي تصوره للوجود إلا من خلال تأويلاتها المحتكِرة للكتاب المقدس، وسنرى كيف أن الفكر الغربي الذي نشأ في عصر النهضة انتهى بإيجاد بابوات جدد يسيطرون على الإعلام والتعليم، وعلى الاقتصاد والسياسة، والحروب والأدوية، والبنك الدولي، واحتكروا لأنفسهم الحق في سيادة العالم وتسييره خلف أطماعهم!

نشأت العلمانية كمذهب فكري في القرن السابع عشر في أوروبا، إبان عصر النهضة، وقام منظرو عصر النهضة بوضع الأسس الفكرية **للعلمانية بصورة جعلتها "تأسرُ العلمَ والمعرفةَ" وتحتكرُ ما كانت الكنيسةُ تحتكره**! وتبع سيطرة العلمانية على المعرفة سيطرة الليبرالية الرأسمالية على المجتمع بتفتيته عبر النظر إليه على أنه كومة أفراد وكومة أقليات؛ (أقليات: من حيث القدرة على التأثير في السياسة لا من حيث الأعداد)، وبالتالي يسهل على الأحزاب السياسية والرأسماليين المتنفذين أن يتحكموا بمفاصل الدولة والحياة، فسيطروا على الدولة (بقصر دورها على تنظيم مصالح الطبقة الرأسمالية) وعلى العلمانية (باستعمالها وسيلة)، ومن ثم ظهر وبكل وضوح **أن "البابوات" الجدد (بعد تنحية دور بابوات الكنيسة في القرون الوسطى) هم النيوليبراليون الرأسماليون الجُدد**!

وكانت الميزة الأخطر في التحول الفكري إبان عصر النهضة هو التحرر من الوحي، والاستعاضة عنه بالعقل، بهدف واضح: هو نبذ الغيب جملة وتفصيلا، والقطيعة التامة بكل ما لا يقع الحس عليه، ومن ثم سيطرت العلمانية على الدولة، وسيطر الرأسماليون على مفاصل الاقتصاد في الدولة، وسخروا غاياتهم وأدواتهم المعرفية المتمثلة في القياس والتنبؤ والسيطرة والتحكم على العلم والفلسفة والمعرفة، بحيث غدت غاياتها: هي القدرة على التنبؤ لأجل التحكم في الأشياء، بعد أن كانت مهمة العلم والمعرفة والفلسفة هي المعرفة لذاتها، وتوجهها نحو تفسير العالم، وإدراك الحقيقة، ونحو استكشاف قوانينه وتفسيره تفسيراً منسجما مع طبيعة الأبحاث بغض النظر عن نوع النتيجة، أكانت روحية أم مادية، إنسانية أم أخلاقية، فيزيقية أم غيبية، والعقل، ولا شك يتخيل المنفعة المادية في نواح قد لا تكون فعلا متحققة فيها، ويكتشف ضررها لاحقا، أو تكون منفعتها نسبية، أو خاصة بفئة دون فئة، وإذن، فهو توجيه للبحث في أحيان كثيرة وجهة منتقاة، مختارة، لغايات معينة، لا مطلق المنفعة، أو مطلق النتيجة، وهذا توجيه خطير لبوصلة العلم والفلسفة والمعرفة، تسهل على الرأسماليين استعمالها لأغراضهم النفعية، فقد أصبحت النفعية غايةً للمعرفة والعلم والفلسفة معا، مقتصراً على الناحية المادية الدنيوية، فعلى سبيل المثال: قد تنصرف شركات الدواء عن إنتاج دواء يعالج أمراضا كثيرة إذا لم يكن بمقدورها جني الأرباح الطائلة عبر احتكاره ببراءة اختراع، وكان تحضيره سهلا بمواد متوفرة، فلا تكتفي بالانصراف عن إنتاجه، ولكنه لا تظهر أبحاثها للبشر ليستفيدوا من العلاج،

أو ترفض أن تعطي شركات محلية حق إنتاجه بأسعار في متناول يد المرضى الفقراء في دول أخرى ينتشر فيها المرض، بينما ثمن الدواء الذي تنتجه تلك الشركات مرتفع جداً.

يقول غنار سكيربك ونيلز غيلجي في كتابهما (تاريخ الفكر الغربي): "تميزت حقبة عصر التنوير بالتفاؤل التقدمي داخل الطبقة الوسطى المتوسعة، فهناك ثقة متيقظة في العقل وفي الإنسان، كان هناك مذهب خلاص مدني، **حل فيه العقل محل الإنجيل**، وبعونٍ من العقل صار بإمكان الإنسان أن يكشف الجوهر الداخلي للواقع ويحقق التقدم المادي. وسيستقل الإنسان تدريجياً، ويستغني عن السلطة التي لا أساس لها، وعن الوصاية اللاهوتية، **لقد تحرر الفكر لأن الإنسان شعر أنه حاكم نفسه، و أنه مستقل عن الوحي** والتقليد وصار الإلحاد زي العصر"[28] وقال جون لوك: "إنه لم تبق حاجة للوحي طالما أن الإله أعطانا وسائل حسية أكثر يقيناً لنتوصل بها إلى المعرفة"[29]، ويقول موريس باربيه (Maurice Barbier) في كتابه (اللائكية): "تعني اللائكية في مفهومها الواسع الفصل بين الدين والحقائق الدنيوية، فهي تفترض أن هذه الحقائق لا تخضع لاحتواء الدين أو تأثيره، سواء عنى الدين إيمانا ما أو جمعية ما أو سلطة دينية ما، وهكذا، نرى أن الفلسفة في الغرب استقلت عن اللاهوت، وأن مختلف العلوم تكونت خارج إطار المسيحية، بل ضدها أحيانا، وأن كل الحقائق الإنسانية: السياسية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك قد استقلت عن الدين. وقد تم تحقيق هذا عبر إجراء من الفصل ليس بقصير المدى، وهو ما نطلق عليه العلمنة (Secularization)، ولهذا السبب يمكن أن نصف مجتمعا ما أو فكرا ما أو أخلاقا ما باللائكية إذا تخلصت تماما من أي أثر ديني، ولم تطع إلا المبادئ الصرفة ضمن النظام العقلاني أو الطبيعي، وأما بالمعنى الضيق للكلمة، فيمكننا أن نتحدث عن لائكية التعليم للدلالة على أنه لا يحوي أي خصائص طائفية (دينية)."

لكن العلمانية إذ اكتفت بفصل المعرفة والعلم والفلسفة عن الدين والأخلاق والعادات والتقاليد، وحصرتها بالعقل المجرد، فهل تملك العلمانية فكرة كلية (holistic world view) عن الكون والإنسان والحياة؟ هل تمثل العلمانيةُ عقيدةً تستطيع معها أن تشكل منظومة فكرية لتجيب على تساؤلات تؤهلها لتكون إطارا تنبثق منه أسس عقدية تنبثق عنها أنظمة لمعالجة المشاكل؟ سواء أكانت مشاكل اقتصادية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو أخلاقية؟

فهي حين تهدف إلى تنظيم حياة المجتمع والدولة، لا بد لها من نظرة شمولية تستطيع على أساسها تنظيم هذه الحياة، وحين تريد أن تضع قوانين يسير عليها المجتمع لتنظيم معاشه، لا بد لها من أفكار ومقاييس

---

[28] نقض الفكر الغربي الرأسمالي مبدأ وحضارة وثقافة، من إصدارات حزب التحرير صفر 1443 هـ، أيلول 2021 م. ص 13-14

[29] معنى كلامه أن الإنسان يعلم أكثر من الخالق! فلا حاجة للوحي طالما أن العقل أقدر على الوصول لليقين من الوحي! وهذه **بداية نزعة جعل الإنسان سيد الكون**!

فكرية تعالج هذه المشـاكل، ولا بد لها من مرجعية معينة (مقاييس) تسـتطيع على أسـاسـها إرجاع الحلول لها لتكون متناسقة متسقة متناغمة تفضي إلى ألّا تتناقض مع بعضها بعضاً!

بالإضافة إلى أن العلمانية لم تقم بتقديم سَرْدِيَّةٍ أو روايةٍ تفسرُ فيها للإنسانِ الغايةَ من وجودِهِ، ولم تَسْرُدْ له قصة وجوده وارتباطه بالخالق وبالكون وبالحياة، وأثَر ذلك التفسير على سلوكه بما يتضمنه من تفاصيل منهج الحياة الذي يجب أن يعيش على أساسه، وبما يحويه من نظرية قيمية تحدد للإنسان القيم التي يعيش لتحقيقها أو التي يمكنه اتخاذها مقاييس لأعماله، فإنها عمدت إلى فصله عن الرواية أو التفسير الذي يمتلكه هو عن الكون والإنسـان والحياة، بما عمدت إليه من قطع الحبل السُّـرِّيِّ بينه وبين ذلك المنهج، وتلك القيم، فلا هي قدمت له منهجا ولا تفسيرا، ولا حتى حفلت بالقيم، ولا تركته يعيش وفق منهجه وتفسيره وقيمه! وهذا الأمر تناقض عقلي، وإشكال فكري ضخم.

فإن إدراك الغاية من الوجود ليس بالأمر الثانوي الذي يمكن أن تتجنبه الأيديولوجيات بسـهولة، ولا يمكن أن يكون أثر انعدامه من التصـور على حياة البشـر إلا مدمراً، إذ لا يمكن بحال إحداث شـرخ فكري في العقل البشـري بين التصـور عن الغاية من الوجود والمنهج والقيم من جهة، وبين الحياة من جهة أخرى، كما ولا يصح أن تخلو الحياة من ذلك التصور؛ والعلمانية إنما هي فصل لذلك التصور عن الحياة نفسها!

كذلك، إن فصـل منهج الحياة -الذي تريد العلمانية للإنسـان أن يخطه بعيداً عن أي معتقد يضـع له تصـوراً عن وظيفة ذلك الإنسـان في الحياة (الغاية من وجوده، والمسـئوليات والتكاليف المترتبة على هذا التصـور) - هو أمر بالغ في التناقض! فكيف لإنسـان أن يعزل منهج حياته عن السـؤال المركزي المتعلق بدوره ووظيفته ومسئولياته التي وجد في هذه الحياة ليقوم بها!

حيث إن ذلك التصـور عن الوجود والحياة لا بد وأن يعطي آليةً (ميكانيزماً) أو طريقةً أو منهجاً يبين السـلوك والاعتقاد الذي يجب القيام به لأجل بلوغ تلك الغاية أو ذلك الهدف الذي لأجله يعيش الإنسـان في هذه الحياة!

خصوصا وأن العلمانية نأت بنفسها عن أن تقدم له تفسيرا يوضح دوره ووظيفته في الوجود، وهدفه من العيش -باسـتثناء التركيز على المنافع واللذات الآنية وإطلاق العنان للحريات السـلوكية- وبالتالي فهي عمدت على أن تقطع الحبل السُّـرِّيَّ بين السلوك والاعتقاد الذي تريد للإنسـان أن يطبقه في الحياة عن أي آلية تبين له الأهداف التي تترتب على قيامه بذلك السـلوك في إطار تحقيق أي غاية وجودية له! فالعلمانية -من خلال **نظرية المعرفة الخاصة بها (الأبستمولوجيا)**- ترفض بحث "الغائية" والغيب بشكل كامل أصلا!

كذلك الأمر فإن العلمانية نفسها لا تقدم روايةً سرديةً أو تفسيراً داخلياً من نفسها ليبرر وجودها أو الحاجة إليها هي، فمثلا حين يؤمن المسيحي بالإله وبالتثليث وبالمخلِّص وما شـابه من قضـايا، فإن هذا الإيمان يجعله مسيحياً وعلى أساسه يتّبع تعاليم الديانة المسيحية (من أخلاق وسلوك)، وقس على هذا سائر الأديان وبعض

المناهج الأيديولوجية، فالشيوعي يؤمن بالمادية أو بالماركسية، وهو ملحد، الأمر الذي يبرر وصفه بالشيوعي، باقتناعه بالمادية والقوانين الجدلية والنظرية الاشتراكية والنظام المنبثق عنها للحياة. بينما الأمر ليس كذلك في العلمانية، فالعلمانية ليست إلا مجرد محاولة براغماتية لإفراز حل قابل للتطور والتغيير مع الوقت والظروف، لا يمكن وضع اليد على معالمه الفكرية، إذ إنه قابل للتلون والتحوير، وهو نسبي، متغير دائما بحجة التطوير، ويتهرب من أن يضع مقاييس أصولية فكرية تبنى عليها الحلول المفروضة للواقع، بحجة الحيادية أو عدم تسلط فئة على غيرها في المجتمع، أو بحجة دوام التغير والتطور، أو بحجج أخرى، وستترك للمشرعين في الدول أن يختاروا ضوابط لعلاقات المجتمع وفقا لآرائهم بوصفهم فقهاء دستوريين، ومشرعين، وأحزابا سياسية، **دون أن توصل لهم أي أصول يتبعونها عند التشريع**، ودون أن تبين لهم **مقاصد عامة يراد للتشريعات تحقيقها**، وبذلك نرى أن العلمانية **فكرة سلبية**، تعرف ما لا تريد، فهي **لا تريد** أن يكون التشريع صادرا عن أي دين أو قيم خلقية أو عادات مجتمعية، ولكنها **لا تعرف ما تريد**، فهي لا تقدم حلولا لمشاكل الإنسان، **لا تقدم تصورا للمقاييس والقيم والقناعات والمقاصد التي يراد للتشريع أن يوجدها في أي مجتمع أو دولة** حتى يرجع المشرعون إليها حين قيامهم بالتشريع، وأقصى ما قدمته هي مفاهيم هلامية عامة غامضة ضبابية[30] مثل تأليه العقل ونواتجه، فهو معيار الصواب والخطأ، ومثل "العقل السليم"، **والحق الطبيعي (بدلا من نظرية: الحق الإلهي)**، ومثل الحريات، وعصمة الإرادة العامة، وجعل العدل الطبيعي والإخاء والحرية والمساواة هي وحدها مصدر التشريع، وهذه كلها مفاهيم فضفاضة غامضة قابلة للتأويل والتغيير والتضارب بحيث يصعب على المشرع مراعاتها أو حتى التحقق من مراعاتها في كل شأن، وبحثها الموغل في النظرية، والمنفصل عن الواقع في فصل السلطات ومنع استئثار قلة من المجتمع بها، لمنع الاستبداد، الأمر الذي نجدها قد غضت الطرف عنه تماماً حين مورست العلمانية في الواقع!

---

[30] على سبيل المثال "دارت أفكار المدارس العلمانية التي تمثل عقلانية عصر التنوير، وعاطفية روسو، ونفعية بنثام على الأفكار التالية: إن العقل المجرد هو الموجه لمسار التطور الاجتماعي والإنسان خيِّرٌ بطبيعته، ولكن المؤسسات الاجتماعية قد أفسدته، تقاليد البشر أساطير خادعة، قدرة البشرية على التقدم اللانهائي، غاية المصلح الأخلاقي والسياسي تحرير الإنسان من العقائد القديمة والمؤسسات القديمة، ومستقبل الإنسان يكمن في حرية خالصة وديمقراطية بلا حدود، والسلطة السياسية هي أداة الإصلاح". (الأصولية والعلمانية، مراد وهبة ص 20-21.) فكما ترى هذه أفكار فلسفية وليست مقاييس تشريعية، وليست حلولا تفصيلية للمشاكل الناتجة عن الاجتماع.

إحاطة الإنسان برؤية مادية ميكانيكية عبثية

أما عن الرؤية المادية الميكانيكية التي أحاطت الإنســان بها، فإننا ســنجد لو أنعمنا النظر في التحولات الخطرة التي أسبغتها هيمنة الحضارة الغربية وتسلطها اليوم في العالم وعلى البشرية، سنجدها أعادت هيكلة الإنســان في هذا العصــر وفق رؤية علمانية ميكانيكية، أرخت العنان لنسـج حياته وفق ماكينةٍ ماديةٍ بحتةٍ، فَصَلَتْهُ عن ذاتِهِ، وسحقتْ كينونَتَهُ، ليتمظهرَ إنساناً غريباً عن إنسانيته، مُعْرِضَاً عن إله السـمواتِ خالقِ الكونِ والإنســانِ والحياةِ، وعن فردوسِ الســماءِ الموعودِ جزاءً على إحســانِ العملِ في هذه الحياةِ، مُقْبِلاً على عبادةِ آلهةٍ أرضـيةٍ جديدةٍ، محجوبةٍ بغطاءِ العلمانيةِ والحداثةِ حيناً، وســتارِ التقدمِ التقنيّ حيناً آخرَ، تَعِدُهُ بفردوسٍ أرضـيّ تسـوسُـهُ الرغباتُ والشـهواتُ الهائجةُ، وتعظيمُ اللذاتِ، فأورثته هذه النظرة الأرضـية ضـنكَ المعيشة، وشِقوةَ الروح[31]، وخواء الفكر، وحيرةً ولا أدريةً تَسَرْبَلَ بها، ولم يعد يُبالي!

لو أنعمنا النظر أكثر لوجدنا انقلاباً كاملاً على مفاهيمِ الثقافةِ والحضــارةِ بتفريغها التامّ من كل قيمةٍ ومعنى، ومن كل بعدٍ إنســانيّ يمثّلُ سُــلَّمَ القيمِ الاجتماعيّةِ والمعارفِ والمعتقداتِ والفنونِ والأخلاقِ والتقاليدِ والفلســفةِ وباقي المواهبِ والقابليّاتِ والعاداتِ المميزةِ للمجتمعاتِ، وتحويلها إلى القيمةِ الماديةِ والمنفعةِ الآنيَّةِ واختزالِها في زيادَةِ الإنتاجِ والتسويقِ والربحِ فقط، ومراكمةِ الكَمّ على الكَمّ، من سلعٍ ومعدلاتِ إنتاجٍ واستهلاكٍ، حتى غدا الاختراعُ هو أبو الحاجة، **وتحول الإنسانُ نفسه ليكون سلعةً**، أو مادةً دعائيةً لترويجِ سلعةٍ لا يزيدُ ثمنها عن ربعِ دينارٍ!

وتحولت المجتمعاتُ من أن تكونَ كياناتٍ ثقافيةٍ تتجسد قيمُها في نمطِ عيشِها إلى مجموعاتٍ استهلاكيةٍ، لم تلبث طويلاً بعد خوائِها الفكريِّ الثقافيِّ الحضــاريِّ ذلك، والذي صــاحبه إذكاءٌ لنارِ العنصــريةِ والتفرقةِ والتناحرِ والإفناءِ حتى دارت فيما بينها رحى حروب ودماء تســفك، لها أول وما لها آخر، وانبهر الناس بالتقدم التكنولوجي على حســاب التراجع الشــديد في مجال القيمِ الإنســانيَّةِ، ولم تتمكن العلومُ والتقنيةُ من حلّ مشـكلاتِ العالمِ، **ولا أفضـت لتفسـيرِ معنى الوجودِ**، ولم تزد اللاأدريينَ إلا مزيداً من الشـك والتِّيْهِ والوَحشـةِ والحَيْرَةِ والصُّدودِ، لذلك، نجد أن العلمانية لم تجب على الأسئلة المصيرية للإنسان، فكانت أوّل مبدأ في تاريخ البشـرية يقوم على تجاهل قضـية الإنسـان المصـيرية، مما أنتج حضـارة الشـقاء والقلق، حيث يعيش الإنسـان جاهلاً بكينونته وصيرورته.

يقول كولن ولسـون في كتاب (سـقوط الحضـارة): "أَنْظُرُ إلى حضـارتنا نظري إلى شيء رخيص تافه، باعتبار أنها تُمثل انحطاط جميع المقاييس العقلية."

---

[31] الدكتورة كريمة دوز: الوثنية الجديدة: الأشكال الجديدة لعبادة الإنسان الحديث بتصرف.

ويقول المؤرخ أرنولد توينبي: "إن الحضــارة الغربية مصــابة بالخواء الروحي الذي يُحوّل الإنســان إلى قزم مشــوّه يفتقد عناصــر الوجود الإنســاني، فيعيش الحد الأدنى من حياته، وهو حد وجوده المادي فحســب، والذي **يُحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف**، ويُحول حياته إلى **جحيم مشــوب بالقلق والحيرة والتمزق النفسي**".

ويقول الكاتب والسـياسـي الفرنسـي أندري مالرو: Malraux "حضـارتنا هى الأولى في التاريخ، التى إذا طرح السؤال الأهم "ما معنى الحياة؟"، أجابت "لا أعرف" على مدى القرن، فشلت كل محاولات الإجابة"![32]

وقال تي. إس. إليوت: "أكبر دليل على انحطاط ثقافتنا هو رد فعلنا المرتبك تجاه اســم الله". "أين هو الحكمة التي فقدناها في المعرفة؟ أين هو المعرفة التي فقدناها في المعلومات؟"

---

[32] أنظر مقالة بعنوان: الفاتحة: من الله.. لله.. إلى الله.. الكاتب: ياســين بن علي. والدكتورة كريمة دوز: الوثنية الجديدة: الأشــكال الجديدة لعبادة الإنسان الحديث بتصرف.

تحولات الليبرالية.. من التنظير لتحرير الإنسان إلى تشييئه تمهيدا لابتلاعه:

في مقالته الشـهيرة، التي نشـرت عام 1784، أوضـح الفيلسـوف الألماني "إيمانويل كانط" جوهر مشـروع التنوير والحداثة، وهو "تحرير الإنسان من كل قوى الاستلاب التي تقف بينه وبين حريته في ممارسة اختياراته وإعمال عقله وتحديد مصيره، وتشكيل تصوراته عن العالم"[33]؛

ذلك العالم الذي أخذ يقتصر شيئا فشيئاً على مملكة الطبيعة، أي العالم الحسي المادي الذي يمكن أن يخضـع للتجربة، والذي يحمل جميع أسـراره وآليات فهمه داخله، دون الحاجة لإقحام الميتافيزيقيا أو أي مرجعيات غيبية تتجاوزه في عملية فهمه، خصـوصـا في "عصـر التنوير، عصـر الإيمان بقدرة العقل على **فض كل مغاليق هذا الوجود**."[34]،"![35].

فالحرية باعتبارها -من وجهة نظرهم- إعادة الاعتبار للإنسـان في هذا العالم، (الإنسـان الأبيض الأوروبي المنتمي للقوى البورجوازية الصـاعد نجمها في أوروبا، صـاحب الطموحات الاقتصـادية الواسـعة، الراغبة في إنهاء الملكية المطلقة والقضـاء على النظام الإقطاعي الذي يقف بينها وبين حقها في حرية التملك والتجارة والتنقل والتصـرف) ورفع أغلال القوى التي تسـلب وجوده وذاتيته؛ كانت **الحرية هي الشـعار الأبرز لعصـر التنوير والحداثة**، واعتبرت تلك الحقوق أخلاقيات عامة ومقدسـة لا يمكن التنازل عنها، وتمركزت فلسـفتها حول الإنسان.

بتمركزهـا حول الحريـة الفرديـة كقيمـة مطلقـة، اعتبر أنـدرو هيود أن الأيـديولوجيـا الليبراليـة "هي **الأيديولوجيا الأكثر ارتباطا بفلسفة التنوير** وتعبيراً عنها وبنظرتها للإنسان والتاريخ".

---

[33] أنظر: استذئاب الليبرالية.. من النضال لتحرير الإنسان إلى النضال لابتلاعه، ويحيا الفرد ويسقط المجتمع.. المسيرة المظلمة للفردانية في الغرب، شريف مراد، ميدان، الجزيرة نت. هوبز: الدولة التنين {الإرهاصات الأولية للعقد الاجتماعي}، سليم اللويزي، ما هي الليبرالية؟ موقع: حكمة، نص مترجم د. جيرالد غس وآخرون، ترجمة: أمين حمزاوي، مراجعة: سيرين الحاج حسين، والمنشور على (موسوعة ستانفورد للفلسفة). نقد الليبرالية، عيوب الليبرالية وأخطاؤها، د. الطيب بوعزة، مفهوم الحرية، عبد الله العروي.

[34] فلسفة العلم في القرن العشرين د. يمنى طريف الخولي ص 12،

[35] يقول الأسـتاذ عباس العقاد في كتابه "الله" ص 49-51: "وقد كان للحاسـة الدينية فضـل الإنقاذ من هذه الجهالة الحيوانية [يعني جهالة قصـر الموجودات على المحسـوس فقط، بالادعاء أن كل ما هو منظور أو ملموس أو مسـموع فهو واقع لا شـك فيه، وكل ما خفي على النظر فهو والمعدوم سـواء]، لأنها جعلت عالم الخفاء مسـتقر وجود، ولم تتركه مسـتقر فناء، فتعلم الإنسـان أن يؤمن بوجود شيء لا يراه ولا يلمسـه بيديه، وكان هذا فتحا علميا، لم ينحصر في عالم التدين والاعتقاد، لأنه وسع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عنه في عالم غير عالم المحسـوسـات والملموسـات، ولو ظل الإنسـان ينكر كل شيء لا يحسـه لما خسـر بذلك الديانات وحدها، بل خسـر معها العلوم والمعارف وقيم الآداب والأخلاق.... ويجيء الماديون في الزمن الأخير فيحسـبـون أنهم جماعة تقدم وإصـلاح للعقول وتقويم لمبادئ التفكير، والواقع أنهم في إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى إلى أعرق عصـور في القدم، ليقولوا للناس مرة أخرى إن الموجود هو المحسـوس وإن المعدوم في الأنظار والأسـماع معدوم كذلك في ظاهر الوجود وخافيه، وكل ما بينهم وهمج البداءة من الفرق في هذا الخطأ، أن حسهم الحديث يلبس النظارة ويضع المسماع على أذنيه.". انتهى مختصرا.

آذن القرن السابع عشر والثامن عشر بتحولات فكرية هائلة في أوروبا، التي رزحت تحت مزيج من النظام الكنسي/ الاقطاعي الذي كان يحول بين **الإنسان الأوروبي وبين "حقه" في التملك والحرية**، وتحديد مصيره بنفسه، **بلا** حقوق سياسية تمكنه من المشاركة في الحكم واختيار من يحكمه، إذ تصارعت الملكية ومجلس النواب (البرلمان) والكنيسة على تلك الحقوق (أواخر القرن السادس عشر أوائل السابع عشر، في مجتمع بريطاني بروتستانتي يعمل على قلع كل أثر للبابوية المكروهة، إبان بروز توماس هوبز (1588-1679) وجون لوك (1632-1704) (وهما فيلسوفان منظِّران سياسيان)، ولا أخرى تعطيه قيمة إنسانية ترتفع به، ويشعر معها بكرامته ودوره في الحياة[36].

[36] أنظر: استذئاب الليبرالية.. من النضال لتحرير الإنسان إلى النضال لابتلاعه، ويحيا الفرد ويسقط المجتمع.. المسيرة المظلمة للفردانية في الغرب، شريف مراد، ميدان، الجزيرة نت. هوبز: الدولة التنين { الإرهاصات الأولية للعقد الاجتماعي}، سليم اللويزي، ما هي الليبرالية؟ موقع: حكمة، نص مترجم د. جيرالد غس وآخرون، ترجمة: أمين حمزاوي، مراجعة: سيرين الحاج حسين، والمنشور على (موسوعة ستانفورد للفلسفة). نقد الليبرالية، عيوب الليبرالية وأخطاؤها، د. الطيب بوعزة، مفهوم الحرية، عبد الله العروي.

التحولات الفكرية بين مفاهيم عصر النهضة وفلسفة ما بعد الحداثة:

وأما أثر التحولات الفكرية في الفكر الغربي، وأثرها على الإنســان والمجتمع، فكانت مرحلة الحداثة وكان عمادها وركنها هو إلغاء الدين، أو تحييده، أو فصله، أو بتعبير مارتن هايدجر "الانسلاخ عن المقدسات ونزع الطابع الإلهي عنها"، ويقول آلان توران في كتابه (نقد الحداثة): "تحل فكرة الحداثة فكرة العلم، محل فكرة "الله" في قلب المجتمع، وتقصـــر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصـــة بكل فرد، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنه لا يكفي أن تكون هناك تطبيقات تكنولوجية للعلم كي نتكلم عن مجتمع حديث، ينبغي أيضـــا حماية النشـــاط العقلي من الدعايات الســـياســـية أو الاعتقادات الدينية... ترتبط فكرة الحداثة إذن ارتباطا وثيقا بالعقلنة"[37]

تأســـست الحداثة[38] بتأثر شـــديد بأفكار عصـــر التنوير على فكرتين: فكرة الثورة على التقليد، وفكرة مركزية العقل، لكن على حســـاب المشـــاعر والقيم الإنســـانية، بحيث أضـحت العقلانية قهرا، وتركيزا لتفوق الإنســـان الأبيض الأوروبي وغطرسته، وحقه في استلاب واستعباد البشر والأمم الأخرى، وفي هذا السياق "صفق عظيم مفكري الحداثة في أوروبا (هيجل) لما ســـمَّاه بانتصـــار الروح الأوروبية وعودتها إلى مجدها عند احتلال فرنســـا للجزائر"، وكانت خطابات الاســـتشـــراق تتمركز حول الطابع الاســـتعماري، نجد أيضـــا أن فرانســـوا ماري أرويه المعروف باســـم فولتير الذي هاجم الكنيســـة الكاثوليكية وآمن أن "مصـــير الإنســـان بين يديه وليس في الجنة". وشـــجعت أفكاره الناس على القتال ضـــد امتيازات وهيمنة الكنيســـة، واعتُبر الفيلســـوف الفرنســـي "رمزاً لعهد التنوير"، وذاعت شـــهرته بســـبب ســـخريته الفلســـفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية وخاصـــة حرية المعتقد، نجد أنه: كان عنصريا بحسب تقرير لمجلة فورين بوليسي، كان فولتير قد استثمر شخصيًا في شركة الهند الشرقية الفرنسية، التي تأسست عام 1664 لاستغلال العالم الجديد، بما في ذلك تجارة العبيد الأفارقة الذين تم بيعهم كسلع من أجل الربح. ومع ذلك، فقد أحب تعريف نفسه بأنه "فيلسوف تاجر" وبالتأكيد قام بتمويل شركة الهند الشرقية الفرنسية بلا شك في أربعينيات القرن 18، عندما ركزت فرقاطاتها المسلحة على الرحلات التجارية إلى أفريقيا. بالإضافة إلى امتلاك أسهم الشركات، تم توثيق أن فولتير وضع أمواله الخاصة مباشـــرة في مغامرات نقل الرقيق بواســـطة ســـفن مثل Le Saint-Georges، التي غادرت قادس، إســـبانيا، في ديســـمبر/كانون الأول 1751 متجهة إلى غينيا... وكانت كراهيته الشـــديدة للجماعات الدينية كافية بســـهولة

---

[37] نقض الفكر الغربي الرأسمالي مبدأ وحضارة وثقافة، من إصدارات حزب التحرير صفر 1443 هـ، أيلول 2021 م. ص 14-15

[38] الحداثة هي مدرســة فكرية أو حركة ظهرت في أواخر القرن التاســع عشــر وأوائل القرن العشــرين. وتمتد فترة ما بعد الحداثة من ســنة 1970-1990 م، ويعيد كثير من الباحثين نشأة مفهوم ما بعد الحداثة وإرهاصاته إلى الفيلسوف الألماني نيتشه الذي نادى بموت الإله (الإنسان المقدس)، وليعلن أنه لا حقيقة مطلقة طالما أن هناك اكتشـافات جديدة خارج سـيطرة الإنسـان، ويؤرخ لها توينبي بسـبعينات القرن التاسـع عشـر، أي إن هناك اختلافات في تاريخ ظهور الحركة، ولكن الحداثة تأثرت تأثرا واضحا بأفكار عصر التنوير والنهضة الأوروبي منذ القرن السابع عشر.

للتحريض على العنف ضـدهم، وأكدت عنصـريته البيولوجية أن هناك تدرجات لأشـكال الحياة وأن السـود جاؤوا في مكان ما بالقرب من القاع، بعيدًا عن "القرود". وعام 1769 صـور فولتير في أحد كتبه الأفارقة على أنهم "حيوانات" ذات "أنف أسـود مسطح بذكاء ضـئيل أو معدوم". "[39] الأمر الذي دفع لإزالة تمثال فولتير من خارج الأكاديمية الفرنسـية في باريس في أغسـطس/آب في حمأة مهاجمة رموز العنصـرية والعبودية التي اجتاحت العالم الغربي في أواسط عام 2020 إثر تحركات "حياة السود مهمة" .Black Lives Matter

إذن، فمن الطبيعي أن نتساءل عن شعارات العلمانية وعصر التنوير الأولى: الحرية، المساواة، الإخاء، هل هي لكل البشر؟ أم للجنس الأبيض فقط؟[40] بل فوق ذلك: للرجال من الجنس الأبيض دون النساء!

"ناقش سـتيوارت ميل في كتاب "عن الحرية" أن "الحرية كمبدأ، لا مجال لتطبيقها على أية حالة سـابقة على الوقت الذي يبلغ فيه البشـر القدرة على التطور بواسـطة المناقشـة الحرة على قدم المسـاواة" من ثم فإن "الاستبداد هو نظام مشـروع للحكم في التعامل مع البرابرة، على شـرط أن تكون غايته تطورهم[41]. غالبًا ما يتم تجاهل هذا المقطع – المُشـبّع بالروح الإمبريالية للقرن التاسـع عشـر- (وربما كما يعتقد البعض العنصـرية الكامنة) من قبل المدافعين عن ميل وذلك بداعي الحرج.[42] لكن هذا لا يعني أن مثل هذه المقاطع الميلينية ظلت من دون مدافعين "مرموقي الفكر". –انظر على سبيل المثال.(Inder Marawah (2011". [43]

[39] فيلسـوف الثورة الفرنسـية "المبجّل".. هل نشـر فولتير التنوير أم الظلام والاستعباد؟ الجزيرة نت. وتقرير المجلة الأميركية فورين بوليسي، الذي كتبته الصحفية الفرنسية الجزائرية نبيلة رمضان.

[40] يشـير مصـطلح "التفوق الأبيض"(White Supremacy) ، وفقًا لمعجم ميريام ويبسـتر، إلى الأيديولوجية العنصـرية الشـاملة التي ترى أن العرق الأبيض متفوق في الأصل على باقي الأعراق، وينبغي أن يسود عليها.

[41] (1963, vol. 18: 224)

[42] (Parekh, 1994; Parekh, 1995; Mehta, 1999; Pitts, 2005)

[43] ما هي الليبرالية؟ موقع: حكمة، نص مترجم د. جيرالد غس وآخرون، ترجمة: أمين حمزاوي، مراجعة: سـيرين الحاج حسـين، والمنشـور على (موسوعة ستانفورد للفلسفة).

لسنا عنصريين، بل كثير من الناس الغربيين أيضاً يكتوون اليوم من نفس النار التي اكتوت منها البشرية

لكن قد يتساءل إنسان غربي، -وهو صادق في تساؤله- ليقول: أنا لا أؤمن بالعنصرية، ولا بتفوق الجنس الأبيض، ولم أرث هذه الموروثات الثقافية، ولست أؤيد الحروب، ومع ذلك، فإننا نريد أن نؤكد وبشدة، أننا نناهض كل أشكال العنصرية ونبغضها، ولا يمكن أن ننظر إلى الإنسان الغربي كجنس أبيض، وإنما كنا ندرس مرحلة بغيضة في تاريخ البشرية قامت في أوروبا منذ عصر النهضة، ملأت جنبات العالم بتاريخ متوحش للاستعمار الأوروبي، وفظائعه التي تعتبر من أسوأ التصرفات في تاريخ الجنس البشري، ولا شك بأن نتائجها مستمرة إلى اليوم، وأن كثيرا من الدول الغربية اليوم، ما زالت تستعمر أجزاء كثيرة من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، وما زالت تمارس نفس الممارسات الاستعمارية السابقة، بأشكال جديدة، وما زال العالم يكتوي بنار هيمنتها الرأسمالية، وشركاتها العابرة للقارات، ونهبها لثروات الشعوب، **ولا يتحمل أحد وزر أحد**، فنحن لا نحمل الإنسان الغربي اليوم الذي ينظر إلى الاستعمار نظرة ازدراء، ويستنكر الحروب، ويرى حق الأمم الأخرى في العيش الكريم، لا نحمله أيا من أوزار الإنسان الأوروبي في القرون السابقة، والذي كان يعترف بعنصريته ويؤمن بتفوق الجنس الأبيض وحقه في استعمار الشعوب الأخرى، واستقى نظرته تلك من مفكري عصر النهضة، وسار في ركاب دوله التي انطلقت تستعمر العالم، وتنهب خيرات الشعوب وثرواتها، وتسوقها عبيدا، ومن ثم تخوض الحروب تلو الحروب، ذلك هو الإنسان الذي هاجمناه في السطور الماضية، بل فوق ذلك: إن كثيرا من الناس في الغرب اليوم يعانون أشد المعاناة من آثار هذه الرؤى الثقافية والاقتصادية والنفسية، فتنتشر فيهم الأمراض النفسية وقد غرقوا في وحل الديون الهائلة، والفراغ الروحي وانتشرت من حولهم في مجتمعاتهم آفات الشذوذ السلوكي والجريمة والسجون المكتظة، فهم أيضا ضحايا لعين المشكلة التي يعاني منها الناس في العالم كله جراء هيمنة الحضارة الغربية على العالم، وجراء سياسات دولهم الحاضرة الاقتصادية والثقافية والقانونية التي أفرزت تلك الأوضاع!

الانتقال من تأليه الإنسان ومركزيته للكون إلى تأليه ومركزية السوق الحرة!

وتمركزت الحداثة حول فكرة الحرية والعلمانية، واعتبرت أن الإنســـان هو جوهر كل شـــيء، فهو ســـيد الكون، ومركزه، وكانت أفكار "إيمانويل كانط" ذات بريق مهم في تطوير الأفكار التي قامت الحداثة عليها، ولكن الحداثة لم تستطع تحرير الإنسان، بل على العكس، كانت شعاراتها المناهضة للعنصرية وتخليص الانسان من الاستغلال واهية وغير حقيقية.

والحداثة هي **مرحلة انتقالية قصيرة** استمرت فيها سيادة الفكر النفعي مع تزايد وتعمق آثاره على كافة أصـــعـدة الحياة، فلقد واجهت الدولة القومية تحديات بظهور النزعات العرقية، **الأمر الذي أفرز حربين عالميتين**، وكذلك أصـــبحت حركيات الســـوق (الخالية من القيم) تهدد ســـيادة الدولة القومية، واســـتبدل الاستعمارَ العسكريَّ بأشكال أخرى من الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي، واتجه السلوك العام نحو الاســـتهلاكية الشـــرهة، واســـتمرت مرحلة الحداثة حتى ظهرت إرهاصـــات ما بعد الحداثة كردة فعل على **الإخفاقات الحضارية والفكرية التي أفرزها عصر التنوير**.

ثم ظهرت "ما بعد الحداثة" في ظروف ســـيـاســـيـة معقدة فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة، وانتشار التسلح النووي، وظهور حقوق الإنسان، وظهور وانتشار الفلسفات اللاعقلانية، كالسريالية، والوجودية، والفرويدية، والعبثية، والعدمية... وقد كانت التفكيكية مُعبّراً رئيسـا للانتقال من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة. ومن ثم، فقد كانت ما بعد الحداثة مفهوماً مناقضـــاً ومدلولاً مضـــاداً للحداثة. ولذلك، "احتفلت ما بعد الحداثة بأنموذج **التشـــظي والتشـــتيت واللاتقريرية** كمقابل لشـــموليات الحداثة وثوابتها، وزعزعـت الثقـة بـالأنموذج الكوني، وبـالخطيـة التقـدميـة، وبعلاقـة النتيجـة بـأســـبـابهـا، **وحـاربـت العقـل والعقلانية**، ودعت إلى خلق أساطير جديدة تتناسب مع مفاهيمها التي ترفض النماذج المتعالية، وتضع محلها الضرورات الروحية، وضرورة قبول التغيير المستمر، وتبجيل اللحظة الحاضرة المعاشة"[44].

في هذه المرحلة تَنَحَّتْ فكرةُ مركزية الإنســـان جانبا، ولأجل بلوغ الأهداف التي ســـعت الحداثة لبلوغها وفشلت فيها، قامت مرحلة ما بعد الحداثة على نقدٍ "وتصحيح داخلي" لأفكار الحداثة، بما يتواءم مع الأشكال الجديدة للهيمنة، في ظل عقلية غربية (أوروبية وأمريكية) قائمة على الســـيطرة والاســـتلاب، عن طريق **أفكار تقوم بتفتيت الإنسان وتفكيكه**، عبر **تحويله إلى كائن عبثي متناقض مغترب**. **وتفكيك المجتمعات وتفتيتها**، بإقامتها على فكرة **الفردانية وفكرة الأقليات**، فلا "أغلبية" في المجتمع لها حق فرض قيمها أو تشـــريعاتها في الحياة، فالكل أقليات، المرأة والطفل والشواذ والمستقيمون والأقليات العرقية والدينية...الخ.

---

[44] د. سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، ص:142. مدخل إلى مفهوم ما بعد الحداثة د. جميل حمداوي، موقع الألوكة،

أصبح الاستهلاك هو الهدف النهائي من الوجود، ومحركه: الحرية واللهو والتملك، واتسعت معدلات العولمة **لتتضخم مؤسسات الشركات متعددة الجنسيات والعابرة للقارات والمنظمات غير الحكومية الدولية**، وتتحول القضايا العالمية من الاستعمار والتحرّر إلى قضايا المحافظة على البيئة، والمساواة بين المرأة والرجل وبين الناس، وحماية حقوق الإنسان، ورعاية الحيوان، وثورة المعلومات. لقد غيّرت ما بعد الحداثة النظام الإمبريالي القديم المبني على توازن الرعب، إلى نظام يدعو إلى الديمقراطية **وفتح العقول والحدود أمام العولمة والسوق الواحدة والرأسمالية**، فكانت مرحلة انتقال من عنف الحداثة إلى الليونة والانسياب؛ **لإغراء الآخر وتفكيكه تحت شعارات وأمنيات خيالية**. من وجهة أخرى ضعفت في المجتمعات الصناعية المتقدمة مؤسساتٌ اجتماعيةٌ صغيرة بطبعها مثل **الأسرة**، بسبب الإسهاب في مسألة المساواة بين الرجل والمرأة، وظهرت بجانبها أشكال أخرى للمعيشة العائلية مثل زواج الرجال أو زواج النساء، وزاد عدد النساء اللاتي يطلبن الطلاق فشاعت ظاهرة امرأة وطفل أو امرأتان وأطفال، كل ذلك مستنداً على خلفية من غياب الثوابت والمعايير الحاكمة لأخلاقيات المجتمع والتطور التكنولوجي الذي يتيح بدائل لم تكن موجودة من قبل.[45]

لقد قامت ما بعد الحداثة لنقد **فشل أفكار الحداثة** وأساليبها في بلوغ غاياتها، والاستعاضة عنها بأفكار وأساليب جديدة **تعيد النظر في المجتمعات والأسرة والثقافات والإنسان والطبيعة** وآليات التشتيت والتشكيك والتشريح والتفكيك (بانتقاد اللوغوس، أي قانون التفكير المنطقي)، والاختلاف، والتغريب، **والعدمية، والفوضى، واللانظام، واللاانسجام، وعدم وضوح الهوية، واللامعنى، واللامركز**.

كانت ما بعد الحداثة تهدف إلى تقويض الفكر الغربي، وفضح الأيديولوجيات السائدة المتآكلة، وذلك باستعمال لغة الاختلاف والتضاد والتناقض، **والتشكيك في المعارف اليقينية**، وتقويض (العقل والمنطق والانسجام والنظام)، وتقوم في ذلك بالاتكاء على **فلسفة عدمية، فوضوية، تُغيِّبُ المعنى**، بمعنى أن فلسفات ما بعد الحداثة هي فلسفات لا تقدم بدائل عملية واقعية وبرجماتية، بل هي فلسفات عبثية لا معقولة، تنشر اليأس والشكوى والفوضى في المجتمع.

وفي هذا الصدد، يقول ديفيد كارتر (David Karter) في كتابه (النظرية الأدبية): "وتعبر هذه المواقف من "ما بعد الحداثة" عن موقف **متشكك بشكل جوهري لجميع المعارف البشرية**، وقد أثرت هذه المواقف على العديد من التخصصات الأكاديمية وميادين النشاط الإنساني (من علم الاجتماع إلى القانون والدراسات الثقافية، من بين الميادين الأخرى). وبالنسبة للكثيرين **تعد ما بعد الحداثة عدمية على نحو خطير**، **فهي تقوض أي معنى للنظام والسيطرة المركزية للتجربة. فلا العالم ولا الذات لهما وحدة متماسكة**".[46]

---

[45] الدكتور عبد الوهاب المسيري، العلمانية، أرشيف إسلام أون لاين.

[46] ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، ص:131.

وبعد[47] أن **كان الإنســان** في العلمانية الأولى هو **ســيد الكون ومركزه**، وكان مرجعية ذاته الفردية، منغلقاً عليها، لا يســتمد معياريةً إلا من ذاته، متجاوزاً الطبيعةَ والمادةَ بقوةِ إرادتِهِ، فهو إنســانٌ فردٌ لا يفكر إلا في مصلحته ولذَّته، كفردٍ، أي إن الإنسان قد أَلَّهَ ذاتَهُ في مواجهة الطبيعةِ وفي مواجهة الآخرين، وأصبح إنساناً إمبريالياً عنصــرياً يحاول اســتعباد الآخرين، ثم ما لبثت التحولات الفكرية في الفكر الغربي أن اكتشــفت أن **الطبيعة أو المادة** هي موضع الحلول، وأنها مرجعية ذاتها، تكتفي بذاتها، **فهي مركز الكون بدلا من الإنســان**، إذ إن لها قوانينها التي يخضع لها الإنسان، ولا يستطيع تجاوزها، فلا بد للإنسان من أن يذعن للطبيعة، أي **تم تفكيك الإنساني ورده إلى الطبيعي المادي**، فأضحت المادة والطبيعة مركز الكون في المصطلح الما بعد حداثي، ثم ما لبثت التحولات الفكرية في فكر ما بعد الحداثة أن اتخذت **الصيرورة والنسبية مركز الحلول والمرجعية النهائية**، فلا مطلقات، ولا ثبات، والتغيير هو الثابت الوحيد، **وتفكك العالم بحيث لم يعد له أي مركز**، عالم لا يوجد فيه قمة أو قاع، أو يمين أو يســار، أو ذكر أو أنثى، وإنما يأخذ شــكلاً مســطحاً تقف فيه جميع الكائنات الإنســانية والطبيعية على نفس الســطح وتُصَــفّى فيه كل الثنائيات، وتنفصل الدوال عن المدلولات فتتراقص بلا جذور، ولا مرجعية ولا أســس، وتصــبح كلمة إنســان دالا بلا مدلول، أو دالا متعدد المدلولات، وهذا هو التفكيك الكامل، وهو أيضــا الانتقال من عالم التحديث والحداثة (الإمبريالية) إلى عصــر ما بعد الحداثة (والنظام العالمي الجديد)، وتم تغييب الإنســاني وتفكيكه وتقويضــه، وتذويبه إما في عالمٍ مركزهُ الطبيعةُ أو في عالمٍ لا مركزَ لهُ. كل هذه التحولات في ظل **صــراع داروني يكون البقاء فيه للأقوى**، اســتمر الحال حتى تم ابتلاع الإنســان والتخلص من فكرة أنه مركزي، وتحويل الإنســان لشــيء مادي في **عالم مركزه: السوق الحرة**!

إذا تركزت لديك هذه التحولات الخطيرة في الفكر الغربي، والتي انعكســت على حياة الإنســان، فإنك لن تجد صعوبة في ربط مشاكل الإنسان، وخوائه الروحي، وشذوذه السلوكي، وفراغه الذي أسقطه في مستنقع اللاأدرية، والعبثية، وبالتالي كان عرضة للأمراض النفسية، وكانت المجتمعات والدول عرضة لاستعمار القوي للضعيف، ونهب الثروات، وإفراز الفقر، وما ينتج عن هذا كله من مشاكل ملأت أرجاء الأرض، ثم يقوم السائل بالســؤال: أين عدل الله؟ لماذا لا يتدخل الإله لينهي الشــر المنتشــر في الأرض! أو لماذا لم يخلقنا الله في الجنة! وهي ولا شك أسئلة غير مشروعة!

---

[47] بتصرف عن الدكتور عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، ص 4-8

العدل الإلهي، والسببية:

بداية لا يُقاس العدل الإلهي على مفهوم العدل كما يفهمه البشر، ولا يُسأل الله تعالى عما يفعل، فليس المقصود من البحث هنا إسقاط فهم البشر للعدل على الله تعالى، ولكن المقصود أنه قد ثبت أن الله تعالى قد بين لنا أنه أقام القسط والعدل في السموات والأرض، وحرم على نفسه الظلم، فهذه "**محاولة**" لفهم نظام الكون وكيف جرى مفهوم القسط والعدل في ثناياه بما يقيم الحجة على المخلوقات بأنهم تساووا في الفرص، والآلات، والأنظمة، والمسئوليات، وتسخير السنن والقوانين والنواميس لهم لتحقيق العدل، وأن من تخلف عن فهم القوانين الناظمة لهذا كله، ووقع ضحية ظلمٍ من أخذ بالأسباب ولكنه استغلها استغلالا خطأ، أو ضحية عدم أخذه بالأسباب، **فإنه يتحمل مسئولية ذلك**، ولا يقال بأن نظام القسط الذي أقامه الله في الدنيا لم يحقق له ما حققه لغيره!

فحجة الله تعالى بالغة، وقائمة، ولا ينفع الإنسان أن يغفل أو يتهاون في دراسة السببية والسنن وأن يأخذ بها!

فقد وجدتُ بالتفكير أن الله تعالى إذ:

1) قدر وخلق الكون والإنسان والحياة والمجتمعات وفقا لسنن كونية، وأخرى مجتمعية، ولأنظمة سببية دقيقة، ثابتة، مضطردة، لا تحابي أحدا،
2) وأرسل رسله بالبينات ليقوم الناس بالقسط، أي إنه أنزل النظام الحكيم الذي يحقق الغاية من الخلق!
3) وزود الناس بآلة العقل والتفكير بالغة التعقيد والدقة والقدرة،
4) وجعل للاجتماع وفقا لغايات معينة قوة تجلب تحقيق غايات لا يستطيعها الفرد بمفرده،
5) وجعل ذلك في مُكْنة الإنسان والمجتمع وأرشده لطرق استثمار ذلك كله ليحقق الغايات!

فإنه قد أقام الحجة على الخلق جميعا، فمن أخذ بأسباب الفلاح من إنسان أو مجتمع ارتقى، ومن أعرض عنها ارتكس، فعلى صعيد الفرد، وجدنا أن الإنسان مزودٌ بقدراتٍ خارقةٍ للفهمِ والإدراكِ، والحركةِ في الدُّنيا، فإن استغلها الاستغلال الصحيح وأخذ بالأسباب حصلت له الـمُسَبَّبَاتُ، ولكن هناك عوائق مجتمعية قد تحول بينه وبين بلوغ المسببات، كأن يكون المجتمع والدولة منحطتين، أو أن يتحكم أولوا القوة بمقدرات الدولة فيمنعون عنها الأفراد أو ما شابه،

لذلك وجدنا أسباب تغيير ونهضة المجتمعات في متناول اليد، وقوانينها الصارمة تجري في كل مجتمع، فلا بد أن يعمل الإنسان أيضا على هذا الصعيد كي يرقى، وينهض ويتمكن من تحقيق ما أوجِدَ فيه من أسباب فردية لم يتمكن منها كفرد أن يحصل على الغايات، لوجود المعوقات، فإذا ما أزيلت تلك المعوقات **بالعمل الجماعي المنظم** وتحمل المسئوليات الجماعية، تحققت الغايات، فالأصل أن يكون نتاج ذلك أن توزع الثروات

توزيعاً صحيحاً، وبالتالي أن يمحي الفقر، لأن الأرض ممتلئة بالثروات بما يكفي أن يغمر البشرية كلها بالخيرات، والأصل أن يكثف الناس البحث العلمي لدراسة الأمراض واكتشاف أدويتها وعلاجها، دون أن تتدخل الأغراض الرأسمالية الجشعة في صرف الأبحاث إلى وجهة زيادة ثراء شركات الأدوية فقط، على حساب علاج الأمراض، وأن يرافق هذه الجهود اضطلاع الدولة بمسؤوليات رعوية تقيم برامج صحية عالية المستوى وتمكن منها الجميع، وهذا من شأنه أن يخلص الملايين من أمراضهم، والأصل أن يقف الناس في وجه من يطغى ويستأثر بالحكم ويقيم الحروب لغايات استعمارية، وهكذا فإن الكثير من أنواع الشر والمآسي هي نتاج مباشر لعمل الإنسان، وفي مُكنته أن يمنعها.

وهكذا، فإن العدل في إيجاد وإنشاء الكون وفقا لقوانين السببية، تمكن الناس جميعا من الارتقاء والانتفاع والعيش بما يحقق لهم التساوي (مع شيء من الاختلاف في التوزيع، فقد يحصل البعض على شطر أكبر من المال مقابل شطر أقل من الأولاد مثلا، والآخرون بالعكس، ولكنهم في النهاية نالوا نصيبهم الكامل من الحصص)، ولكن الناس إذا أعرضوا عن الأخذ بالأسباب، وارتكسوا ولم يتحقق حصولهم على ما به يتساوون في التوزيع، فإنها مسئوليتهم وذنبهم، وستجد التفاوت أينما نظرت، وستتساءل عن حال أقوام استشرت بهم الأوبئة والفقر والضلال، وتقارنه بحال أقوام لم يجدوا من ذلك شيئا، وقد تعجب! ولكنك إن فهمت وتأملت في أن العدل الإلهي المطلق كان قد وفر لهم الأسباب ووفر لهم الآلات، ووفر لهم النظام الصحيح، ووفر لهم كل ما لو أخذوا به لارتقوا ونهضوا وعزوا واغتنوا ورضوا، وأناط بهم التكليف والمسئوليات، فالسببية حققت العدل بشكل دقيق، وحمّلت الإنسان مسئولية أن يرفع عن نفسه ومجتمعه الظلم والاستعمار والتفاوت وجور الأحكام، وما شابه، فإن قصر فعليه أن يتحمل التبعات! لزال عنك التعجب!

ومن التطبيق العملي لهذا الأمر، أننا وجدنا مثلا أن عصر التابعين امتاز بالسكوت على نظام الوراثة في انتقال الحكم بدلا من الشورى، وكان ذلك نتيجة أنهم رأوا الاقتتال والصراع في عصر الصحابة رضي الله عنهم في معركة صفين، ووقعة الجمل، وما صاحبه من دماء، فآثروا عدم التغيير، ومضت سنة الوراثة، وكانت وبالا عظيما على الدولة، فهؤلاء إذ رضوا بهذا فإنهم لم يأخذوا بالأسباب المجتمعية للتغيير وإظهار ثقل المجتمع في رفض الانحراف عن فكرة الشورى، والضغط بقوة الكيان المجتمعي بقيادة العلماء ليمنعوا الانحراف، فلما سكتوا، أو لما لم يلتحقوا بالثورات التي عملت على التغيير لتحقق القوة القادرة على تحصيل المطلوب، مضت فيهم عادة الوراثة زهاء ألف وأربعمائة سنة! فالنظام الإسلامي بين لهم سنن التغيير، وسنن الإنكار، وسنن الشورى، فإذ لم يأخذوا بها حصل ما حصل من فواجع في التاريخ!

التصور الإسلامي لفلسفة الخير والشر:

من الطبيعي أن يكون الأخذ والرد بين الفلاسفة الماديين وبين اللاهوتيين في أوروبا حيال هذه المسألة، لأن نظرتهم للمسألة قاصرة، وتحوي عناصر لاهوتية لا أصل لها، وفي المقابل، فإن الفلاسفة الماديين ينظرون للمسألة نظرة مادية بحتة منفصلة عن فلسفة الوجود، وسوف ترى تفنيدا تاماً لنظرتهم إن شاء الله، وعلينا هنا أن نبرز جوانب تظهر بعض خصائص التصور الإسلامي لفلسفة الخير والشر.

وحين تفكر أرسطو في الصفات التي يتوجب على الذات التي يُعهد إليها تفسير وجود العالم ونشأته وبنيته الشاسعة أن تمتلكها، توصل إلى الصفات التالية: "الثبات، واللامادية، وطلاقة القدرة، وطلاقة العلم، والوحدانية أو عدم القابلية للتجزئة، و**الخير التام**، والوجود الضروري".

إلا إنَّ العقل قد يضفي على الخالق سبحانه صفات خاطئة لا وجود لها، كما فعلت الجن بظنهم أن لن يبعث الله أحداً، وفعل الذين يتقربون إلى الله بعبادة آلهة تكون وسيطا بينهم وبينه، وأيضاً افترض النصارى أنه يستوجب على الله تعالى القدير الرحيم أن يكون (كُلِّيَّ المحبة والقدرة والرحمة والخير)، مما ترتب عليه سؤال الملحدين: هل "يجب" على الإله أن تتجلى هذه المحبة والرحمة والقدرة والخير، بأن يتدخل بقدرته ومحبته فيمنع شقاء البشرية وحروبها وآلامها، بل وأن يقضي على الشر كله في الحياة الدنيا!

فكان التساؤل هذا مبنيا على أهوائهم التي افترضت طريقةً وتصوراتٍ أوجبوا على الخالق أن يتعامل وفقا لها مع المخلوقات، فيختار لهم الأصلحَ، وفقا لفهمهم الذي انبتَّ تماما عن تصور فلسفة الوجود، وانبتَّ أيضاً عن منهج الاستخلاف الرباني الصحيح لعمارة الأرض، ذلك المنهج الضامن لمنع الإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حق، والضامن لإحقاق الحقوق ليقوم الناس بالقسط، والقائم على ابتلاء واختبار الإنسان العاقل في الحياة الدنيا بإعطائه مطلق حرية الإرادة في اختيار معتقداته وأفعاله، وتمكينه من خيار اتباع المنهج الرباني أو الإعراض عنه، مع تحميله المسئولية الكاملة على أفكاره وأفعاله وقراراته، وما ينتج عنها من ظلم لنفسه أو لغيره، ومع المحاسبة الدقيقة على أفكاره وسلوكه وعلاقاته، والثواب والعقاب، وإنصاف المظلوم من الظالم في الدنيا والآخرة.

وواقع الأمر أنهم قد حمّلوا الخالقَ وِزرَ ظلم وطغيان واستبداد الناس بعضهم ببعض، حين انحرف الناس عن منهج الله تعالى، فأساءوا استعمال حرية الإرادة والاختيار وأفسدوا، وزودهم الله تعالى بالمنهج القويم للاستخلاف في الأرض ليمنع الإفساد والظلم فأعرضوا عنه، واستبدلوا به منهجا قائما على رؤية علمانية مادية ميكانيكية فَصَلَت الإنسان عن ذاته، وسحقت كينونته، واستسلم لرغباته الجامحة وشهواته الهائجة، مما أورثه ضنك المعيشة، وشقوة الروح، وخواء الفكر، وأمراض النفس، وحيرة ولا أدرية تسربل بها، ولم يعد يبالي! وانعكس هذا على تصورهم للصالح والفاسد، والخير والشر.

وكان التساؤل هذا مبنيا أيضا على فهمهم الذي لا يتسق مع التصور الصحيح من خلق الإنسان والحياة لاختبار الإنسان أيهم أحسن عملا، في السراء والضراء، وبتسخير الكون لغاية هذا الاختبار، وتنظيم الكون وفقا لنواميس كونية ثابتة لا تتخلف، وتنظيم الخالق حياة البشر وفقا لنواميس إنسانية ومجتمعية سببية أرشدهم إليها يمكنهم استغلالها لمكافحة وعلاج أسباب الشر والفساد الذي ينشأ عن مخالفتهم للتنظيم الرباني الصحيح لعمارة الأرض، والتي تصوب لهم تقدير الخير والشر، فليس كل ما تكرهه شر، ولا كل ما تحبه خير، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ذلك التنظيم الرباني الذي يربط الحياة الدنيا بالآخرة، فيضفي على مفاهيم الصبر على الابتلاء، والتوكل على الله، والأجر ورفع الدرجات رفعةً لفاعلها، ونظرة إيجابية لها تهون معها مصائب الدنيا وتذل معها صعابها.

فهمهم المنبت عن حكمة الابتلاء بالخير والشر، وعن حكمة تدافع الناس واحتياجهم بعضهم لبعض، ورفع بعضهم فوق بعض ضرورةً لعمارة الأرض ولتخفيف ثقل مسئوليات الإنسان عن إشباع حاجاته الأساسية والكمالية عليه، باعتماده على غيره في ذلك الإشباع، ولضمان قدرته على الوصول للسلع والخدمات بصورة يستطيعها ضمن كيان مجتمعي.

ففلسفة الوجود هذه التي يمكن أن نسميها تجاوزا "بالخطة الكونية" لا تتفق أبداً مع جعل الأرض جنة خالية من الشقاء والعنت، وتدافع الناس واحتياجهم بعضهم لبعض، وأسباب الفلاح والنجاح والألم والأمراض التي تذكر بنعم الله، وتدفع الناس لشكره عليها، أو التقرب إليه لشفائها، وفي كلٍّ خير لهم، أو تكافؤهم أضعاف عنتهم في الدنيا وفي الآخرة، وغير ذلك من المفاهيم التي تجعل السؤال الأصلي عن تجليات محبة الله ورحمته وقدرته بالغ الخطأ أصلا!

لقد كتب الله تعالى على نفسه الرحمة، ولكن كثيرا من البشر أعرض عنه واضطروا أنفسهم إلى أن لا يقعوا في موجبات رحمته -سبحانه وتعالى- لشدة ظلمهم لأنفسهم، وأعرضوا عن منهجه الضمين بأن يعيش الناس رغد العيش، فكان إعراضهم سبباً مباشرا لمعيشة ضنكا.

ولعل في الباب التالي تلخيصا لبعض القضايا التي تبين "فلسفة الإسلام" في الابتلاء والخير والشر، ثم سنتناول بشيء من التفصيل إظهار الجوانب العظيمة مما ظاهره الابتلاء في الأبواب التي تلي.

ملخص تنفيذي لأهم القضايا المتعلقة بنظرة الإسلام إلى الابتلاءات والمحن:

الابتلاءات والمحن من حيث المسئولية:

أولا: نوع ناتج عن تقصير الإنسان في معرفة السنن والأخذ بالأسباب والتفاعل مع القدر، تقع مسئوليته على الإنسان، (يمكن تفاديه):

أمثلة: أمراض وراثية يمكن تفاديها بإجراء فحوصات قبل الزواج، سكوت العامة على طغيان الخاصة يوقعهم في العقوبة، العيش في منطقة نشاط بركاني، تنقيب عن ثروات باطنية يفضي لخلل في طبقات الأرض ينتج عنه زلازل، جلطات ناتجة عن إهمال الصحة، سرطان ناتج عن التدخين، تعاطي الأم للكحول خلال الحمل، الحروب، الاستعمار، الفقر الناتج عن الحروب والاستعمار وتوزيع الثروات غير العادل بين الناس، وعدم استغلالهم للسنن المجتمعية التي تكافح الاستعمار وتحسن التصرف في استغلال الثروات وتوزيعها، الأمراض الناتجة عن تلوث البيئة، تدمير الناس للنظام البيئي.

ثانياً: ونوع يصيب الناس بغير علمهم أو خيارهم أو تقصيرهم (القضاء). (لا يمكن تفاديه)

أمثلة: زلزال في منطقة غير معروفة بالنشاط الزلزالي، تسونامي يصعب التنبؤ به، أن يولد الطفل أعمى.

الابتلاءات من حيث الأهداف:

أولا: أهداف إيجابية: (الأصل أن ينظر للابتلاءات كلها نظرة إيجابية، وأجر الصبر على الابتلاء أعظم من كثير من الطاعات)

1. كشف عن معدن الإيمان والصدق، تعجيل عقوبة، تكفير سيئات، رفع درجات، تقريب العبد من ربه، تطهير وتقوية وصقل للنفوس، تمييز للصفوف.
2. تنبيه عن غفلة للرجوع إلى الله (تخويف للمبتلى نفسه أو غيره)، تحذير وعبرة للغير لردهم إلى الله.
3. تذكير بنعم منسية، فالمرض يذكر بنعمة الصحة، فيشكر الله عليها.
4. ضرورات كونية ناتجة عن نظام الوجود (يمكن تفادي بعضها بدراسة السنن، ولا يمكن تفادي بعضها الآخر) (الزلازل، البراكين، الفيضانات، انفجارات المستعرات الأعظمية) ضرورات لصلاحية الأرض للحياة واستمرارها ضمن نظام الوجود.
5. دليل على تحكم الله في الكون، فلم يمارس الله تعالى سلطانه مرة واحدة فقط حين خلق النواميس وأجرى الكون بناء عليها، بل هي من مقتضيات قيوميته سبحانه وتعالى، فيظهر فيها قدرته، ويظهر منها حاجة الكون لخالقه، "ليس في الكون ما يدل على أنه، ككل أو بأجزائه، واجب الوجود، أي: ما يلزم من عدمه محال عقلي، ومن دلائل حقيقة أنه كذلك وجود الشر فيه كنقص معبر عن قصوره،

وفي تعبير الكون عن قصـــوره **دلالة على حاجته إلى واجب الوجود** الذي يرجع وجوده على عدمه، وهو الله سـبحانه، فالشـر بذلك دليل من الأدلة على وجود الله، إذ لا يسـتقيم فهمنا لأصل الوجود دون واجب للوجود في كونٍ ممكن الوجود"[48].

6. وهذا الدليل على تحكم الله يعطي الحياة معنى إيجابيا، إذ إن الحياة من غير الله تكون مادية بحتة، عبثية بحتة، عدمية بحتة (Nihilism) خالية من أي مقاييس تعيّن الخير والشـر، والحسـن والقبح، تصـيب الناس بالتأزم النفسـي، والانكفاء والانطواء للفشـل الذريع في أي محاولة لتفسـير الوجود ومعناه، والحياة والغاية منها، والمقاييس التي سـيبني عليها الإنسـان سـلوكه، لذلك فوجود (الشـر) أو (الابتلاء) من أعظم الأدلة على الحاجة للخالق ومن أعظم الطرق لجعل حياة الإنسـان ذات قيمة بوصل الإنسان بخالقه، وبتعميق هذه الصلة من خلال الابتلاءات.
7. "إذا كان الله غير موجود، فالقيم الأخلاقية الموضـوعية، والخير والشـر غير موجودة، لكن معضـلة الشر تنطلق من إثبات وجود الشر، إذن فالمعايير الأخلاقية الموضوعية، والخير والشر موجودة، إذن: فالله موجود[49]" وإذا اقتضى التفكير وجود أمور على صورة معينة هي الخير، وأنها الأصل في الوجود، فلا بد من معيار متعال على المادة يفرض على الذهن أن يتصـور وجود تمييز بين الخير والشـر، ولا يمكن ذلك في كون مادي بحت كما استنبط الدكتور سامي عامري.
8. مثلا أن يهدم العدو بيتا لمجاهد، أو أن يقتل أسرة بصاروخ، فينظر المؤمن لمصير هذه الأسرة بأن الله اجتباها شـهداء، فانتقلت إلى خير دار وخير جوار، فهو خير لها، ورفع درجات، وإقامة للحجة على المسلمين ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ﴾، إن لم تقوموا بمسـئولية نصـرة الدين والمسـتضـعفين، فهي تحصيل حاصل نصر من الله، فإما أن تنالوا شرف القيام بواجبكم أو يستخلف قوما غيركم يحبهم ويحبونه وينصـرون الله ودينه، وينصـر الله بهم دينه، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ **لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا** فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا **وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ **وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، فمن وثق بنصـر الله وأن لله جنود السـموات والأرض، أقوى من حاملات الطائرات والقنابل النووية، يسخرها لنصرة دينه وأوليائه، تفوق كل ما لديهم من عدد وعدة وعتاد، نظر إلى معايير النصـر والهزيمة بعينٍ غير التي ينظر بها غيره، ولم يحزن، لأن الله معنا، وحين يتأمل قوله تعالى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا **كَتَبَ اللّهُ لَنَا** هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة 51]،

---

[48] صاغ هذا البرهان أبو منصور الماتريدي، مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 67. يراجع كتابنا: (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىْ وُجُوْدِ الْخَالِقِ) فصل: "دليل الإلزام العقلي بين الوجود والعدم" لتفصيل شرح هذا التدليل.

[49] اللاهوتي وليام لين كريغ، مشكلة الشـر، ووجود الله، د. سـامي عامري ص 62 – 64. راجع أيضـا: تاريخ الفلسـفة الغربية، براتراند راسل، الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة، ص 182 تعريف لوك للشر والخير.

أي **إن كل ما يصيبنا** ما كان إلاّ بتقدير الله **لمصلحة المسلمين في ذلك، فهو نفع محض، فليست النهاية أن يموت من يموت تحت ركام بيت مقصوف، أو قنبلة فسفورية، بل إن نهاية دنياهم بشرى لهم بما اصطفاهم الله واختارهم من بين خلقه شهداء، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وذلك كله في ظل قانون ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، شعر بمدى البشرى والفوز العظيم الذي نالهم، ولم ينظر بعين الخوف لما يمتلكه عدوهم من آلات قتل وتدمير، ولم يسأل عن الدائرة، فإن الله تعالى ناصر دينه ومعز المؤمنين، ومذل الكافرين.**

ثانيا: أهداف سلبية (استحقاق، جزاء وفاق للذنوب):

1. عقوبات عاجلة (جراء ذنوب، جراء عدم تفعيل السنن، والسكوت على الظالمين).

ثالثا: أهداف غير معروفة العواقب للإنسان: (يميل الإنسان لتفسير الابتلاءات بناء على ما يصيب من نفع أو ضر متخيل للإنسان، ولا يعلم العواقب الحقيقية على الحقيقة، ولا يربط الابتلاء المعين بنعم أخرى تعوض عنه، فيتخيل أنه ابتلاء في حين أنه نعمة، مثلا بيتهوفن أصيب بالصمم وكان أعظم موسيقي)، مثال: أن يصاب المولود بالعمى، ويعوضه الله نعما أخرى، أو يدخله الجنة بغير حساب، أن يموت في زلزال فيكون شهيداً.

الابتلاءات والمحن والعدل الإلهي:

1) قصور عقل الإنسان عن إدراك الحكم جراء عدم معرفته بالمعلومات الكافية اللازمة لدراسة القضايا المتعلقة، فلا يعلم عواقب الأمور، والمقاييس الصحيحة للحكم، ولا أحوال الآخرة.
2) اتخاذ الإنسان لمقاييس خطأ للنفع والضر، وظنه أن الخير هو ما جلب له منفعة مادية، أو شهوة أو لذة،
3) توزيع عادل للنعم: سلب نعمة البصر مقابل زيادة في نعمة البصيرة، توزيع النعم المختلفة بنسب متفاوتة، لكن المحصلة النهائية هو توزيع عادل للنعم على الخلق.
4) لا بد للإنسان من أين يموت، فأن يقضي الله بموته في زلزال، ويجعل هذا الموت عبرة للغير، ليس بظلم للإنسان الذي يموت في الزلزال.
5) العقوبات على الذنوب، والعقوبات زواجر جوابر وهي موافقة للذنوب لا تتعدى.
6) لا يفسد الشذوذ الذي يحصل في الأفراد صحة النظام الكلي، ويرجع بعضه لمسئوليات قصر فيها الإنسان عن إدراك السنن وتفعيلها، وبعضها من التوزيع المتفاوت للنعم، فيسلط النظر على النعم المفقودة متناسيا النعم الأخرى، أو يسلط النظر على مقارنة إنسان بغيره في نعمة واحدة، دون مقارنة إجمالي النعم الموزعة على كليهما، وبعضها من القضاء الذي ينسجم مع خطة الوجود (الموت حتمي)
7) لا يبحث موضوع الابتلاء ومعضلة الشر، إلا إذا عم النظر إلى الجانب الآخر، وهو الخير ونعم الله تعالى السابغة على المخلوقات، والتنظيم الدقيق للكون وللحياة، فالابتلاء استثناء والشر عَرَضٌ ونشوزٌ، من الأصل الذي يعم، وحالات خاصة تخدم أغراضا خاصة، والأصل هو النظام والخير. (يقول ديفيد بك (David Beck): "لو كان الإلحاد حقا، لما كان علينا أن نتوقع أن يكون الخير هو الرئيس أو الأكثر أصالة من الشر، في الحقيقة، كنا سنتوقع ألا يكون هناك قسما الخير والشر أصلا"[50]

[50] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 59.

المساواة: زاوية خطأ لدراسة العدل:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)﴾ الزخرف

حين ندرس كثيرا من القيم التي تقوم عليها الأسس الفكرية للعلمانية، التي يروج من خلالها لفكرة "المساواة"، فإننا نلحظ ملحظا هاما يسري على تلك "القيم" وهو "ضبابية المصطلح"، فماذا نعني بالمساواة؟ هل هي التطابق؟ (قطعا لا، لاختلاف الهوية والطبيعة بين الرجل والمرأة مثلا)، فتجريد المرأة من هويتها لتطابق الرجل يعني إهمال أهميتها في المجتمع، وجعل الرجل مثالا متفوقا غايتها أن تبلغ شأوه، أم التشابه (التطابق التقريبي)؟ أم التماثل؟ (وهو أقرب معنى للمساواة)، يفترض حكم المساواة وجود فرق بين الأشياء التي تتم مقارنتها. وفقًا لهذا التعريف، فإن فكرة المساواة "الكاملة" أو "المطلقة" متناقضة مع نفسها.[51]

ومن ناحية أخرى، فإننا وجدنا أنه لا بد في الحياة من وجود فروقات تفضي إلى اختلاف الذكر عن الأنثى، اختلاف الخبير عن غير الخبير، اختلاف المهندس عن الطبيب، وهكذا، فهل هذه الفروقات مهمة في الحياة، أم أنه في الأساس لا بد أن يكون الكل سواسية؟

لا يشك عاقل أن من ضرورات الحياة وجود الاختلافات بين الناس، فلأجل تمام حصول الاجتماع المفضي إلى قيام مجتمع سليم، يحتاج المجتمع إلى الصانع والمستهلك، وإلى الطبيب والمدرس، وإلى الذكر والأنثى، وأي محاولة لإزالة هذه الفروقات يؤدي إلى دمار المجتمعات وإلى الثغرات الهائلة التي تفضي إلى فساد الحياة.

ومن المهم إدراك أن بعض هذه الفروقات مترتبة على اختيار البشر، مثل أن يختار الإنسان أن يكون طبيبا، أو مهندسا، أو ألا يعمل، وبالتالي فتفاوت القيمة والمنزلة والعطاء المترتب على ذلك أمر طبيعي، ينتج عنه أن يسد كل منهم مكانا ودورا في الحياة، لكن الله آتاهم أساسا العقل والملكات -في أصل الخلقة- والتي تهيئ لكل منهم أن يختار، ويبلغ، إلا إن بعض الخيارات قد تكون صعبة نتيجة الظلم الاجتماعي في المجتمعات التي لا تقيم موازين العدالة في تمكين الناس من الفرص نفسها، أو الظلم الناشئ عن تطبيق نظام معين برمته، كالنظام الرأسمالي على سبيل المثال وطريقة تركيبة النظام التي تشكلت من أجل ضمان حقوق فئات على حساب فئات أخرى، وهناك فروق لا خيار للبشر فيها، كأن يكون الإنسان ذكرا أو أنثى،

ومن المهم فهم أن كلا من الذكر والأنثى، من الطبيب والمدرس والعامل يسد ثغرة مهمة في المجتمع فله قيمة اجتماعية مهمة، وأن بعض هذه الفروقات ترفع البعض فوق البعض في حالات معينة، وتساويهم في حالات أخرى، فمكانة الأم مثلا لا تضاهيها مكانة! بسبب الجهود المطلوبة للوصول لهذه المنزلة، يمكن تفاوتهم

[51] https://plato.stanford.edu/entries/equality/

في الأجور، فمثلا الطبيب يدرس سبع سنوات طب يصل فيها الليل بالنهار، والذي اختار تخصصا أسهل في الحياة لا يحتاج لمثل هذا المجهود لا يصح أن يساوى بينهما في الأجر، ولكنهما يتساويان في القيمة الإنسانية وفي أساس الاستعدادات على سبيل المثال! وفي تمكين الكل من الفرص نفسها بالتساوي، (بما يشبه الأواني المستطرقة).

إن اتخاذ مسألة المساواة أساسا في البحث خطأ فكري جسيم، لأن "كون المرأة تساوي الرجل، أو الرجل يساوي المرأة ليست بالمسألة ذات البال التي تؤثر في مجرى الحياة، بل المسألة التي يجب أن تُبحث هي الحقوق والواجبات التي للإنسان، فهي متماثلة بين الرجل والمرأة حيثما تقتضي طبيعتهما التماثل، ومن العدل أن تختلف تلك الحقوق والواجبات حين تقتضي طبيعتهما الاختلاف، ومن الظلم أن تتساوى الحقوق والواجبات حين الاختلاف في طبيعتهما، وهذا التباين لا يُبحث من باب المساواة أو عدم المساواة، بل يبحث بوصفه مشكلة ينتج عنها سلوكٌ وعلاقات مجتمعية تقتضي حلا وعلاجا بوصف الإنسان -ذكرا كان أم أنثى- كائنا اجتماعيا متفاوت القوى والاستعدادات بما يؤثر في طبيعة حقوقه وواجباته بناء على ذلك.

فحين تكون الحقوق والواجبات إنسانية تتعلق بالإنسان كإنسان تجد التماثل في الحقوق والواجبات بين الذكر والأنثى في الإسلام، قال تعالى في سورة (النحل 97): ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وكذلك جعل للمرأة كما للرجل الحق في أن تمتلك ما تشاء وأن تنمي أموالها كما تشاء -وفقا لضوابط الشرع المنطبقة على الذكر والأنثى سواء بسواء- قال تعالى في سورة (النساء 32): ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

وحين تكون هذه الحقوق والواجبات متعلقة باختلاف في طبيعة الرجل والمرأة كأنثى لها مكانتها في المجتمع جُعلت هذه الحقوق والواجبات متنوعة، ويتجلى ذلك في باب الشهادات على سبيل المثال، فشهادة الرجل في الرضاع لا تقبل، وتكفي فيه شهادة امرأة واحدة، لأن هذه الأمور في العادة لا يطلع عليها إلا النساء، كالشهادة على البكارة والشهادة على الولادة، وعلى ذلك فجميع الأمور بين الرجل والمرأة تسير وفق ما تقتضيه الحياة لمجتمع صالح في بيئة إسلامية من التماثل أو التنوع أو التفاوت".[52]

وحيث إن للمساواة مفاهيمَ متعددة، فمثلا قد لا يكون من العدل أن تساوي بين ضعيف وقوي في التكاليف المرهقة التي تحتاج لقوة بدنية، فتستفيد بدلا من ذلك من قدرات الضعيف الأخرى، كقدراته الذهنية مثلا، وبالمثل، فلا يجب أن يكون مفهوم المساواة أن تحمل المرأة والرجل على القيام بعين الأعمال، في حين إن حاجة المجتمع ملحة لاضطلاع المرأة بأعمال معينة، والرجل بأعمال أخرى، فتكون النظرة للمساواة

---

[52] الشخصية الإسلامية، تقي الدين النبهاني الطبعة الأولى سنة 1952 ص 76. فصل: المساواة بين المرأة والرجل، بتصرف بسيط.

أعمق وأبعد نظرا من مجرد القيام بنفس الأعباء الجسـدية في العمل، فهو ينقل أثقالا على ظهره من الشـارع للطابق الخامس في مشروع بناء، وهي تفعل الأمر ذاته!

بل تتحقق المساواة بقيامه بواجبات معينة تتناسب مع قدراته وطبيعة خلقته وحاجات المجتمع، وقيامها بواجبات معينة مناسـبة لطبيعة خلقتها وقدراتها وحاجات المجتمع وحاجاتها هي، وحين تتكامل المهام وحسـن القيام بها يتساوون في الثواب والقيمة الاجتماعية، وذلك بالضبط مثل أنه لا يصح أن يكون كل أفراد المجتمع أطباء، فالمجتمع بحاجة للطبيب وللنجار وللمدرس وللوزير، وكذلك بحاجة للذكر وللأنثى!

ويمكن للذكر والأنثى أيضـا أن يعملا نفس الأعمال لحاجة المجتمع للمُدرِّسـة وللطبيبة حاجته للمدرس وللطبيب! لا مانع من أن تعمل المرأة ما يناسب خِلقتها وطبيعتها من الأعمال المباحة!

ثم لنأخذ المسـاواة غير المشـروطة بين فئات المجتمع في الحقوق السـياسـية، فالمجتمع بحاجة لحلول المشاكل، فإذا كان لدينا مشكلة اقتصادية وساوينا بين الناس في رأيهم في حلها، ساوينا بين من امتلك دكتوراة في الاقتصـاد السـياسـي، وبين أي شـخص آخر لم يدرس كتابا في الاقتصـاد في حياته، فهل يا ترى مثل هذه المساواة سينتج عنها الحل الأمثل لمشاكل المجتمع أم أن الغالبية التي لا علاقة لها بالاقتصاد ستفرض حلولا تناسب نظرتها السطحية للمشكلة والتي تتعلق بحلول تتناسب وأهواءها ولا تتناسب مع الصالح العام؟

فالنظام السـياسـي الذي يتجاهل الفروق العلمية والإدراكية لأفراد المجتمع، ويتجاهل القيمة النسـبية لبعض أفراد المجتمع، بل ويفرض نوعا من المسـاواة غير المشـروطة بين أفراد هذا المجتمع سـتفضـي به هذه المساواة إلى كوارث على المجتمع!

لذلك، فالخلاصـة أن القضـية الأسـاس هي: النظام الصـحيح الذي يضـع كل مسـألة في نصـابها لصـلاح الحياة، وسـعادة المجتمع، وأن يسـتوي الكل في قضـايا معينة، ويختلفوا في قضـايا أخرى، وبهذا تفهم قضـية العدل.

"الإرادة الحرة" ومسؤولية الخالق عن "العلل الواضحة" في الخلق.

يصف الفيلسوف الإنجليزي أنتوني فلو موقفه القديم والجديد لمعضلة الشر في كتابه: (هناك إله):

"القضـــية الأخرى التي غيرت رأيي فيها هي حرية الإرادة؛ حرية الإنســـان المطلقة. هذه المســـألة لها ثقلها وأهميتها، لأن مســـألة ما إذا كنا أحرارًا أم لا؟ تكمن في جوهر أغلب الأديان الرئيســـية. في بداياتي في الكتابة المناهضة للأديان، لفتُّ الانتباه إلى تناقض وجود الشر في كونٍ خَلَقَهُ ويَحكمُهُ كيانٌ مطلقُ القدرةِ وكُلِّيُّ المحبة. جاء رد المؤمنين على ذلك التناقض المدرَك المحسوس بادعاء أن الإله يهب الإنسان حرية الإرادة، وأن معظم – إن لم يكن كل– تلك الشـــرور الواضـحة المخزية، ســـببها جميعا **ســـوء اســـتخدام الإنســـان لهذه العطية الخطيرة**، ولكن النتائج النهائية لتحقق ذلك في المجموع، ســـتكون أكثر خيرية مما قد يتاح في انعدام وجود الإرادة الحرة. في الواقع، كنت أول من يسمي ذلك ب "دفاع عن الإرادة الحرة."

وسواء رُمِزَ إليها كمناظرة بين "حرية الإرادة" و"القدر المسبق"، أو في الإطار العلماني بين "حرية الإرادة" و"الحتمية"، فإن ســـؤال ما إذا كان لدينا حرية أم لا؛ أمر جوهري. رددت بمحاولة للجمع بين كلا الاتجاهين، وذلـك من خلال طرح افتراض يعرف حـاليـا بـالتوافقيـة (Compatibilism)، فبينمـا يقول غير التوافقي أن الجبرية التامة غير متوافقة مع حرية الإرادة، يؤكد التوافقي ليس فقط على إمكانية اتســـاقهما؛ بل الجمع بين القول بـأنـه يمكن لشـــخص ما اتخـاذ قرار بحريـة، وإدراك أن هـذا القرار المســـتقبلي معلوم ســـلفـا لجهـة مستقبلية، ولكن أيضا أن القرارات الحرة يمكنها أن تكون حرة وقرارات في آن، حتى ولو كان السبب في حدوثها بالطريقة التي حدثت بها سبب فيزيائي، وحتى ولو كان حدوثها بهذه الطريقة تحتم حدوثها بقانون ما أو بقوانين الطبيعة.

بينما لا زلت أؤمن بقدرة البشـر على الاختيار الحر، لكني توصلت في الأعوام اللاحقة لاسـتحالة الجمع بين الإيمان بكون الخيـارات حرة وكونها نتـاج أســـبـاب فيزيـائيـة في نفس الوقت، بعبـارة أخرى، مبـدأ التوافقيـة لا يعمل. قانون الطبيعة ليس بياناً لحقيقةٍ مجردة عمياء في أن حدثا معينا -كما يحدث- سيعقب بعض الأحداث الأخرى، ولكنه حدوث حدث معين، والذي يســـتلزم فيزيائياً حتمية حدوث مجموعة أخرى من الأحداث، الأمر الذي يجعل من عدم حدوث المجموعة الأخرى من الأحداث "اســـتحالة فيزيائية" وليس هذا الحال إطلاقا في "الاختيار الحر[53]."

"وفي ضـوء ارتدادي عن الاقتناع الكامل بمبدأ التوافقية، فإن أغلب موادي المنشـورة عن الاختيار والإرادة الحرة، في الســياقات الدينية أو العلمانية على حد ســواء، تتطلب المراجعة والتصـحيح. ونظرا إلى أن القضــية هنا تتعلق بالتســاؤل الثاني لمجموعة التســاؤلات الفلســفية الثلاثة لعمانويل كانت (الإله، والحرية، والأزلية)،

---

[53] هناك إله ص 72-73

فإن تحولي في هذا الأمر، وكما كان الحال في تحولي بشأن موضوع الإله؛ تحولٌ جذريٌ"[54]. وقد أجبنا على هذه التساؤلات بوضوح شديد في كتابنا: **إقامة الدولة الإسلامية في ظل قانون السببية والسنن الإلهية والسنن التاريخية**، في أبواب: السببية والحتمية في ظل تدبير الله، والتنبؤ وسؤال حرية إرادة الإنسان، وباب: خطة الوجود: هل الإنسان مسلوب الإرادة؟ أين يقع سؤال حرية الإرادة في عالم سببي حتمي؟ ويجدر التنبيه أيضا إلى ضرورة التفريق بين السنن الكونية والعلاقة السببية الفورية فيها بين السبب والنتيجة، وبين السنن المجتمعية الإنسانية، التي يعترض العلاقة السببية فيها: الإنسان العاقل الحر المريد المسئول عن خياراته.

وملخص ذلك: ما يهمنا هنا هو السؤال الذي ثار في الغرب وملخصه: إن سلوك الأشياء الحتمي نتيجة خضوعها للسببية، ونتيجة خضوعها للقوانين الكونية يسلب عنها حرية الإرادة، وبتعبير آخر **يجعل كتاب القدر مفتوحاً**، فيستطيع المستقرئ للسلوك الحتمي للأشياء حين تفاعلها أن يتنبأ بما سيحدث، فيتنبأ بموعد ولادة الهلال بدقة، ويتنبأ بشيء من الدقة بأحوال الطقس وتقلباته، (بمقدار ما لديه من المعلومات اللازمة للتنبؤ)، والجواب عليه هو أنه صحيح، فكتاب القدر لا يعني "القضاء"، بل يعني الخصائص التي أودعها الله في الأشياء والسنن في المجتمعات، لذلك يمكن أن يستقرئه الإنسان بدقة ويتفاعل معه، وليس في خصائص الأشياء ولا سنن المجتمعات ما يجبر الإنسان -حين تفاعله معها- على سلوك معين يحمله على الخروج عن إرادته الحرة، فهو لديه القدر فاعل وليس بمنفعل في الدائرة التي يسيطر عليها، قادر على التغيير وليس ريشة في مهب الريح ولا سنا في الدولاب،

[54] هناك إله ص 76.

القضاء والقدر:

ثم إن علينا أن نفهم موضوع القضاء والقدر (والذي فصلنا فيه تفصيلا دقيقا بالغا في كتابنا: إقامة الدولة الإسلامية في ظل قانون السببية والسنن الإلهية والسنن التاريخية، في فصل: القضاء والقدر والنصر والرزق والإماتة؛ أين يقع بحث السنن والسببية منها؟ ونقول هنا باختصار غير مخل:

أولا: الإرادة الحرة ليست نظير حرية السلوك أو التصرف، (أي ليس كالحرية الشخصية أو حرية التدين) وحين ترى تعاريف الإرادة الحرة تجدها كما يعرفها قاموس ميريام وبستر: "حرية الإنسان في اتخاذ خيارات لا تحددها أسباب سابقةٌ أو تدخلٌ إلهيٌّ". بمعنى آخر: هي الجواب على سؤال: هل الإنسان مجبر (من قبل الخالق) أم هو مخير! فإذا كان مخيراً فهذا يعني أنه يملك الإرادة الحرة في أن يفعل أو لا يفعل"، أي إن الناس ولدوا أحرارا لا يجوز لأحد أن يستعبدهم لغير خالقهم، ولا تناقض في هذا مع وجود الإرادة والمشيئة والقدرة على القيام بالفعل عندهم، فالإنسان يمتلك إرادة حرة في الدائرة التي يسيطر عليها.

ثانيا: بالنظر في الأفعال إجمالا نرى الإنسان يعيش في دائرتين، دائرة يكون الإنسان فيها مسيراً، لا يملك الاختيار في أفعاله وتصرفاته في ضمنها، ودائرة ثانية يسير فيها الإنسان سيراً اختيارياً لا إكراه فيه ولا جبر، وقد أحاطت النصوص الشرعية هذه الدائرة الثانية بجملة من التكاليف والمعالجات، وتُرك له الخيار للقيام بما أمر به أو عدم القيام به، وعلى أساس اختياره يتم الحساب ويكون الثواب والعقاب، وهذه الدائرة لا علاقة لها بموضوع القضاء والقدر، بل هي دائرة التكليف والمحاسبة.

ثالثا: وأما الدائرة التي تسيطر عليه ويجبر فيها على أفعال لا خيار له فيها، فعلى قسمين: قسم يقتضيه نظام الوجود مباشرة[55]، يخضع الإنسان فيها مباشرة لنظام الوجود ويسير بحسبه سيراً جبرياً، طبق ذلك النظام الذي لا يتخلف، على غير إرادة من الإنسان،

وقسم لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة، وإن كان كل شيء لا يخرج عن نظام الوجود.

فأما ما يقتضيه نظام الوجود: يأتي الإنسان للحياة جبراً عنه، وشكل رأسه، ولون عينيه، وكونه يسير على الأرض لا يطير في الهواء، هذه كلها من القسم الذي يقتضيه نظام الوجود، فالله تعالى خلق الكون وأجرى فيه

---

[55] فالنار تحرق إذا كانت المادة الأخرى فيها قابلية الاحتراق، وإذا لم تكن فيها قابلية الاحتراق لا تحرقها. وبعض الأحماض تذيب بعض العناصر ولا تذيب غيرها. وبعض العناصر تتحد مع عناصر أخرى وتتفاعل معها ولا تتفاعل مع غيرها، وذرتان من الهيدروجين مع ذرة من الأكسجين تنتج ماءاً، ولكن حتى نحصل على الماء الثقيل لا بد من اتحاد ذرتين من الهيدروجين الثقيل مع ذرة من الأكسجين. فهذه الأشياء لم تستطع أن تتصرف في كل شيء ولا أن تنتقل من حالة إلى أية حالة أخرى إلا ضمن وضع قاصر على حالات معينة، ولا تستطيع سواها إلا بإحداث تغيير فيها أو في سواها، أو بعامل آخر، اقتضى نظام الوجود إمكانية أن يحدث مثل هذا التغيير، مثل أن تطير بطائرة فتتخطى الجاذبية، فهي إذن محتاجة، وخاضعة لنظام الوجود جبراً.

قوانين معينة تجعل الكون صالحا للمعيشة، مثل قانون الجاذبية، ومثل أن الجينات تتحكم في جنس المولود ولون عينيه، ولا أثر للعبد ولا علاقة له في ذلك، فالوجود مفطورٌ على السير وفق هذه القوانين.

وهناك قسم لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة، وإن كان خاضعاً لنظام الوجود، مثل أن يسقط جسم من أعلى على شخص دون تحكم منه في ذلك، ولو أطلق شخص رصاصة في الهواء فأصابت شخصا لم يكن يقصد أن يصيبه، فهو قضاء عليهما معا، أو أطلق عليه الرصاصة بإرادة القاتل، فهو قضاء على المقتول لا يستطيع دفعه، والقاتل يحاسب على فعله، ومثل تدهور السيارة، وسقوط طائرة لخطأ لم يكن بالإمكان تلافيه، هذه الأفعال وقعت على الإنسان أو منه على غير إرادة منه، وهي ليست في مقدوره، ولا قِبَلَ له بدفعها، ولا يقتضيها نظام الوجود، فتدخل في الدائرة التي تسيطر عليه.

رابعا: الدائرة التي تسيطر على الإنسان تسمى دائرة القضاء، لأن الله هو الذي قضى الفعل، ولا توجد حرية إرادة للعبد في الفعل أي ليس له اختيار، ولذلك لا يحاسب العبد عليها مهما كان فيها من نفع، أو ضرر، أو حب، أو كراهية بالنسبة للإنسان، أي مهما كان فيها من خير أو شر **حسب تفسير الإنسان لها**، **وإن كان الله وحده هو الذي يعلم الشر والخير في هذه الأفعال**، لأن الإنسان لا أثر له بها ولا يعلم عنها ولا عن كيفية إيجادها ولا يملك دفعها أو جلبها مطلقاً، ولذلك لا يثاب ولا يعاقب عليها. فهذا هو القضاء، ويقال حينئذ أن الفعل وقع قضاء، وعلى الإنسان أن يؤمن بهذا القضاء أنه من الله سبحانه وتعالى.

خامسا: أما القدر: فالخاصيات التي قدرها الله في الأشياء، والسنن المجتمعية التي قدرها في المجتمعات، والسنن الإنسانية التي يتفاعل معها الإنسان في سير حياته، **فالصفات والخصائص** التي في الأشياء تسمى بالقدر، لأن الله تعالى **هو الذي قدر فيها هذه الخاصيات**، وذلك أن الأفعال التي تحصل من الإنسان أو عليه في أي من الدائرتين (المسيطرة عليه أو التي يسيطر عليها) تقع أفعاله على أشياء أو من أشياء من مادة الكون والحياة فيحدث هذا الفعل أثرا، أي يترتب على هذا الفعل أمر ما، فهذه الآثار ليست من خلق الإنسان حين قيامه بالفعل، وإنما هي من الخصائص التي قدرها الله في الأشياء فتتفاعل مع الأفعال على نحو مخصوص حين القيام بالفعل أي يظهر أثر هذه الخواص، كخاصية الإحراق في النار، وخاصية القطع في السكين، وخاصية إنبات النخل من النواة، وخاصية حب البقاء في الكائن الحي.

فقد قدر الله تعالى في الأشياء صفات ثابتة، كصفة اللون والطول والصلابة والسيولة، تظهر هذه الصفات حال الاستقرار، وقَدَّر في الأشياء الخاصِّيات، والتي هي في الأساس صفات ذاتية لازمة في الأشياء، فإذا ما **تفاعلت الصفات مع الأسباب** وتحركت **انبثقت الخاصيات**[56]، مثل قابلية الخشب للاحتراق، وقابلية

---

[56] فمثلا في علم المعادن Metallurgy نرى اعتماد خصائص المعادن properties of materials على الروابط ما بين الذرية، فتجد بعضها غير متبلور amorphous، وبعضها متبلورا crystalline، والأخير تجد أن الذرات فيه تصطف بشكل شَعْرِيٍّ lattice ثلاثي الأبعاد، وتُكرر هذه الأشكالُ الشَّعْرِيَّةُ طريقةَ تكوينها في كل الاتجاهات بنفس الطريقة البلورية الهندسية، وذلك عبر قوى ترابط كيميائية بين تلك البلورات تكرر النسق ذاته، ومن الخصائص المهمة مقياس الحُبيبة size of the grain وهذا يحدد الخصائص الخاصة بذلك المعدن، ومن الخصائص الأخرى تجد مثلا الصلابة

إرواء الماء للعطشان، وقابلية تحول الماء السائل إلى بخار بالتسخين، **فالخاصية هي الانفعال الحاصل في الشيء بسبب فعل وقع عليه**، وباطراد التلازم المؤثر بين هذا الفعل والانفعال الناتج نستنبط وجود علاقة ثابتة بينهما نسميها الخاصية. ويمكن دراستها بدقة بالغة، كما وجدنا سابقا في علم المعادن، وحين يحصل التأثير بين السبب الذي يمتلك طاقة سببية كافية للتفاعل مع الصفات أو الخواص فتنفعل بهذه الطاقة وتتعاون معها الشروط اللازمة، فلا بد أن يحصل التغيير بشكل حتمي ضروري، وإن لم يحصل التغيير فإما أن الطاقة السببية كانت غير كافية، (مثلا درجة الحرارة لم تكن كافية لتحويل خصائص المعدن) أو أن الشروط لم تتوفر كلها، ففي كل هذه العلاقات تجد ضرورة تفاعل الصفات مع الأسباب بشكل دقيق لإنتاج النتيجة، فهذه هي الضرورة والحتمية بالمفهوم الفكري العقلي الفلسفي، والذي يثبت علمياً أيضاً، **وعلى أساسه تقوم العلوم التي تبحث خواص الأشياء**!

سادسا: سخر الله تعالى الأشياء في الكون للإنسان حتى يستفيد منها ويستعمل خواصها في عمارة الأرض، لذلك ينتج عن وجود مادة قابلة للاحتراق، ونار قابلة للإحراق، وأكسجين بكميات كافية من كل منها ينتج عن هذا نار بشكل حتمي، يتفاعل الإنسان مع هذه الصفات والخواص، ويستغلها لقضاء حوائجه، لأنها مسخرة بأمر الله تعالى له، ويخضع الإنسان كما قلنا لقوانين الكون مثل قانون الجاذبية، وينتج الأثر الحتمي لوجوده في نطاقها فورا، فإذا ما قذف حجرا في الهواء بطاقة تتغلب على الجاذبية، لا تلبث تلك الطاقة أن تتفاعل مع الجاذبية فتتحول من طاقة حركة لطاقة وضع تبلغ ذروتها حين تضامر الطاقة الحركية فيرجع الحجر للأرض ثانية متأثراً بقوة الجاذبية (سنة كونية)، قدر، وعليه فالإنسان يخضع للقدر في نواميسه، لا يستطيع تغيير تلك النواميس، وما سخر له منها يستطيع التفاعل معها واستغلالها.

Hardness والهشاشة Brittleness والليونة Ductility، والقوة Strength وهكذا، وبتأثير الحرارة على المعدن تتغير أشكال البلورات وتراتيبها بشكل متناسب مع درجات الحرارة وطريقة التبريد، وبالتالي يستطيع الإنسان الاستفادة من هذه المعادن ومعرفة خصائصها على نحو دقيق! ففي كل مجال **من درجات الحرارة** تجد خصائص المعادن تتشكل بصورة معينة، فإذا انتقلت إلى نطاق **درجات حرارة آخر** بالتسخين أو التبريد تغيرت تلك الخصائص، لكن بشكل متناسب مع درجات الحرارة وطريقة التبريد، فهي خصائص دقيقة الإحكام لا عشوائية!

خطة الوجود: هل الإنسان مسلوب الإرادة؟ أين يقع سؤال حريةِ الإرادةِ في عالمٍ سببيٍ حتميٍ؟

سنَّ اللهُ للناس سنناً (مجتمعية (تاريخية / إنسانية))، وطلب من الناس معرفتها أو اكتشافها، وكان من طبيعة هذه السنن أنها ذات طابع انساني؛ لأنها لا تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، ولا تعطل فيه إرادته وحرية اختياره، وإنما تؤكد أكثر فأكثر على مسؤوليته على الساحة التاريخية والمجتمعية، وزوّدَ الإنسانَ بأدوات المعرفة: الحواس، التي تنقل له صورة الواقع ليفكر فيه ويفسره، وزوّد الإنسان بالدماغ القادر على التفكير، وسخر ما في الأرض للإنسان يستطيع أن يتفاعل مع خواص الأشياء التي قدرها فيها، فتفاعل الإنسان مع غيره لا يتم على شاكلة السنن الكونية بين المواد والقوى والطاقات، بل يظهر أثر حرية الإرادة في صورة القدرة على الاختيار والتفاعل المسؤول، وذلك كي يتسنى للإنسان القيام بواجب الاستخلاف في الأرض.

عدل الإله مطلق القدرة، كلي المحبة/ كلي الرحمة!

تقوم حجة مشكلة الشر على أن "وجود الشر في العالم يتنافى مع أن يكون الرب عليما لأن علمه يقتضي أن يمنع هذا الشر من الوجود، ويتنافى مع أنه قدير، لأن قدرته تقتضي أن يمنع هذا الشر من الوجود، ويتنافى مع أنه رحيم، لأن رحمته تقتضي بمنع هذا الشر من الوجود، ولذلك فإن وجود الشر ينفي وجود هذا الإله الذي لا يمكن أن يفتقد الصفات الثلاث السابقة جملة[57]" "وتقوم حجة مشكلة الشر على مغالطة وهي افتراض أن كمال الله يتعارض مع إرادته، فإرادته مقيدة بكماله، وأن الحكمة تقتضي أن يكون كل مخلوق كامل الصنعة في ذاته، وهو يحصر أبواب الحكمة"[58] في زاوية واحدة (انتفاء الألم، ودوام الملذات) دون التأمل في مزايا الزوايا الأخرى التي أوردناها في الملخص التنفيذي لأهم القضايا المتعلقة بمعضلة الشر، الأمر الذي ينتهي في النهاية بأن على الله أن "يخلق إلها مثله" حتى يثبت له كمال الكمال، وتفترض الحجة أن الشر يتعارض مع الحكمة، ومع القدرة، لكننا بالتأمل وجدنا قصورا وسطحية في حصر الحكمة بمقتضيات هذه النظرة، فمثلا: حين يجتمع الناس على دولة واحدة بنظام يُرسي فيهم الطمأنينة والأمن والاستقرار، ويأتي من ينازع على الحكم ويشق الصف، ويريد فرض نظام يفضي للفساد، فإن قتله (والذي هو في ظاهره شر) إنما هو خيرٌ للمجموع، وعقاب له على ما أراد من الإفساد، حتى وإن حشد معه جماعة تؤيده لمصالح آنية لها، تضر بالمصلحة العامة للمجتمع، فقتلهم جميعا فيه صلاح للمجموع، وموافقٌ للحكمة.

كما أن المعضلة تغفل التأمل في خطة الوجود، وخلق الإنسان حرّ الإرادة المسؤول عن الاستخلاف في الأرض، واختباره في خياراته، الأمر الذي يتعارض مع "**جبره على أن يكون كاملا خاليا من العيوب والآثام والأخطاء**"، وهم بذلك **يجعلون الجبر أفضل من الاختيار**، ويجعلون غاية خلق الإنسان إسعاد الإنسان لا اختباره على محك العبودية لله، ويجعلون إسعاد الإنسان متمثلا باللذات الآنية، والمتع المادية، ويغفلون القيم الإنسانية والخلقية والدينية التي تجعل للحياة رونقا خاصاً، ويغفلون لذة أن **يتقرب الله لعبده بالابتلاء**، فيتضرع العبد إلى ربه، ويقترب من ربه، فيحس بسعادة روحية هائلة بعد أن نأى عن ربه وراء دنيا مادية، ويغفلون لذة مصارعة الشر بأنواعه، والصبر على الوجع تقربا من الله، ورضا بقضائه، وإلا فإن النفس المسرفة في اللذات، الغارقة في المادية **سرعان ما سيصيبها الضجر**، والذي سيعقبه بشكل حتمي أمراض نفسية من كآبة، ولولا اعتراض اللذات بالألم لما كان للذات المعنى الرائع لها الذي يجليها، فيدرك الإنسان عندها حجم النعم التي يرفل فيها دون أن ينتبه إليها.

---

[57] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 22.

[58] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 60 بتصرف

ثم إن السـؤال عن الحكمة من الشـر لا يمكن أن يكون ذا معنى إلا إذا آمن السـائل بقيمة الحياة، وتلمس الحكمة في جوانبها المختلفة، ثم رأى أن الحكمة من الشـر غير متوافقة وغير متلائمة مع نسـيج الحكمة العام الذي يكتنف الحياة، فهذا يعني أن الملحد الذي يطرح قضـية الشـر دليلا على عدم وجود الإله لا يملك إلا أن يرى الحكمة متألقة في جنبات الكون، إلا في نواحي شـذت عن ذلك الإطار في نظره، بحيث يسـتطيع تعدادها، أو تعداد أشـكالها (الحروب والأمراض والمجاعات والفقر...) أما الباقي مما يملأ جنبات الأرض والسـموات، فالمرض خروج عن أصل العافية، أو فساد لعمل عضو بينما باقي أعضاء الجسد بخير وعافية، وهكذا، فالباقي إذن: خير موافق للحكمة، فهو أمام إشـكالين: كيف يمكن لملحد ينكر وجود الإله أن يفسـر كيف لكون عبثي مادي يسير بلا غاية أن يمتلئ بمؤشرات على الحكمة لم ير إلا شذوذات قليلة عنها؟ فالخير هو الأصل، والشر نشاز عن ذلك الأصل، ولكن الكون العدمي العبثي المادي لا يعرف قيمتي الخير والشر أصلاً، فالمادة والطاقة لا تعرفان: الرحمة والعطاء، ولا التنظيم والتدبير، ولا الخير والشـر، ولا الحب والكره، ولا الأخلاق، ولا العقل ولا العاطفة، فإذا لم يكن ثمة إله، فلم ومن أين جاء كل هذا الخير الذي وصـل أن يكون أصـلا قورنت به شـذوذات قليلة في منظور الملحد المادي العبثي! فالشـر لا يعرف لنفسـه وجوداً إلا إذا كان ثمة خير يقارن به، فيكون الشـر غيابا للخير في تلك الجزئيات (بحسـب المنظور المادي البحت)، وقد أدرك الفيلسـوف الوجودي الملحد جون بأول سـارتر مبلغ الإحراج الفكري في مسـألة أصل التمييز الأخلاقي بين الخير والشـر، ولذلك قال: "يجد الوجودي حرجا بالغا في ألا يكون الله موجودا، لأنه بعدم وجوده تنعدم كل إمكانية للعثور على قيم في عالم واضـح، لا يمكن أن يكون هناك خير بدهي، لأنه لا يوجد وعي لا نهائي وكامل من الممكن التفكير فيه، لم يُكتب في أي مكان أن "الخير" موجود، ولا أن على المرء أن يكون صـادقا أو ألا يكذب[59]"، ويوافقه تشـارلز دوكينز بقوله: "إنه من العسير جدا الدفاع عن الأخلاق المطلقة على أسس غير دينية[60]

إننا حين نحس بالألم فإن ذلك إنما لوجود جهاز عصـبي يسـتشـعر الألم وينقله ضـمن شـبكة من ألياف طويلة جدا بوسـائل غاية في التعقيد إلى الدماغ، فلم وجد هذا الجهاز لتحقيق هذا الشـعور؟ وكيف اختلفت الرسـائل العصـبية الناقلة للألم في حدتها بناء على نوع الألم، ونوع التحذير؟ أهي الصـدفة أم العشـوائية أو العبثية؟ أم إن لهذا الجهاز فوائد جمة تجعل الإنسـان حين يشـعر بالألم يلجأ للطبيب ليكتشـف أنه بحاجة لعلاج وإلا ربما تلف أحد أعضـائه وأفضـى به للموت؟ لا يمكن للإنسـان العاقل أن ينشـئ منظومة هندسـية معقدة تحل محل النظام العصـبي الناقل للألم، فالألم من أعظم مزايا تصـميم الجسـد البشـري، ومن أكثره فائدة للإنسـان" [61]

---

[59] Jean-Paul Sartre, Basic Writings 2001 p 32.

[60] Richard Dawkins, The God Delusion, p 232.

[61] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 57-72 بتصرف

انعدام المقاييس المؤسسة للأخلاق وللخير والشر في ظل استبعاد الدين:

أولا: لا يمكن أن تؤسس العلمانية (ولا الديمقراطية ولا الليبرالية) ولا الإلحاد لمقاييس للأخلاق ولا للفضيلة ولا للخير ولا للشر، ففلسفة العلمانية قامت على أساس "مادي، حسي" يفضي لانفضاض "المعرفة العلمانية" عن الغيب، وعمّا وراء الطبيعة، والتركيز على الطبيعة، مملكة المعرفة الإنسانية، ومفاهيم الخير والشر ليست مفاهيم مادية، ولا يقع الحس عليها لقياسها أو إخضاعها للتجربة، وبالتالي "فالضمير الأخلاقي" أو "الإنساني" مفاهيم غير مادية، فكيف ستبحثها العلمانية وتؤسس عليها مرجعية للسلوك لوصفه بالأخلاقي؟

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: "الفلسفة الهيومانية في الغرب، بتأكيدها القيم الأخلاقية المطلقة ومقدرة الإنسان على تجاوز واقعه الطبيعي/ المادي وذاته الطبيعية/ المادية، تعبير عن الإله الخفي وعن **البحث** غير الواعي من قبل الإنسان **المادي عن المقدس**، فمثل هذه القيم، ومثل هذه المقدرة **ليس لهما أساس مادي**"[62]

من هنا، "عند مناقشة السؤال **الأنطولوجي** (الوجودي) للأخلاق وهو السؤال الفلسفي المتعلق بوجود الأخلاق من عدمها، يفر الملاحدة [والماديون] فتراهم يحاولون صرف الموضوع إلى السؤال الإبستمولوجي (نظرية المعرفة) وهو سؤال يتعلق بكيفية التعرف على القيم الأخلاقية، ... فحين نتحدث عن الفلسفة الأخلاقية، ثمة مستويان مهمان للحديث: المستوى الأول: هل للقيم الأخلاقية المطلقة وجود أم لا؟

المستوى الثاني: كيف نتعرف على تلك القيم الأخلاقية إن كان لها وجود؟

فالماديون يبقون السؤال الأول معلقا دون جواب، لأنه يشكل مأزقا حقيقيا ضخما للفلسفة المادية الإلحادية"[63] (وذلك لأنهم ماديون، والأخلاق والضمير، والخير والشر كلها مفاهيم غيبية لا يقع الحس عليها).

ثانيا: في ظل طغيان الليبرالية كأساس معرفي منذ عصر النهضة في أوروبا، حرص المنظرون على عدم وضع مبادئ منطقية أو سلطوية أو ثقافية أو طائفية أو تراثية أو دينية أو غير ذلك توجه التفكير البشري لمعرفة

---

[62] العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة / 189/1،

[63] عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مدخل لفهم الإلحاد الجديد، مركز تكوين، ص 150، ويضرب أمثلة منها محاولة سام هارس في كتابه: "المشهد الأخلاقي" التنظير أن العلم التجريبي يحدد القيم الإنسانية بأنها التي ترتقي بعافية الإنسان، وبما أن العلم قادر على إخبارنا بما يحقق العافية، فهو قادر على تحديد القيم الأخلاقية الحسنة والقبيحة" ويقول ريتشارد دوكنز في كتاب "وهم الإله": "ليست جميع الأحكام المطلقة مستمدة من الدين، ولكن **من الصعب جدا الدفاع عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين**" The God Delusion 232، ويقول دوكنز أيضا: "ما الذي يمنعنا من القول بأن هتلر كان على صواب؟ أعني هذا سؤال صعب فعلا" -http://byfaithonline.com/Richard dawkins-the-oatheist-evangelist، وفي مناظرة بين حمزة تزوريتزيس، والبروفسور لورنس كراوس، في بريطانيا عنوانها الإسلام أو الإلحاد، أيهما أكثر منطقية؟ قال لورنس كراوس مجيبا على سؤال حول سبب كون زنا المحارم خطأ، قال: "لا يظهر لي أنه خطأ" وأكد "أنه لا يرى مشكلة من ممارسة الجنس بين الأخ وأخته".

الخير من الشــر، بدعوى أن هذا ســيحد من قدرة العقل على التفكير، وبالتالي يركزون على "خيرية الإنســان" ذلك المفهوم المستعار من المسيحية، [وهم هنا يقعون في إشكال فلسفي عظيم يقعون فيه في الدور، إذ كيف تعرف أن الإنســان خيّر بدون أن تقيســه بمقاييس الخير والشــر فما يفعله من خير يجعله خيّرا، أم أنها صـك غفران للإنسان يعطيه العلمانيون له يفعل ما يشاء بوصفه خيّرا؟] ومسئولياتهم عن قراراتهم الإنسانية، دون مرجعية إيمان أو دين تحدد لهم أن سلوكياتهم أخلاقية أو غير أخلاقية،

ثالثا: وهناك توجه عواقبي يبدأ فيه المرء بالأهداف لا بالقواعد الأخلاقية، لا بمقياس خير أو شر، ومن ثم يقيســون الســلوك من خلال تحقيقه للأهداف، فالفعل خير أو حســن أو أخلاقي أو صــائب إذا جر نتيجة صــالحة، أو عاقبة حســنة، وهذه العاقبة الحســنة أو الصــالحة من المقياس الغربي هي: النفعية (Utilitarianism) المادية؛ الأســاس الذي بنت عليه الحضارة الغربية مفهوم السعادة، والتي ارتبطت بها فكرة اللذة[64] (Hedonism) الحســية، وفكرة الرفاهية (Welfare) كمقاييس غائية، ينقل برتراند راســل في كتابه تاريخ الفلســفة الغربية عن لوك نظريته الأخلاقية فيقول لوك: "تكون الأشــياء خيراً أو شــراً فقط من حيث ارتباطها باللذة أو الألم، بحيث إننا ندعو "خيرا" ما هو خليق بأن يســبب اللذة أو يزيدها، أو يخفف الألم فينا"، "ما الذي يحرك الرغبة؟ أجيب: الســعادة، والســعادة فقط"، "إن تفضــيل الرذيلة على الفضــيلة هو حكم خاطئ واضح الخطأ"[65]

"والتبرير النفعي البراغماتي للأخلاق يفقد الأخلاق قيمتها... وتقرير أن الأخلاق نســبية يفقدها قيمتها المطلقة"[66]

وحين يُعْرَضُ لنا السلوك نفسه من شخصين جَرَّ على أحدهما نفعا وعلى الآخر ضررا، (فأحدهما ربح في القمار والآخر خسر منه، أو أن الشخص نفسه ربح مرة وخسر مرات؟ أو أنّ قاتلا مأجورا قتل شخصا وقبض ثمنا ماديا مقابل فعله، بل أصلا فوق ذلك، كيف ســتصــف القتل نفســه بأنه خير أو شــر؟ أو أن تاجرا روج

---

[64] الفعل الذي ينتج منفعة للإنســان (الفرد) هو المرغوب فيه، والمنفعة -كما عرفها جيريمي بنثام- هي: "كل لذة أو كل ســبب لإيجاد لذة، إنها القدرة الكافية في غرض معين على إنتاج ربح أو نفع أو امتياز أو لذة أو خير أو ســعادة"، وهكذا تحدد النفعية (Utilitarianism) غاية الإنســان بســعيه إلى الحصــول على الســعادة، وهذه الســعادة تتحقق بكل ما ينفعه، وما ينفع الإنســان هو اللذة، وهذا الرأي هو الذي يشــكل التصــور العملي الغربي للحياة، إلا أنهم يعبرون عنه حديثا بمفهوم الرفاهية (Welfare)، فيقولون: يقوّم الفعل للقبول الأخلاقي أو الرفض ولعده حسـنا أو قبيحا بحسـب ما يحقق من رفاه للإنســان بوصــفه الفردي أو الجمعي، وما القيم والمعايير الموضــوعة إلا لتحقيق ذلك، فالنتيجة واحدة وهي النفعية التي يقررها العقل البشري، ولا دخل للدين أو الإله فيها،

[65] تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند راسل، الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، ص 183-184

[66] عبد الله العجيري، ميليشــيا الإلحاد، مدخل لفهم الإلحاد الجديد، مركز تكوين، ص 149، ونختلف معه في اعتبار الأخلاق قيما مطلقة، إذ إن البحث ليس في أنها مطلقة أو نســبية، إذ إن الفعل لا يحمل قيمة ذاتية فيه، بل يعتبر خيرا باعتبارات خارجية عنه، فقد يكون القتل خيرا أو شــرا بحسب الاعتبارات الخارجية المسلطة عليه، وهنا مربط الفرس.

للمخدرات واكتسب ثروة طائلة، ثم استغل نفوذه في الدولة لتقنين تجارتها مثل القنب الهندي مثلا؟[67]) فعلى أي أساس سنفاضل في اختيار النظام الأخلاقي الذي سيسود المجتمع؟ لا بد أن تصبح مفاضلة أي نظام أخلاقي على آخر مسألة عشوائية لا يمكن الدفاع عنها.

رابعاً: الإنسان كائن اجتماعي، ولا بد أن تضبط علاقاته بالغير على أسس منها تحقيق المصلحة العامة، وفعل الأصوب الذي يرتضيه المجتمع وإن خالف عن رضا الفرد، الأمر الذي يستوجب مقاييس تحدد الخير والشر، والصواب والخطأ، والحسن والقبح، والثواب والعقاب، فليست مقاييس الخير والشر إلا ضرورة لتستقيم حياة البشر، ويصلح اجتماعهم، ولا يمكن للفرد أن يستغني عن هذه المقاييس والمفاهيم في حال الاجتماع، بحجة قدرته على فعل ما يشاء، ولما كان الأمر كذلك، كررنا بالسؤال عن مصدر صحيح يتخذ مقياسا لهذه القضايا الضرورية، ووجدنا عدم قدرة العقل أن يكون المرجع الصحيح لهذه القضايا، فلزم أن تؤخذ من الخالق.

خامساً: يقول اللاهوتي وليام لين كريغ: "إذا كان الله غير موجود، فالقيم الأخلاقية الموضوعية، والخير والشر غير موجودة، لكن معضلة الشر تنطلق من إثبات وجود الشر، إذن فالمعايير الأخلاقية الموضوعية، والخير والشر موجودة، إذن: فالله موجود" ويضيف كريغ: "رغم أن المعاناة تشكك على المستوى السطحي في وجود الله، إلا إنها على مستوى أعمق تثبت وجود الله، إذ إنه في غياب الله لا تمثل المعاناة شيئا قبيحا، إذا آمن الملحد أن المعاناة شيء سيء، أو أنها أمر يجب ألا يكون، فهو بذلك يقدّم أحكاما أخلاقية لا يمكن أن توجد إلا إذا وُجد الله"

وفي مناظرة شهيرة بين الفيلسوف برتراند راسل، والفيلسوف: فردريك كوبلستون، جاء فيها:

راسل: أنا أشعر أن بعض الأشياء جيدة، والأخرى قبيحة، أنا أحب الأشياء الجيدة، التي أعتقد أنها جيدة، وأكره الأشياء التي أعتقد أنها قبيحة، أنا لا أقول: إن هذه الأشياء جيدة لأنها تشارك في الصلاح الإلهي.

كوبلستون: نعم، ولكن ما هو مبررك للتمييز بين الجودة والقبح؟ أو كيف ترى التمييز بينهما؟

راسل: ليس عندي أي تبرير أكثر مما لدي لما أميز بين الأزرق والأصفر، ما هو تبريري للتمييز بين الأزرق والأصفر؟ بإمكاني أن أرى أنهما متخالفين.

كوبلستون: جيد، هذا تبرير ممتاز، وأنا أوافقك، أنت تميز بين الأزرق والأصفر برؤيتك لهما، فبأي ملكة أنت إذن تميز بين الجودة والقبح؟

راسل: بمشاعري"

---

[67] عائلة دوبونت في أميركا من العائلات صاحبة النفوذ الضخم، برزت في صناعة البارود والمتفجرات، وخلال الحرب العالمية الأولى أنتجت 40% من القنابل والمتفجرات المستعملة في الحرب، وتسيطر على تجارة القنب الهندي (الماريجوانا)، والذي تخلصت من الحظر المفروض عليه مقابل تصنيعها للبلوتونيوم المستعمل في القنابل الذرية، والدعم المقدم منها في الحرب العالمية الثانية للحكومة الأمريكية (يشكك البعض في مسألة علاقة العائلة بالماريجوانا)!

استفز الحديث السابق أحد الفلاسفة ليقول: لقد كان كوبلستون مؤدبا للغاية، ولو كنت مكانه لسألت راسل: "تدعو بعض الحضارات إلى أن نحب جيراننا، وتدعو أخرى إلى أن نأكلهم، والاختيار قائم في كل منهما على المشاعر، هل عندك تفضيل لأي منهما؟"

"وقد أدرك الفيلسوف الوجودي الملحد الشرس (جون بول سارتر) مبلغ الإحراج الفكري في مسألة أصل التمييز الأخلاقي بين الخير والشر، ولذلك قال: "يجد الوجودي حرجا بالغا في ألا يكون الله موجودا، لأنه بعدم وجوده تنعدم كل إمكانية للعثور على قيم في عالم واضح، لا يمكن أن يكون هناك خير بدهي لأنه لا يوجد وعي لا نهائي وكامل من الممكن التفكير فيه، لم يُكتب في أي مكان أن "الخير" موجود، ولا أن على المرء أن يكون صادقا أو ألا يكذب"،

ويوافقه ديكنز بقوله "إنه من العسير جدا الدفاع عن الأخلاق المطلقة على أسس غير دينية"[68].

سادساً: "وأما التيار الإلحادي الذي يدعي أن الأخلاق نسبية، ويقولون بأن الذوق الأخلاقي نسبي، فردي، شخصي، وليس لأحد أن يلوم غيره على فعل ما أو عادة ما إذا كان يرضاهما الملوم، فإن مشكلة الشر لا يمكن أن تتأسس على القول بنسبية الأخلاق، إذ الاعتراض على وجود الرب الرحيم، القدير العليم بوجود الشر لا يمكن أن يكون حتى يَثبت وجود الشر الذي لا يختلف في أنه شر، ولكن عندما يكون الشر محل خلاف ذوقي، فإنه بذلك يغدو مجرد رأي وليس حقيقة يُعترض بها على وجود الله"[69]، كما أن الأخلاق النسبية لا يمكن أن تصلح أرضية للتعايش بين الناس في المجتمعات، فلا بد من جهة تحدد الخير والشر، والصواب والخطأ، وأن تفرض رأيها على المجتمع، ولما فشل النظام الغربي في إيجاد جهة تمثل رأي الناس بشكل صحيح، فإن وجود الأخلاق النسبية سيفضي إلى فساد اجتماع الناس، وتنمر قويهم على ضعيفهم بحجة الحرية في التصرف، أو أن يخضعوا لدكتاتورية الدولة التي تفرض عليهم رؤاها، وبالتالي فهذا يثبت فشل نظرية الأخلاق النسبية.

سابعاً: وقد لاحظ الثيولوجي المسيحي "رون رودز" أنه "من المستحيل تفريق الشر والخير من دون وجود نقطة إحالة تكون خيّرة مطلقة" أي الإله.

وأضيف لملاحظته: أيضا من دون مقاييس تؤصل أساسا لما يمكن وصفه بالخير أو بالشر وأن يكون مصدر هذه المقاييس قطعياً لتفضي إلى أخلاق مطلقة بغض النظر عن الإنسان، وزمانه، ومكانه، أو مجتمعه: مبتناها على صحة الأحكام، والعصمة من التناقض والاختلافات والنقص والخلل والعبثية، وللموضوعية المتمثلة في البراءة من التحيز والهوى والميل مع الأهواء والمصالح، فلا تحابي أحدا على أحد، والقدرة على النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يؤثر فيها وما يتأثر فيها والإحاطة بها، بمعرفة النفس الإنسانية وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وتحقيق التوازن في إشباع

---

[68] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 62 – 64

[69] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 64.

حاجات الإنسان العضوية وغرائزه، والتوازن في تحصيل الحقوق الفردية والمصلحة العامة والحق العام، وتحقيق العدل والإنصاف والتيسير ورفع الحرج، فهذه أسس أساسية لا بد أن توجد في المقياس القطعي لإضفاء صفة الخير أو الشر أو تحقيق الصواب والحسن أو القبح في السلوك[70]،

وعبّر روسو عن هذا الواقع ببراعة قائلاً: "Il faudrait des Dieux pour donner des lois aux hommes" أي "أننا نحتاج إلى آلهة لكي نسنّ القوانين للناس"!

وبالتالي لتتأسس على أساسها السلطة التي ستكون مرجعية قانونية للثواب والعقاب، وهذه لا يمكن أن توجد إلا عند الخالق سبحانه، ولا يمكن أن يتوصل إليها بالعقل[71].

ثامناً: بحث المتكلمون المسلمون قديما تحديد موقف الإنسان من الفعل الضابط للسلوك على أساس زاوية الحسن والقبح، ومبتناها على أساس الكمال والجمال، وزاوية الخير والشر، ومبتناها على أساس النظرة العقائدية أو الأخلاقية، أي **تسليط قيم الإنسان على الفعل والشيء لوصفه بالخير والشر**، وزاوية المدح والذم أو الثواب والعقاب، ومبتناها تسليط نتيجة القيام بالفعل والغاية المرجوة من القيام به عليه.

فالحسن والقبح باعتبار ملاءمة طبع الإنسان وميوله الفطرية وأغراضه أو منافرته لها، كقولنا إنقاذ الغريق حسن، واتهام البريء قبيح، وما وافق الغرض وجلب منفعة أو دفع ضرا كان حسنا، وأسماه علماء "أصول الفقه" بالمناسب.

لكن العبرة ليست بمجرد إصدار حكم أي حكم، وإنما لضمان صوابية الحكم ومقدرته على معالجة مشاكل بشرية متعلقة بذلك السلوك علاجا صحيحا، دائميا يصل لكل إنسان في كل زمان ومكان، ولتحقيق قيم مجتمعية وفردية، **فلا يكفي لإصدار الحكم على الفعل أن يشعر الإنسان بفطرته بالنفور منه، أو الميل له،**

الأمر الذي لا يحيط العقل به لكثرة الملابسات الخارجية عنه وتعقيداتها، فليس الأمر نظير الحكم على الشيء بأنه حلو وبالتالي حسن، أو مر وبالتالي فهو قبيح، أو صفة الصدق بأنها حسنة، والغش بأنها تصرف قبيح، إذ إن الصدق في المعركة قبيح، فهو اعتبار خارجي ضابط للتصرف، فالفعل في ذاته خال من مرجحات الحسن والقبح، فالأهواء تجعل بعض العقول تميل للزنى، ولشرب الخمر، فلا يكفي ذلك لجعل الحكم الصادر عن العقل صوابا، فَقَدْ فُقِدَ الميزان والمقياس السليم، والفطرة والميول قد يتأثران بعوامل خارجية وثقافية تجعل فطرة الغربي غير فطرة المسلم، والعقول تتراوح قوة وضعفا، دقة في الفهم وضبابية، فلا يتأتى

---

[70] قال فولتير - كما أوردها ول ديورانت في (قصة الفلسفة): "...لا بد للبلد ليكون صالحا أن يكون له دين. أريد من زوجتي وخياطي ومحامي أن يؤمنوا بالله، **وبذلك يقل غشّهم وسرقاتهم لي**. وإن كان لا وجود لله يجب علينا أن نخترع إلها..." فالخُلق نفسه في الفكر الغربي لازم بمقدار ما يحقق من مصلحة أو منفعة".

[71] راجع كتابنا: (الصندوق الأسود للفكر الغربي) فيه تفصيلات تتعلق بإناطة التشريعات للدولة في النظام الغربي، وإثبات أن هذا أفضى إلى دكتاتورية الأحزاب السياسية، وتسلطها على الإرادة العامة، وسلط الضوء أيضا على الإشكاليات القانونية التي تتعلق بمرجعية الدستور.

للعقل القدرة على الحكم على كل الأفعال في مختلف الظروف والحالات لغياب عوامل غيبية، أو بسبب نظرة جزئية غير شاملة، أو مرجحات يتبين فسادها فيما بعد، أو مما قد لا يتفطن له العقل من فهم مجزوء للواقع، تقلب الحكم إلى نقيض الصواب في عواقبه، فما تراءى له مصلحة أو جالبا لمنفعة اتضح له أن الشرَّ يكمن في أحد زواياه المعتمة، إذ لا علم له بشكل قاطع بمآلات الأفعال ونتائجها، لهذا السبب درجت تشريعات البشر على الانتقال والتقلب من أقصى النقيض إلى نقيضه!

وهذا لا يجرد العقل البشري (المتأثر بالثقافة الدينية، بشرط أن يكون غير مادي) من القدرة على إصدار الأحكام جملة وتفصيلا، مثل حسن العدل والصدق، وقبح الظلم والعدوان، إلا أن العقل لا يستطيع إدراك حسن ولا قبح جملة من الأفعال لا ضرورة ولا بالتفكر والتأمل، ولا أن يجزم بعاقبة أي فعل، أو الشروط التي تكتنفه لتجعله حسنا مطلقا صوابا في ذلك الموقف، أو بنتائجه على الفرد والمجتمع والمصلحة العامة، فلا بد له أن يأخذ ذلك من الشرع لا من العقل، فليس في الفعل مقومات ذاتية تجعل الحكم عليه واضحا لا لبس فيه.

هذا، وإن كان العدل حسنا بحكم العقل، إلا أن تحقيق ما يقيمه أمر وراء قدرة العقل على الحكم فيه، فقد يظن البعض أن العدل يعني مساواة الرجل والمرأة في الميراث، أو في المسئوليات العامة والخاصة، فيتبين قصور تلك النظرة وأنها تكرس الظلم لا العدل في أحيان كثيرة، لأن نظام اجتماع الذكر والأنثى أعقد من أن يتعلق بقضية ميراث أو عمل، بل يتعلق به نظام مسئوليات رعوية، وواجبات، وحقوق، وقدرات واستعدادات متفاوتة، وأحوال مختلفة، مما يجعل تحقيق العدل في كل شأن منها أمرا لا يستطيع العقل الحكم عليه.

ومثل ذلك يقال عن زاوية الخير والشر، إذ أطلق الإنسان على ما يضره أو يكرهه وصف الشر، بغض النظر عن الحسن والقبح، (أي إن الزاوية التي ينظر من خلالها هنا هي زاوية أثر قيمه في وصف الفعل، لا زاوية كمال الفعل أو نقيض كماله)، وبغض النظر عن الصواب والخطأ، وبناء على هذه النظرة يُقْدِمُ على الفعل ويُحْجِمُ عنه، فجاء التصحيح لهذه النظرة بأن الفعل لا يقال إنه خير أو شر حسب الكراهية والحب أو النفع والضر، وإنّما قياس كونه خيراً أو شراً هو مرضاة الله تعالى، أي إن الخير والشر لا يقوّمان بمقوّم الحب والكراهية، أو النفع والضر، (فالخمر والميسر فيهما ضر كبير، وإثم عظيم، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما) وإنما بمقوّم مرضاة الله، فالخير والشر أثران لنظرة قيميّة، وليس لمنافع ومضار حسّيّة ماديّة أو معنويّة، وهذه النظرة القيمية خارجة عن الفعل نفسه، وتتفاوت القيم عند البشر، فالقتل قد يوصف بأنه خير أو شر بما يكتنفه من عوامل خارجية، وبتسليط القيم التي لا تستطيع الحكم بالخير أو الشر إلا أن تكون صحيحة بمرجعيتها الإلهية، لتحكم حكما صحيحا على الفعل بأنه خير أو شر، وبالتالي فلا بد لها من مصدر معصوم عن الخطأ والأهواء والتحيز...الخ،

إذن: ليس للأفعال قيمة ذاتية توصف على أساسها بأنها خير أو شر، وإنما وصف الخير والشر يأتي باعتبارات وملابسات خارجية عن الفعل، (أي من النظام، والذي بدوره لا بد أن يضمن صحة معالجاته لتحقق صواب الوصف بالخير أو الشر بالصورة التي فصلنا فيها عن طبيعة المقاييس في النقطة الرابعة أعلاه، والتي لا تتمثل إلا بنظام إلهي المصدر) بغض النظر عن النفع والضر، الحب والكره. فالقتل قد يكون خيرا وقد يكون شرا، فقتل العدو المعتدي خير وقتل النفس بغير حق شر، والمرجعية في هذا كله إلى الدين، لا للعقل، لأن العقل عرضة للتفاوت والاختلاف والتناقض، إذ قياسات العقل للحسن والقبح تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، بل تتفاوت وتختلف بالعصور على تعاقبها، فإذا ترك قياس القبح والحسن للعقل كان الشيء قبيحا عند فئة من الناس، وحسنا عند آخرين، بل قد يكون الشيء الواحد حسنا في عصر، قبيحا في عصر آخر، مع أن وصف الفعل بالقبح أو الحسن يجب أن يكون ساريا على جميع بني الإنسان في جميع العصور، ولذلك كان لا بد من أن يكون بيان كون الفعل حسنا أو قبيحا آتيا من قوة وراء العقل، وهو الله سبحانه، وعليه فإن قياسات الإنسان للخير والشر، وللحسن والقبح قياسات متفاوتة ومتناقضة لصدورها عن عقل قاصر، وشعور متفاوت غير ثابت، فلا يصح إذن أن يترك قياس الخير والشر، والحسن والقبح للإنسان، لأنه يجعلها مختلفة من عصر إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى،[72]. والاعتبارات الخارجية التي تكتنف الفعل تجعل الزوايا التي يجب مراعاتها عند الحكم بالحسن أو القبح، بالخير أو الشر كثيرة قد لا يحيط العقل بأكثرها، أو بأثرها المستقبلي على الفاعل، أو على المجتمع، فتظهر له منفعة آنية تنقلب ضررا بعد حين أو العكس، أو تجلب نفعا على شخص وضررا على المجتمع، أو العكس، فيصدر حكما ثم يتبين له نقص ذلك الحكم لاعتبارات أخرى لم يحسب لها حسابا، فيعيد النظر فيها وهكذا.

تاسعاً: لذلك فالقيم هي التي يوصف من خلالها الفعل بالخيريَّة أو الشَّرِّيَّة، وهذه القيم هي عين قولنا: الشرع هو من يحكم بالخير أو الشر، أما القيم البشرية، فإن جعلها أساسا للحكم بالخير أو الشر **هو دور، وهو باطل**، لأنها هي نفسها بحاجة لتوصف بالخير أو الشر، يعني لو فرضنا أن القيم الرأسمالية هي التي ستسلط على الفعل لوصفه بالخير أو الشر، وهذه القيم نتاج العقل، وقد اتفقنا على أن العقل لا يستطيع الحكم على الفعل بالخير أو الشر إلا بتسليط قيم خارجية، فهذه القيم الخارجية إن أتت من العقل نفسه فهي بحاجة لما يصفها بالخير أو الشر أو يجعلها صالحة لوصف الفعل بالخير أو الشر، وهذا دور والدور باطل ومستحيل! فوجب أن يؤخذ الحكم بالخير أو الشر من الشرع لا من العقل!

---

[72] نقض الفكر الغربي الرأسمالي مبدأ وحضارة وثقافة، من إصدارات حزب التحرير صفر 1443 هـ، أيلول 2021 م. ص 26 -33.

حوار خطير في فيلم المعادل equalizer 2 غاية في الأهمية!

يكتشف الممثل المبدع "دينزل واشنطن" أن رفيقه القديم في المهنة "ديفيد" هو من قتل صديقتهما المحققة "سوزان" في بلجيكا، كيف تحول "ديفيد" من رجل مهمات خاصة يفترض فيها أنها تقتل الأعداء والمجرمين إلى قاتل أجير؟

لقد بدأ الأمر حين أنهوا خدمات "ديفيد"، فبدأ يعمل لحسابه الخاص! قبل ذلك كانت تأتيه أسماء من عليه تصفيتهم من "الأعداء"، لكن من يحدد أن هذا عدوٌ أو صديقٌ؟ خَيِّرٌ أم شِرّيرٌ؟ هل يستحق القتل أم الحياة؟

كان مستخدمهم الأول (الحكومة) هو من يحدد لهم ذلك!

والآن حين أصبح "ديفيد" يعمل لحسابه، أي أصبح مرتزقا، كان عليه أن يعيد تعريف من هو العدو، من هو السيء؟ من هو الذي يستحق الموت؟

كان عليه أن يعيد "جرد" مبادئه وقيمه، والمرجعية التي على أساسها سيحدد الخير من الشر! إن كان يهمه أصلا مرجعية معينة، أو إن كان يؤمن بشيء اسمه الخير، وآخر اسمه الشر!

اكتشف فجأة أن هذه تعريفات زائفة، فلا يوجد شيء اسمه عدو أو "سيء" أو "شرير"، بحيث إن صاحب تلك الأوصاف يستحق لأجل هذه الأوصاف القتل! بل يوجد شيء اسمه "سيء الحظ"، وقع عليه الاختيار ليموت،

كان الاختيار يقع في السابق من قبل "الحكومة"، والآن يقوم من يستعمله بأجرة بتحديد من يقع عليه الاختيار!

ثم أضاف "ديفيد": لا تعطني مواعظ عن تأنيب الضمير، ولا عن الإثم، لأنه لا يوجد شيء اسمه إثم ولا تأنيب ضمير! بل لا يوجد "ضمير."

هذا الحوار يستفز الأعماق للتفكير بالقضية التي يجليها، خصوصا إذا ما قُرِنَ بترويج كثير من الأفلام الأمريكية لفكرة الرجل الخارق أو البطل الهمام، مثل "السوبرمان"، و"المنتقمون" وغيرهم، ذلك البطل الذي يحل مشاكل المجتمع بنفسه، فهو القاضي والجلاد في الوقت نفسه، هو الخصم والحكم والمنفذ للحكم في نفس الوقت، والمرجعية هي ما يراه هو من خير وشر، ويحدد الشرير ويعاقبه فورا دون محاكمة ولا دفاع، وهذه الفكرة في أغلب افلام "هوليوود" تجعل العدالة الناجزة هي الخلاص من الشر، وحتى في الأفلام التي يحكم بها القضاء أحكاما لا توافق هوى الضحية يقوم بتصفية المجرم على أدراج المحكمة!

عودا على بدء، في الحوار أعلاه، نطرح السؤالَ الهامَّ التالي:

كيف سنعرف الخير من الشر؟ من سيحدد القيم والمرجعيات الفكرية لتحديدهما؟ من سيحدد أن هذا إثم، أو انتبه للسؤال الأخطر التالي: هل هناك "إثم"؟ هل هناك "خير وشر"؟

الاثم مخالفة لقواعد معينة، سواء أكانت أعرافا مجتمعية، أو تشريعات دينية، أو تشريعات قانونية، أو قواعد معينة تواضع عليها الناس!

فإذا ما كان الدافع لحركة الناس في الحياة هي "الحرية"، أي الانعتاق من المرجعيات سواء تلك التي مصدرها الأعراف المجتمعية، أو التشريعات الدينية، أو القوانين التي وضعها "الغير"، ممن سيحدد للإنسان أن هذا خير، وهذا شر، هذا إثم لا يجوز اقترافه، بل ستُعاقَب على فعله!

فيقفز الداعي للحرية ليقول: عقلي هو من سيحدد لي الخير من الشر، والصواب من الخطأ، أنا إنسان عاقل مفكر، حر، فرد أبحث عن تحقيق ذاتي، دون " أعرافٍ مجتمعية"!

لكنك أيها العاقل المفكر لا تعيش في غابة، ولا في جزيرة معزولة، بل تعيش وسط أناس، تختلط بهم، فتحتاج علاقاتك الدائمية معهم لتنظيم، وتقنين وتشريعات واتفاق على ما يجوز وما لا يجوز، فأنت ترى إباحة الإباحية، والعري التام في الشوارع (كما في أوروبا)، وغيرك يريد منعها تماما، تضاربت النظرة ولا بد من حل!

بعض الأمور شخصية في المنزل، ولكن معظم الأمور من الحياة العامة التي ستختلط بالغير ويجب أن يتحدد الموقف! هل سنسمح بالتصرف الفلاني وماذا سنفعل مع من يخالفه من عقوبات!

وهذا الحل بالضرورة سيقيد حرية كل من يعيش في ذلك المجتمع بما تواضع عليه المجتمع، وسيعاقبونه لو قرر ممارسة "حريته" بما يفضي للخروج على ما اتفقوا عليه!

ولا بد أن يكون في مواد كثيرة من هذه التشريعات ما لا يوافق رأي هذا الشخص أو ذاك، وبالتالي فقد يتفقوا على بعض الأمور، ولكنهم سيختلفون على أكثرها، وسيضطرون للتنازل عن "حرياتهم" وأفكارهم لصالح ما تواضع عليه المجتمع! إذن، لا يمكن وجود شيء اسمه حرية في الواقع نهائيا!

مصطلح الحرية يتناقض تماما مع عيش البشر مجتمعين وحاجتهم لذلك الاجتماع، حتى في القضايا التي تواضع عليها المجتمع ووافقت أهواءك، فأنت لست حرا لأنك تمارسها لأن "الغير (القانون)" سمح لك بممارستها، ولو تغيرت نظرة "الغير (السلطة)" لها لاضطررت لتغيير موقفك للنقيض!

كل شيء مباح إذا غاب الدين:

إذن، فلا يوجد سلطة للعلمانية للتأسيس للأخلاقية، أو لل "قيمية" وخصوصا لأخلاقيات أو مرجعيات الأمر والنهي، أو للقيم التي سيقوم المجتمع على تحقيقها (إضافة للقيمة المادية النفعية)،

في رائعته الأدبية "الإخوة كارامازوف" قام الروائي الروسي الكبير دوستويفسكي بالتعرض لمواضيع فلسفية وجودية وطرح علاقتها مع الخالق والإرادة الحرة والأخلاق. وهي عمل درامي روحي تتصارع فيه رؤى أخلاقية مختلفة بما يخص الإيمان والشك والعقل، وروسيا المعاصرة لفترة الرواية.

أبطال الرواية هم الأب فيودور كارامازوف؛ رجل بلا وازع أخلاقي ولا مبادئ، وأولاده الثلاثة الذين يمثل كل منهم نموذجاً لما كان شائعاً في المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر؛ فالصغير رجل تقي، والثاني مفكر مادي يبحث عن معرفةِ إشكالية ماذا يترتب على "عدم وجود الخالق"، **وإذا كان كل شيء سيصبح مباحا ومسموحا به في هذه الحالة**، وأكبرهم رجل متهور تتصارع فيه الرذيلة والفضيلة بقوة، وهذا الأخير تتجسد فيه الشخصية الروسية بحسب المؤلف.

ما هي المرجعية التي ستؤسس للخير والشر؟ للأخلاق والمقاييس التي ستضبط السلوك الإنساني في حياته اليومية (فيما هو أكثر من مجرد الالتزام أو عقوبة مخالفة قوانين الدولة)!

وما يهمنا أيضا هو أثر تغييب أثر الإيمان بالله والحساب في الآخرة على أفعال الإنسان في الدنيا، **وعلى أي أساس** سيقوم إنسان ما **بوضع قوانين ملزمة لإنسان آخر** تحدد له الخير والشر كمقاييس لدفعه للقيام بأفعال معينة أو الانتهاء عن غيرها، كيف ستسد العلمانية هذه الفجوة الهائلة المؤثرة في السلوك البشري والعلاقات المجتمعية بشكل كبير! وهذا عين ما نظَّرت له "الليبرالية" حين حاربت "نظريا" مبدأ أن تفرض الدولة تشريعاتها على الأفراد، وفشلت فشلا ذريعا لأن الناس لا بد أن يعيشوا في مجتمعات، لا على الأشجار في الأدغال!

هل عالمنا أفضل العوالم الممكنة؟ وهل هذا دليل على عجز الإله؟

بل إن "براتراند راسل" يقول في كتابه: "لماذا أنا لست مسيحياً" في الصفحة العاشرة: "إنه من المدهش أنه عندما ننظر إلى حجة التصميم هذه، نجد أن الناس بإمكانهم أن يؤمنوا أن هذا العالم، بكل الأشياء التي فيه، بكل عيوبه، ينبغي أن يكون العالم الأفضل الذي أمكن لكائن كلي القدرة والعلم أن ينشئه في ملايين السنين، أنا لا أستطيع في الحقيقة أن أؤمن بذلك"[73] إذن، فراسل يعتبر أن وجود الشر يتناقض مع دليل التصميم الذكي الحكيم، باعتبار أن هذا العالم ليس أفضل العوالم الممكنة، أي إنه ليس الجنة! أو بمعنى: أليس بإمكان الله فعل أفضل مما فعل، فيخلق عالما أقرب إلى الجنة، يخلو من الشقاء والأمراض والحروب وضنك العيش؟

فهذه المدرسة في التفكير[74] اتخذت ما ظنته شذوذات أو عيوبا في الكون دليلا على عدم وجود الخالق، ومدرسة أخرى اعتبرت رتابة النظام في الكون دليلا على عدم وجود الإله وأن الارتقاء والنشوء إنما يتم بالانتقاء الطبيعي.

ولكن النظر في نظام الكون وأنه غير فاسد يدل على وحدانية الخالق، والنظر في النظام دليل على المنظم، والنظر في الشذوذات والحوادث التي تجري تبعا لسيطرة الإله على حوادث الكون دليل على وجود الإله، وعلى أنه لم يخلق الكون ونواميسه ويتركها تعمل دون سيطرة وتدخل منه، أي إنه لم يمارس سلطانه مرة واحدة فقط حين خلق الكون والنواميس، بل سلطانه مستمر، فحين يُخرق الناموس، أو حين يجري على أكثر من صورة[75]، فإن هذا يدل على الخالق أيضا، أو **لحكمة بالغة تصب في تنظيم الكون**، فعلى سبيل المثال، تنفجر نسبة معينة من النجوم انفجارات مستعرة أعظمية، لكن النظر المستنير إلى هذه الظاهرة يجد أنها ليست بشذوذات، بل ضرورة للخلق ولتشكيل النظم المجرية والنجمية الجديدة، فتجد النظام "يحكم الذرات المتناثرة الناجمة من الجيل السابق من المستعرات المتفجرة الوقت، لتتجمع في أنظمة شمسية من الجيل اللاحق من النجوم، وليضمن توزع وتكرار الانفجارات النجمية باعتدال، فلا يشتد فيغرق أسطح الكواكب بحميم الأشعة القاتلة مراراً، ولا يقل لدرجة تمنع صنع كفاية من الذرات الثقيلة في المستعرات الأعظمية

---

[73] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 41

[74] استفدنا بعض الأفكار في هذا الباب من محاضرة: ما الحكمة في البلاء؟" - تفسير الشعراوي للآيات من 78 إلى 79 من سورة النساء

[75] وقد رأينا أن الله تعالى أحدث اختلافا في بعض الأنظمة الحيوية لفتا للنظر أنها لا تسير سيراً آلياً ذاتياً ميكانيكياً بلا تدبير أو تدخل منه، فمثلا وجدنا فرس البحر والكائنات التي تنتمي إلى نفس فصيلته مثل الأسماك الأنبوبية وتنين البحر المورق كائنات غير عادية للغاية، فيحمل الذكور الأجنة في كيس يشبه نوعاً ما كيس الكنغر، ويلدون بدلا من الأنثى، ورأينا بعض النباتات تحمل العضو المذكر والمؤنث معا، وبعض الكائنات تتكاثر بالانقسام (التكاثر اللاجنسي، في الكائنات وحيدة الخلية)، ووجدنا بعض الحيوانات جرابية (كالكنغر والكوالا، تكمل حمل وليدها بعد ولادته في الجراب)، وبعضها ثدييا، وبعضها يبيض، وهكذا، وهذا كله وفقاً للسببية، ولكن قدر الله أشكالا متعددة تجري وفقاً لها حتى لا يظن ظان أن الله تعالى خلق الكون ووضعه -كالقطار- على سكة، وكل شيء ينتج تلقائيا وحتميا وآلياً بنفس الصورة دون تدخل من الخالق سبحانه وتعالى.

لتتجمع على سطح الكواكب المتكونة حديثا" [76] فالانفجار ظاهرةُ حدث يموت فيه نجم، وينفجر، لكن التأمل في هذه الظاهرة يراها سببا ضروريا لتوزيع الذرات الثقيلة في مناطق كونية احتاجت لها، فالنجم ماتَ ليُحْيِيَ.

وتجد البراكين تُنفِّس الضغط الهائل والحرارة من باطن الأرض، وتمد القشرة الأرضية بمعادن ضرورية، ولها فوائد أخرى، وتجد الزلازل تخلص باطن الأرض من الطاقة الموجودة فيه، إذ إن للغازات المحبوسة في باطن الأرض تأثير كبير في إحداث اهتزازات عنيفة في قشرة الأرض أو انفجارات بركانية، وهذه الغازات تنكمش أحيانا وتتمدد أحيانا أخرى، فتحدث موجة من المد تخترق طبقات الصخور في قشرة الأرض، في اتجاه أفقي أو رأسي، ينتج عنها الهزة الأرضية، وتتشكل نتيجة لحركات طبقات الأرض الجبال، وفي دراسة في جامعة هارفرد في العام 2008، قدر الفلكيون أن كتلة الأرض تقع **في حالة حدية لكوكبٍ قابلٍ لاستقبالِ الحياةِ**، وأنه لو كانت كتلة أو حجم الأرض أصغر، فإن الصفائح البنائية tectonics plates التي تشكلها الطبقات الصخرية للأرض (تتحرك لتنشأ عنها اليابسة)، هذه الحركات كانت لتكون مستحيلة لو كانت الأرض على غير حجمها الحالي، وقد قارنوا الأرض بالزهرة التي يعادل حجمها 85 بالمائة من حجم الأرض، فوجدوا أنه لا أثر لهذه النشاطات الصفائحية البنائية على سطحه، لذا اعتبر حجم الأرض ومساحة سطحها، وكتلتها، والتناسب بين ذلك كله مثاليا لاستقبال الحياة عليها"[77] فالزلازل والبراكين ضرورية لجعل الأرض صالحة للحياة!

لكن الشذوذ عن الانتظام يظهر على صعيد جزيئات لا على صعيد النظام العام، فلا يفسد الشذوذ الفردي صحة الانتظام، فيولد طفل بستة أصابع، ويكون بعض الناس عقيما، أو أعمى، أو أصم، فقسم من هؤلاء جراء أمراض وراثية كان بالإمكان تفاديها بدراسة الجينات قبل الزواج، وقسم ناتج عن سوء تصرف الأم خلال الحمل كتعاطي الخمر، وقسم مقدّر من قبل الله تعالى لا علاقة له بالقسمين السابقين، ولا يُسأل الله عن حكمته في توزيع النعم على الخلائق، فيمنع أحدهم نعمة البصر مقابل أن يسبغ عليه نعماً أخرى لا حد لها تعوضه، كنعمة الذاكرة والبصيرة، وما مثال بيتهوفن الأصم الذي كان علامة فارقة في دنيا الموسيقى ببعيد، أو أن يعوضه عن فقدان بصره دخول الجنة بغير حساب، بينما هو يحاسب غيره، ومِنْ حِكَمِهِ في هذا أن يلفت نظر عموم الناس إلى هذه النعم التي يرونها في أنفسهم أو في غيرهم، فمن ذهب إلى المستشفى تذكر نعم الله عليه التي يرفل فيها دون أن يتنبه لها، أو أن يخوف الله الناسَ بالحوادث كالزلازل فيرجعوا إليه، ويتضرعوا له، فيكون رجعوهم إليه عاصما لهم من عذاب الآخرة بغفلتهم عنه، أو يعذب العامة بعمل الخاصة، حين سكت العامة عن إفساد الخاصة في المجتمعات، ذلك الإفساد الذي أنتج شرورا لا حصر لها

---

[76] قدر الطبيعة، قوانين الحياة تفصح عن وجود الغاية في الكون. د. مايكل دينتون، ترجمة د. موسى إدريس وآخرين، مركز براهين، ص 49 - 51

[77] However، a 2008 study by the Harvard-Smithsonian Center for Astrophysics suggests that the dividing line may be higher. Earth may in fact lie on the lower boundary of habitability، since if it were any smaller، plate tectonics would be impossible. Venus، which has 85 percent Earth's mass، shows no signs of tectonic activity. http://en.wikipedia.org/wiki/Planetary_habitability

من سـوء توزيع الثروة، والحروب والطغيان والاسـتبداد، فاسـتحق العامة العقاب بسكوتهم وعدم اسـتعمالهم للسـنن المجتمعية للتغيير كي يعيشـوا حياة أفضـل، وفي هذا كله إقامة للحجة على الخلائق لا لحاجة الله تعالى أن يعلم من يصبر ومن يكفر، بل هكذا تكون الحياة جميلة لها معنى، بخيرها وشرها.

قال الإمام الغزالي في كتاب (الإملاء على إشـكالات الإحياء): "ليس في الإمكان أبدع من صـورة هذا العالم، ولا أحسـن ترتيبا، ولا أكمل صـنعا"، ولا يفهم من كلام الغزالي أنه ليس في إمكان الله أن يخلق أفضـل من هذا، لكنه يقصـد أن كمال الصـنعة ظاهر معجز مبهر، قال الإمام ابن حزم في الدرة فيما يجب اعتقاده ص 311: "ومن قال: إنه ليس عند الله عز وجل أصلح مما عمِل بنا؛ لأنه لو كان عنده أصلح مما فعل بنا، ولم يعطنا إياه لكان بخيلا محابيا، فهو كافر من وجهين:

أحدهما: أنه عجّزَ ربه، تعالى، فجعله عاجزا مطبوعا، لا يقدر إلا على ما في قوته أن يأتي به فقط، وهذه صفة منقوص البنية، متناهي القوة، ذي طبيعة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

والوجه الآخر: تكذيبه القرآن فيما أوردناه، ومع ذلك فهو مكابر لا يشـك ذو مسـكة عقل في أنه تعالى كان قادرا على أن يخلقنا ملائكة أو أنبياء كلنا، أو في الجنة كما خلق آدم عليه السلام، ولا يكلفنا شيئا، أو لا يخلق من يدري أنه يكفر به، أو يعصيه، أو أن يميتهما قبل البلوغ كما أمات سائر الصبيان".

"وحيث إن النزاع ليس حول تحقيق عالمنا المخلوق للغاية من خلقه، دار اختبار وممر للآخرة، وإنما حول إمكان خلق عالم أفضـل من عالمنا، فالمعترضـون من الملاحدة هنا يتحدثون عن عالم اللذة الذي يحقق للإنسان المتعة دون منغص من شـر أو ألم، بعيدا عن غائية الخلق ضمن هدفي الابتلاء والجزاء، إننا نقول إن الله سـبحانه قادر على خلق عالم لا يعتوره أي نقص بالمعنى الإلحادي، وقادر على إزالة جميع أسـباب الألم، وتحقيق غاية الإمتاع للإنسـان، وأن الله تعالى **خلق مثل هذا العالم فعلا**، حقيقة لا افتراضـا، **وهو الجنة**، لكن هذه الجنة هي **جنة الجزاء**، وليسـت محلا لقبول غاية الخلق المتمثلة في اختبار العباد، فدعوى سـقوط حقيقة وجود الإله لأن هذا العالم ليس أفضل العوالم التي من الممكن لإله قادر وحكيم أن يخلقها قائمة على تصور أولي باطل، وهي ساقطة،

على أنـه لا يلزم من كون الله كاملا أن يخلق عـالمـا كاملا، إذ إن **دواعي الخلق عـديـدة ومتنوعـة**، وليس يفترض أن تؤول كلها إلى أن يكون المخلوق مثاليا"[78]، **والنظر المسـتنير يظهر أنه مثالي في مناسـبته للغاية التي خلق من أجلها**، كما سنظهر في كل الأبواب القادمة، والتي تجلي بصورة لا ريب فيها أن العالم مثالي في مناسبته للغاية التي خلق من أجلها، فيسقط الاعتراض جملة وتفصيلاً.

---

[78] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 44-45.

إتقان الصنعة، الدقة اللامتناهية في نظام الكون والحياة:

على أن المتأمل في خلق الله ونواميس الكون يجد الدقة المتناهية وإحكام الصنعة في كل شيء في الكون، من الذرة إلى المجرة، ويجد النواميس التي تضبط سير هذا كله، لا يمكن أن ينازع في دقة قوانينه المبهرة، لقد توقفت كيمياء الكون، وعمليات نشوء واستمرار وتطوير الهياكل الفيزيائية الفلكية astrophysical structures، التي يتشكل منها الكون، من نجوم ومجرات، وعناقيد، وعناقيد فائقة، وتوقفت عمليات تخليق العناصر التي تتم في أعماق النجوم عبر الاندماج النووي، وتوقفت العمليات التي أفضت إلى كون صديق للحياة، يدعم نشوءها واستمرارها واستقرارها، على نظام معقد من التعيير المنضبط الدقيق المحكم لمقادير القوى والمجالات والطاقات، ولأشكالها، مما يعني أنها قوانين مصممة مسبقا لضمان نشوء الكون والحياة واستمرارهما واستقرارهما من خلال اختيار أنواعها، (الجاذبية، والكهرومغناطيسية والقوة النووية القوية والضعيفة)، ولطريقة عملها (مثل نطاق تأثير كل منها، وشدتها النسبية)، وللأدوار التي تلعبها في تنظيم أنظمة المواد المعقدة، وعلى تفاعلها السببي الذي توقف على اختيار خصائص معينة محددة في الجسيمات أمدتها بهوية معجزة، من كتل وشحنات وعزم مغزلي، معيرة بدقة بالغة، وجعلتها تخضع لها، وتسير وفقا لها، وتتميز بها!

كان لا بد من تعييرٍ منضبط دقيق محكم للمعايير، (المحددات، المعالم، المتغيرات الوسيطة) الكونية cosmological parameters، والثوابت الفيزيائية الأساسية fundamental constants، ولشدة القوى النسبية، التي تصف القوانين الفيزيائية والتي تحدد خصائص كوننا ضمن نطاقٍ من القيم الدقيقة المعينة، وفي إطَارٍ ضَيّقٍ من التَّبَاينِ المسموح به في قيمِ وعلاقاتِ القوى والحقولِ والثوابتِ والخصائصِ والعملياتِ الفيزيائيةِ للمادةِ والطاقةِ، بحيث يكون الخروج عن إطار ذلك الضبط والتعيير المنضبط الدقيق المحكم، أو الخروج من نطاق ذلك التباين المسموح به مؤذنا باستحالة نشوء واستمرار الكون، أو استحالة نشوء واستمرار الحياة.

ولقد توقف نشوء الكون واستقراره واستمراره أيضا على تعيير منضبط دقيق محكم وعلى صعد متعددة للشروط الابتدائية المسبقة بالغة الدقة، غير العشوائية، والمختارة بعناية، التي صاحبت نشأة الكون وترتب عليها إمكانية نشوء هذه الحياة التي نراها في الكون، من إنتروبية منخفضة جدا، و انفتاق منتظم للرتق الذي حوى المادة والطاقة، ومن توسع منتظم للكون، ومن كمية محددة محسوبة بدقة للمادة والطاقة، ومن كثافة طاقة الكون العالمية التي كانت قريبة جدا من القيمة الحرجة، فمنعت التوسع غير المنتظم أو الانكماش للكون البدائي، ومن سعة نسبية لتقلبات الكثافة في بدايات الكون.

بل لقد احتاج نشـــوء واســـتقرار واســـتمرار الكون ليس فقط إلى هذا كله، لقد احتاج فوق ذلك إلى التناسب المحكم بين هذه كلها، فلو اختل أحدها لما كان لتوليف وضبط الآخر من منفعة، والضبط هذا لا يتم بشكل آلي ذاتي لمجرد وجود المادة بعضها مع بعض، إذ إنه ثبت أن نطاق تفاعل تلك القوى والثوابت والمجالات والكتل والشحنات وخصـائص المادة السـببي المتبادل محدود جدا، بحيث إن أي خروج عليه كفيل بانهيار المادة، وأيضـا فإنها علاقات تداخلية تحتاج لتضـبط نسـبة كل قوة مع الأخرى، (مثلا القوة النووية القوية والكهرومغناطيسـية)، وكل كتلة مع الأخرى، (مثلا كتلة البروتون مع كتلة النيوترون)، وكل شحنة مع الأخرى، (شحنة البروتون مع شحنة الإلكترون)، والقوى مع الشحنات والكتل، وكل قوة مع خصـــائص معينة في المادة مهيئة للتفاعل مع تلك القوة بشـــكل معين، وهكذا، فهو تنظيم على مســـتوى أوسع من مجرد اجتماع نوعين من القوى أو نوعين من الكتل أو نوعين من الشحنات فينضبطا، بل لا بد أن يتم على مستوى المادة والطاقة على مستوى الكون كله،

بل ويتوقف نجاح ســير ســلاســل من العمليات المختلفة المعقدة المتنوعة، أو معدلات إنتاجها على ضبط قوة معينة أو على أن تتصرف تلك القوة بصورة معينة،

بل احتاج فوق ذلك إلى تغيير سرعة توسع الكون، كي تجتمع الجسيمات فتشكل الذرات، وإلى تباين الكثافة، كي تتمكن الجاذبية من إنشـــاء الهياكل الكونية والعناقيد المجَرّيَّة، احتاج الأمر وجود كل هذا وغيره الكثير في نفس الوقت وبنفس النسب الخارقة المعجزة كي يكون كون، ولا تكون فوضى!

وأن أيا من هذه المقادير المضـــبوطة بعناية لو اختلف، أو تخلف عن موقعه وعمله وقيمته لما نشـــأ الكون ولا الحياة ولا الإنسـان العاقل الذي يتفكر في الربط الذكي بين كل هذا التعيير، ويتفكر في اسـتحالة أن يكون نتاج عمليات عشـوائية غير عاقلة، وبالتالي فهو تنظيم ومخطط مسبق، ومفروض على المادة من خارجها، أي من الخالق سبحانه وتعالى.

ووضـوح صـورة أن هذا يشـكل نظاما مصـمما تصـميما محكما حكيما غائيا سـببيا، والربط الذكي بين هذا كله و**أن يكون صـنع الله الذي أتقن كل شـيء** ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ 88 النمل. **احتاج ذلك كله إلى الخالق العظيم[79]!**

أما على صـعيد الحياة، فقد احتوت الخلايا الحية والكائنات الحية على مخطط يمتلك شـيفرة كيميائية، تحوي المخطط والمعلومات الدلالية التي تحركه باتجاه إقامة أنظمة معقدة، وباتجاه أن يمتلك قدرة على التكاثر الذاتي والاســتمرار، وما فيها من قدرة على قراءته وتحليله وترجمته، وتخزينه وحمايته، وتحويله إلى أنظمة (الجين مثلا وصـفة لتصـنيع البروتينات)، أو أوامر أو صـفات (لون العيون مثلا) يحتاجها الكائن الحي، وفوق ذلك لماذا هذا التشـــفير بالذات (خيار من ضـــمن خيارات تحتاج لمرجح، وخيار ذكي ضـــامن لحصـــول

---

[79] الملخص التنفيذي لكتابنا: (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىْ وُجُوْدِ الْخَالِقِ).

النتائج وفقا لمخطط غائي من بين خيارات أخرى كان بالإمكان أن تنتكس بالحياة وتنهيها، وفوق ذلك أن هذه التعليمات والأوامر فعالة فقط في بيئة قادرة على تأويل المعنى بالشيفرة الوراثية"، ثم إن سلب الخلية الحية اليوم من مكونات رئيسية فيها، مثل البروتينات أو الأحماض النووية أو الأنزيمات مثلا، يعطل وظائفها، أو يفسدها ويحدث خللا فيها، فوجود بعضها حتمي لاستمرار حياة الخلية، تتوقف عليه الحياة واستمرارها، وبالتالي فهذا دليل أيضا على أنها، أو جُلُّها يجب أن توجد دُفْعَةً واحِدَةً وفي آنٍ واحدٍ لتقوم بتأديةِ وظائِفِها. وهذه الوظائف تدل على الغائية، وهذا الاجتماع بالشكل المعقد يدل على التصميم الذكي الحكيم المسبق للخلق، واحتاجت لحد أدنى من الجزيئات التي تتركب منها الخلية الحية، في أدنى كائن حي فما فوقه، سواء من الجينات، أو من البروتينات، أو الأنزيمات أو باقي الجزيئات التي تشكل البنية الأساسية للخلية الحية، واحتاجت لطرق ارتباط صحيحة بأشكال هندسية بالغة الدقة ثلاثية الأبعاد، فكانت الحياة معجزة خارقة تظهر كمال ودقة الصنعة وإحكامها، ومهما حاول البشر أن يخترعوا آلات إبصار أو تصوير فإنها لن تضاهي العين البشرية في دقتها، وإذا نظرت إلى الأجهزة التي تشكل تركيب الكائن الحي، تجد التنظيم الكياني للأنظمة المختلفة (السمع والإبصار والأعصاب) وتجد التكامل التكويني بين الأنظمة المختلفة التي تنتج كائنات بالغة التعقيد والدقة، وقد وصف العلماء الكائنات الحية كنظم غاية في التعقيد، على مستويات وطبقات متعددة حيث تعتمد الخصائص المميزة لها على "تنظيم الكيان" أكثر من اعتمادها على "تركيب الكائن"، فارتباط الكل بأجزائه في عالم الحياة، لا يقتصر على التكامل الكمي بينهما، بل يشمل أيضا ما ينتج عن ذلك من سيطرة الكل على أجزائه، وقيام الأجزاء بالتفاعلات المخصوصة بحيث تفضي لحصول التكامل، وبحيث يكون الترابط بين الأجزاء المشكّلة للأنظمة المختلفة شرطا لعمل النظام الكلي الكياني، ومثال هذا الكائن الحي نفسه كالإنسان والبقرة والبعوضة بما فيها كلها من أنظمة كلية وصفات كيانية وتحكم مركزي في الأنظمة. فهذا دليل قاطع على التصميم الذكي الحكيم المسبق، ويستحيل أن ينتج عن الانتقاء الطبيعي.

فهذه كلها تدل على طلاقة قدرة الخالق وإحكامه لصنعته، والله تعالى أرشدنا إلى التفكير العقلي في أن الكون غير فاسد النظام دليلا على وحدانية الإله سبحانه وتعالى، وقد حاول بعض المتفذلكين الإتيان ببعض التصاميم للبحث في قصورها أو خطأ التصميم، وفشلوا في تلك المحاولات كلها، كتساؤلهم عن سبب وجود أجنحة للبطريق وهو لا يطير، فتبين أنها ضرورة لتحقيق مهارته في السباحة، فكان سؤالهم دليلا على شديد قصور نظرهم وعلمهم، وتساؤلهم عن الزائدة الدودية في جسم الإنسان[80]، وعن "إصبع الباندا الزائدة التي لا قيمة لها، على أساس أنها عظم ناتئ لا وظيفة له، وكانت المفاجأة في دراسة علمية يابانية نشرت في مجلة

[80] يستنتج الباحثون أن الزائدة الدودية **مصممة** لحماية البكتيريا الجيدة في الأمعاء. بهذه الطريقة، عندما تتأثر القناة الهضمية بنوبة إسهال أو أي مرض آخر ينظف الأمعاء، يمكن للبكتيريا الجيدة الموجودة في الزائدة الدودية إعادة ملء الجهاز الهضمي والحفاظ على صحتك.

Appendix May Actually Have a Purpose, WebMd.

الطبيعة سنة 1999 بعد تصوير يد الباندا بالرنين المغناطيسي والكشف عن أمور تشريحية لم تكن معروفة خلصت تلك الدراسة إلى أن إصبع الباندا هو "واحد من أعظم أنظمة التحكم الخارقة" في عالم الثدييات"[81] وغير ذلك من الأسئلة.[82]

إن الخطأ في دوران الأفلاك (مثلا) يفضي لاصطدامها أو فساد نظامها، ولكن النظام غير فاسد، فثبت أنه يستحيل أن يعزب عن الله تعالى مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، كما يترتب عليه أن القوانين الكونية التي يسير الكون وفقها -في حال الخطأ والفساد- قد تتخلف أو تخطئ أحيانا وهذا سيترتب عليه دمار أو فساد نظام الكون، وقد تبين للإنسان أن الكون بالغ التنظيم من خلال استقراءٍ تجلي ذلك عبر دراسة ملايين الظواهر والقوانين والثوابت والحقول وخصائص المادة والطاقة وانتظام ذلك كله وفقا لقوانين بالغة الدقة من الذرة إلى المجرة، حتى بلغ الأمر ببعض علماء الفيزياء لوصف الكون بأنه مكتوب بلغة الرياضيات المتقدمة جداً [83].

---

[81] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 61.

[82] التي تتبع بعضها الدكتور إياد قنيبي في حلقة خاصة من بحثه: سلسلة رحلة اليقين، في سلسلة "رحلة اليقين" للدكتور إياد قنيبي - الحلقة 29 بعنوان "أحرجتك". وتفصيل ذلك من جهة علوم الحياة وعلوم وظائف الأعضاء يعلم دقتها أهل الاختصاص، وليست موضوع بحثنا هذا.

[83] مثل جاليليو جاليلي، وعالم الفلك الإنجليزي جيمس جينز James Jeans، وباول ديراك Paul A. M. Dirac الذي أكمل عمل هايزنبرج وشرودنجر بوضع صياغة ثالثة لنظرية الكوانتم، حيث صرح أن "الإله هو عالم رياضيات على درجة عالية من التنظيم، وقد استعمل رياضيات متقدمة جداً في بنائه للكون".

دليل الحكمة والإتقان

أما على صعيد الكون، فإن قوام **دليل الحكمة والإتقان** الدالّ على أن الله تعالى **حكيم ومتقن لصنعته، (أي إنه لا يخطئ)**، من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونية، بالمنهج العقلي في التفكير، ندرك بداهة في كل واحدة منها أنه كان من الممكن عقلاً؛ أن تَتَّخِذَ هذه الأشـياء صـورة وصـفة وحالة غير ما هي عليه الآن، فهنالك احتمالات كثيرة لا حصر لها في مجال الممكنات، لا يرى العقل مانعاً من أن تتحول هذه الأشياء الكونية إلى واحد منها.

أ- فالعقل لا يمنع من أن تتخذ هذه الأشياء صورة غير الصورة التي هي عليها، وشكلاً غير الشكل الذي هي عليه، أو حداً غير حدها الواقع كمًّا وكيفاً؛ فتكون أكبر مما هي عليه أو أصـغر، أو مركبة غير التركيب الذي هي عليه، أو في حيز من الكون وزمان من الدهر غير حيزها وزمانها، أو أن تكون لها صفات وقوى غير صـفاتها وقواها، أو حركات ومدارات وسـرعات مغايرة لما هي عليه، كل هذا وأمثاله من الاحتمالات التي لا حصـر لها، مما يجوّزه العقل بداهة، ويعتبره من الممكنات العقلية، التي لو كان تركيب الكون على وفقها؛ لم يكن في ذلك منافاة لأصل عقلي.

ب- ومن جهة أخرى؛ حيث إن كل شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه؛ فإن عقولنا لا بد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك **فلا بد له من مخصص قد خصَّصه باحتمالٍ موافقٍ للحكمة والإبداع والإتقان**؛ من جملة احتمالات كثيرة (العين والبصـر، الأذن والسـمع، الخلية الحية وما يجري فيها من عمليات حيوية معجزة، الدماغ وقدراته الهائلة، الكون ونظامه المتقن)، كل هذه أمثلة تبين ضـرورة أن يكون هذا الخلق من صـنع حكيم خبير عليم، **ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح**؛ أو القول بأن: **موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريق التصادف، وكلاهما مستحيل عقلاً**.

وأما أنه موافق للحكمة، فإن نشـوء واسـتمرار واسـتقرار الكون والحياة يتوقف عليه، وإن القوانين التي تسـير الكون بالغة الدقة والتجانس بعضـها مع بعض، من الذرة إلى المجرة[84]، وإن تكامل تكوين المخلوقات

[84] يقول باول ديفيز: "إن علامة القوة في القانون أنه يذهب إلى ما وراء البعد الإيماني في وصف أي ظاهرة أو طريقة شرحها، ويقوم بربطها مع غيرها من الظواهر، وعلى سبيل المثال، فإن قانون نيوتن عن الجاذبية يمدنا بحساب دقيق لحركة الكواكب، كما يشرح لنا ظاهرة المد في المحيط، وشكل الأرض، والحركة التي يجب أن تسير عليها السـفن الفضـائية، وكثير غيرها، ونظرية الكهرومغناطيسـية لماكسـويل ذهبت بدورها بعيدا عن مجرد وصف الظاهرة الكهربية أو الظاهرة المغناطيسية، حيث شرحت لنا أمواج الضوء، وتنبأت بوجود أمواج الراديو، وهكذا تقوم القوانين الأساسية والحقيقية **ببناء روابط عميقة بين العمليات الفيزيائية المختلفة**، وتاريخ العلم يكشـف لنا أنه بمجرد قبول قانون جديد يبدأ البحث عما يترتب على هذا القانون، ويخضع القانون نفسه للاختبار من خلال مشاهدات، وإنه من المعتاد أن يؤدي ذلك إلى اكتشاف الجديد وغير المتوقع والظواهر الهامة، وكل ذلك يقودني إلى الاعتقاد بأننا نكتشف من خلال العلم المُرَشَّد جيدا الاضطرارات الحقيقية والروابط الفعلية، وأننا **نقرأ** الاضطرارات

وأجهزتها ووظائفها يوافق الحكمة والدقة والإتقان الشـــديد، وإن الإنســـان إذا ما أفســـد النظام البيئي على سبيل المثال، فإنه يرى تبعات ذلك التغيير الكارثية، مما يدل على موافقة الحكمة والإتقان.

والعقلاء في هذا الوجود لا يصح منهم قبول التزام المستحيلات بينما هم يرون أن قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلف أبداً، ومن هذه القوانين رفض الترجيح بلا مرجِّح، ورفض احتمال المصـــادفة في نظام هذا الكون البديع.

ت- وأيضـــا يُحيل العقل أن يكون هذا النظام الحكيم البديع في الكون نتاج العشـــوائية أو المصـــادفة المســتحيلة، ويفرض العقل أيضـــا نســـبة هذا النظام الحكيم إلى حكمة مُخَصِّـــصٍ حكيمٍ قد خصَّصَ هذا الممكن في احتماله الموافق للحكمة!

ولا يصح القول بالمصـادفة في تفسـير قيام هذه الظواهر الطبيعية والقوانين الخارقة الصـارمة في الكون، ذاك النظام الذي لا يتخلف، ولو كان بالإمكان قيامه عن طريق المصـــادفة، لما اســـتطاع العقل تفســـير هذه المصادفة التي لم تتعدد ولم تتخلف في المسألة الواحدة التي تعلق البحث فيها لتقنينها ودراستها، فلو كان الأمر مصـادفة لأمكن أن يتخلف القانون أو يتصـرف في كل مكان بطريقة مغايرة للأخرى، أمّا أنه حقيقةً ينتظم ولا يتخلف، فإن هذا ينفي المصـــادفة، إذ يســـتحيل عقلاً تكرارها في كل مرة، ويفرض العقلُ وجود التصـــميم الحكيم المسبق، أي وجود الخالق!

فليس أســـوأ من تفســـير الظواهر الخارقة بالمصـادفة، إلا الإيمان بمُصـادفةِ أنَّ المصـادفةَ تكررت، ولم تتعدد أنواعها، ولم تتخلف ولا مرة عن إنتاج عين القانون الدقيق وســـريانه بنفس الطريقة! وإذا ما كان موضوع البحث الإثبات أو النفي فإن المحتمل لا يصلح للاستدلال به على أي منهما، إذ يكون ضربا من الخيال، وحتى العالم في المختبر لا يسـتطيع تفسـير الظاهرة المبحوثة إذا ما أمكن حصـولها مصـادفة، فلا بد لديه من العلاقة الســببية حتى يتمكن من تفســـير الظواهر، فالمصـــادفة لا تصـــلح تعليلا لا في العلم التجريبي ولا في الفلسـفة، هذا، والحديث هنا ليس عن نفي مصـادفةٍ في أمر عارض، كأن تصـادف شـخصـا في مكان على غير موعد، بل إن الكون منظمٌ في جريانه وفقا لقوانين كونية بالغة الدقة يســـري التعبير الدقيق في مفاصـــله، بأرقام بالغة الدقة، فلا يمكن أن يكون اجتماع كل تلك الخوارق التي اعتمد عليها تنظيم الكون على المصادفة!

ث- وحين اســـتقر أنا شـــواهد الكون ونظامه، ودرســـناها أيضـــا بالمنهج العقلي الوصـــفي الاســتدلالي وتبين لنا أنها مو افقة للعناية والحكمة والإتقان، حتى إننا اسـتطعنا في نواميسـها الكونية اســـتنباط قو انين ناظمة لها عَلِمنا أنها لا تتخلف أبداً، وفي أنظمة الحياة وجدنا تصـــميما مذهلا للكائنات الحية قـامت فيه الأجهزة بـالتكامل التكويني والتنظيم الكيـاني وفقـا لأدق نظام، وفي تهيئة

الحقيقية والروابط هذه في الطبيعة **ولا نضـعها** أو نكتبها فيها" باول ديفيز، الاقتراب من الله بحث في أصـل الكون وكيف بدأ، The Mind of God ترجمة منير شريف ص 101-103.

الأرض للحياة وجدنا عناية تامة بكل التفاصيل، وتسخيرا كاملا لتضمن معيشة الإنسان المستقرة، وفي نواميسها الإنسانية تجلت في أدق نظام يضمن صلاح الاجتماع والعيش، فإننا نتوصل من ذلك كله إلى أن الذي نظم الكون والحياة والكائنات وفقا لهذه النواميس يوصف بالحكمة والإتقان والعناية، فإذا ما حَزَبَ علينا أمْرٌ لم نستطع الحكم بالعقل أنه موافق للحكمة أو العناية لقصور العقل ومحدوديته، وجب أن يسلم العقل بحكمة الرب فيه، جريا على عدم تخلف الحكمة والعناية والإتقان فيما يمكن للعقل أن يحكم فيه.

الفقر والغنى، والصحة والمرض، وخطة الوجود:

بقي أن ننظر في خطة الوجود بالنسبة للإنسان، ووجود الفقر والغنى، والصحة والمرض، والعقم والإنجاب، والموت والحياة، والجوع والشبع، والسعادة والشقاء، وتسلط الأقوياء على الضعفاء، وينقسم النظر إليها إلى نوعين من البحث:

أولا: نوع ناتج عن تقصير الإنسان في تفعيل النواميس المجتمعية، والأخذ بالأسباب، أو سوء تسخيرها واستعمالها، فتصيب الإنسان نتيجتها السيئة، كالحروب والاستعمار والفقر والمجاعات وإفساد النظام البيئي وغيره، فمسئوليته عن نتائج هذا التقصير وسوء الاستعمال يرجع عليه، ولا بد من الإشارة إلى العلاقة بين الاستعمار ونهب خيرات الشعوب وتسليط حكام عملاء للغرب على رقاب الناس (في أفريقيا مثلا) وبين المجاعات والفقر، على الرغم من أن أفريقيا من أغنى وأخصب قارات الأرض.

ثانيا: ونوع ثان: هو المصائب التي تصيب الناس بغير عملهم، وبغير قدرتهم على دفعها، بقضاء الله تعالى، وقد يملكون القدرة على علاج بعضها (كبعض الأمراض)، فإن الإنسان لا يملك قدرة استيعاب كل حكمة في الكون، والنظر العقلي في عواقبها ومآلاتها، إذ تتوقف استطاعة العقل على إصدار الأحكام على العدل والظلم والخير والشر وعلى الحكمة في النوازل عموما على فهم طبيعة الأفعال، والمصالح، والعواقب، والحسن والقبح، والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، وعلى أدوات ومعلومات وقدرات ليست متاحة له، (كمعرفة عواقب الفعل أو الواقع المستقبلية، هل سيكون خيراً له أم شراً عليه؟ هل هو خير عاجل في الدنيا، وشر آجل في الآخرة؟ أو العكس؟ هل تكمن المصلحة التي حكم من خلالها بحصول الظلم أو العدل في النفع المادي، أم في تحقيق منافع غير مادية؟ فهذه مغاليق لا يستطيع العقل فكها)، أو إن بعض القضايا التي تلزم لإنشاء الأحكام متاحة بشكل جزئي للعقل، لكنه لا يكفي لإصدار الأحكام (كفهم طبيعة الواقع)، أضف إلى ذلك أن **القضايا التي تتوقف عليها صحة الحكم بالعدل أو بالظلم متشعبة**، أو معلومة بصورة نسبية أو غير كاملة للعقل، مما سيؤثر قطعا على أحكامه فلربما يجعل الإنسانُ العدل ظلماً، أو ينصرف عن فعل فيه صلاحه إلى نقيضه للأسباب السابق ذكرها، من هنا فلا مجال للعقل للإحاطة بشئون الدنيا (لماذا هذا مريض، والآخر سليم، ولماذا حصل لي هذا...الخ)، ولا بشؤون الآخرة ولا بعواقب الأمور، ولا بحساب الله تعالى يوم القيامة، ولا كيف سيقضي بين الخلائق حتى ينصب الإنسانُ نفسه حاكما على عدل الله تبارك وتعالى[85]. وهذا ما سنفصل فيه في باب: عدل الله، تأملات في مناظرة أخرى رائعة، فراجعه هناك.

---

[85] يراجع كتابنا: الصندوق الأسود للفكر الغربي، فصل: **انعدام المقاييس المؤسسة للأخلاق وللخير والشر في ظل استبعاد الدين، وما بعده من فصول.**

على أن من يحاكم دقة الصنعة، وحكمتها، إنما يحاكمها بأهوائه التي صورت له الحسن والخير والصواب ما وافقها، والقبيح والشر والخطأ ما خالفها، مع أن عقل الإنسان محدود، ولا يستطيع الحكم على شيء من ذلك ليصلح حكمه مقياسا تقاس عليه أفعال الله تعالى، فإن عقولنا لا تملك المعلومات الكافية لإدراك هل المرض خير أم الصحة خير للإنسان؟ هل رغد العيش أفضل أم الكفاية المصحوبة بالطمأنينة، أم الجوع؟ لأن الزاوية التي ينظر منها قد تكون مضللة، أو محدودة بالناحية المادية فقط، فقد نسلط زاوية أخرى مقابلة وهي: أن الله تعالى يبتلي الناس بالفقر أو بالمرض أو بغيره مما ظاهره الشر ليرفع درجاتهم في الدنيا والآخرة، أو يبتليهم ليختبر إيمانهم، فيمحصهم ويجتبي منهم من صَدَقَ في إيمانه، أو يبتليهم ليتقربوا إليه في الشدائد بعد أن غفلوا عن التقرب إليه في حال رغد العيش، أو ليدركوا نعمة الصحة التي لا يتفطنون إليها وإلى دقائقها إلا في حال المرض، فيدرك المريض الذي بلغ الثمانين من عمره حين يسعفه الطبيب بأجهزة التنفس ليلتقط نَفَسَاً واحداً عز عليه التقاطه في حال مرض ألمَّ به عظمة أن يعيش حياته كلها بغير حاجة لأجهزة اصطناعية تعين على التنفس! أو أن يعجل لهم عقوبةً جراء ما اقترفوه تجبُرُ عنهم عقوبة أعظم، أو يكفر عنهم سيئاتهم، أو أن يدل البشر على أن طلاقة قدرة الله هي من تسير الكون وأنه لا يسير سيرا رتيبا يستغني فيه عن خالقه، فيضرع الإنسان إلى خالقه في الشدائد والمحن، ويدرك الإنسانُ عجزه أمام قدرة الخالق، فلا يطغى الإنسان ولا يستبد، فيضر نفسه ويضر غيره.

كما أن الله تعالى -بوصفه ربا مدبرا لشؤون الخلق- نظم الكون والمجتمعات بسنن لا تحابي أحدا، تنطبق على المسلمين وعلى الكفار، مطردة، تنفعل بالأسباب، وأمر الناس باكتشافها، فما من داء إلا وله دواء إلا الموت، فإذا ما صادف الدواء داء عالجه، فلم يكن الابتلاء بالمرض إلا حالة طارئة مرحلية، وكذلك الفقر، فقد وضع نظاما عادلا يقوم في قسم منه على تحقيق التكافل الاجتماعي، وبيّن مسئوليات الدولة الرعوية تجاه الرعية لتكفيهم حاجاتهم الأساسية، وجعل الله الأرض صالحة للحياة وللمعاش، وقدَّر فيها أقواتها، فجعل في التربة قابلية إنبات النبات وفيها الصلاحية للزرع، وجعل في الأرض كميات وافرة من الماء وأنزل هذا الماء من السماء لينتشر فوق الأراضي اليابسة ليعيش منه النبات والحيوان.

وبالإجمال فالله تعالى قد خلق جميع ما يلزم لمعاش وحياة المخلوقات، وجعل في الأرض أشياء خاصة بالإنسان بأن أودع ثروات في باطن الأرض من حديد ونحاس وذهب وفضة ومعادن وبترول الخ، وجعلها بكميات كافية لمعيشة البشر، حيث جعل الله فيها قابلية إعادة الاستخدام مرات ومرات، كدورة المياه في الطبيعة مثلا، ولو وسد أمر معيشة الناس لدولة إسلامية ترعاهم لكفت البشر حاجاتهم الأساسية، ولانعدم الفقر، وحين يعرض الإنسان عنها فإن له معيشة ضنكا، ولكنها الرأسمالية الجشعة! استأثر فيها قلة بما هو حق للجموع، ازدادوا غنى ليزداد الفقراء فقرا، ونهبوا ثروات دول ليتجاوزوا بشعوبهم حد السرف والترف،

وبحساباتهم البنكية مليارات المليارات، فافتقرت أفريقيا لتغنى فرنسا، ولكنه ظلم الإنسان للإنسان، وخضوع المظلوم للظالم دون أن يستعين بالسنن المجتمعية للتغيير.

ولكنها سـوء تدبير الحكام والإنسـان عموما في ألا يسـتغل الأرض في الزراعة وفي اسـتصـلاحها وعمارتها بالصورة الصحيحة مستفيدا من تسخير الله إياها له، وإفساد الإنسان للنظام البيئي الذي ينتج ما ينتج من كوارث.

هل مصائب الدنيا هي عقوبات على الذنوب؟ الجواب: لا!

وأما العقوبات، فإن الله تعالى عجل للأقوام الذين خلوا من قبلُ عقوباتٍ في الدنيا جراء ارتكابهم مخالفة الرسل والكفر بهم، وحين أُرسل محمدٌ ﷺ تغيرت سنة الله في إهلاك الكفار الذين يكذبون رسوله. وبرز هذا التغيير في النصوص التالية:

1ــ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، [سورة الأنفال 32 ــ 33]. والذي أطلق هذا التكذيب والتحدي هو النضر بن الحارث وأبو جهل، وهذا كان لسان حال مشركي مكة. ولم يأتهم الجواب بالإهلاك، بل أعطاهم أمانين: الأمان الأول وجود الرسول ﷺ بين ظَهرانيْهم، والأمان الثاني الاستغفار. وإذا زال الأمان الأول بوفاة الرسول ﷺ فإن الأمان الثاني لا يزول بالكلية.

2ــ قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة العنكبوت 53. 55].

قال القرطبي ج13/ ص 356: (قال ابن عباس: يعني هو ما وعدتك ألاّ أعذّب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة. بيانه ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾.

3ــ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [سورة ص 15 ــ 16]. قال القرطبي في تفسيرها: ﴿يَنظُرُ﴾ أي ينتظر. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني كفار مكة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي نفخة القيامة. ﴿قِطَّنَا﴾، قال مجاهد وقتادة: عذابنا.

4ــ قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، [سورة الأنعام 12] قال القرطبي في تفسيرها: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي وعد بها فضلاً منه وكرماً، ولذلك أَمْهَلَ.

5 ــ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، [سورة الإسراء 59]. قال القرطبي في تفسيرها: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ التي اقترحوها إلا أن يكذّبوا بها فيهلكوا كما فُعِل بمن كان قبلهم ... فأخّر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً ... إنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصفا ذهباً وتُتَنحى الجبال عنهم، فنزل جبريل وقال: «إن شئتَ كان ما سأل قومُك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يُمْهَلوا، وإن شئتَ استأنيتُ بهم» فقال: «لا، استأنِ بهم».

6ــ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ **إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ** تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، [سورة إبراهيم 42].

وهذا خطاب من الله للرسول ﷺ بعد أن اشتد استفزاز المشركين وتحديهم له واستهزاؤهم به وبالعذاب الذي يهددهم به. وهذا الاستهزاء والتحدي والاستفزاز يبرز في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، [سورة الإسراء 90 ــ 93] وقد قام الرسول ﷺ من بينهم حزيناً متألماً. فأنزل الله عليه تسلية له بأن الله ليس غافلاً عنهم إنما يؤخرهم إلى يوم القيامة.

لقد تحدثنا حتى الآن عن الأقوام الذين يأتيهم رسل الله فيكذبونهم. فما هي سنّة الله في الناس بشكل عام، أي حين لا يكون هناك رسول بين ظَهرانيْهم يدعوهم إلى الله، كما كانت الحال في الفترة بين رسول ورسول، أو كما صارت الحال واستمرت منذ وفاة الرسول محمد ﷺ؟ هذه الحال العامة للناس تحكمها النصوص التالية:

1ــ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ **وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، [سورة النحل 61].

2ــ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ **وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [سورة فاطر 45].

3ـ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾، [سورة الكهف 58].

4ــ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ **إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ** تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، [سورة إبراهيم 42].

5. قال رسول الله ﷺ: «اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل» [رواه البخاري].

هذه النصوص الخمسة وما كان في معناها تفيد بوضوح أن الله سبحانه لم يجعل الدنيا دار حساب، بل هي دار عمل، والحساب غداً. واستيفاء الحساب يكون يوم القيامة الذي يسمى يوم الحساب ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، [آل عمران 185].

أما ما يصيب الناس في الدنيا من المصائب **فهذه تحصل بحسب سنن الكون وخصائص الأشياء التي أودعها الله فيها، وهي تصيب المؤمن كما تصيب الكافر، وتصيب التقي كما تصيب الشقي**.

والمصائب في الدنيا ليس من الضرورة أن تكون عقوبة من الله على معصية، وليس من الضرورة أن تكون انتقاماً إلهياً من العبد المصاب. فهذا قول الله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، [سورة البقرة 155. 157]. وهذا قول

الرسول ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه. فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» [رواه البخاري].

فالمؤمن الذي يصاب ويصبر ويحتسب ذلك عند الله تكون المصيبة نعمةً عليه وليست نِقمة، فهي تحط من سيئاته وتزيد في حسناته يوم القيامة.

وأما الكافر الذي يُصاب فإن مصيبته لا تكون محواً لسيئاته ولا زيادة في حسناته يوم القيامة، لأنه ليس له حسنات يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، [سورة الفرقان 23]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، [سورة الأحقاف 20].

كذلك: فبالنسبة لغير المؤمن، فإن الابتلاءات يجب أن تدفعه إلى التفكير في نعم الله التي ملأت حياته: نعمة البصر والسمع، تخيل أن يحتاج المرء إلى جهاز تنفس اصطناعي في سن متقدمة، فإذا به يتذكر -متأخرا- كم هي نعمة أن يأخذ نفسه بدون صعوبة في كل سنوات عمره، أو أن يضطر إلى جهاز تنظيف الكلى، وما فيه من مشقة عظيمة، فيتذكر نعمة أنه يستطيع تنظيف سوائل جسمه يوميا، بلا عناء بفضل الكليتين، أو أن تصاب ركبته بضرر فلا يستطيع المشي للقيام بأبسط النشاطات، فيتذكر عظمة نعمة الصحة، أو أن يصاب بمرض فيفحصه الأطباء ليجدوا أن شرايينه شارفت على الانغلاق بسبب تراكم الدهون والالتهابات، فيجرون له عملية تطيل حياته، فكان مرضه سببا في تدارك صحته قبل دخوله في جلطة قلبية مثلا، أو أن يرى الابتلاءات التي تحصل للغير فيتذكر أنه في عافية، فالأصل في هذا كله أن يكون سببا لأن يقترب إلى الله بعد نفوره وبعده عنه، فهي إذن **رسائل بليغة تطلب منه أن يتدارك نفسه قبل فوات الأوان** فيرجع إلى الله لينعم بنعيم الآخرة المقيم، ويفوز بالطمأنينة والسلام الداخلي فيما تبقى له من عمر، إذن: **فالابتلاءات رسائل مهمة جدا للإنسان، مؤمنا كان أم غير مؤمن**.

وقد وردت كلمة (عذاب) في النصوص الشرعية بمعنى العقوبات التي أمر الله بإيقاعها على العصاة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، [سورة النور2]، ومثل: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، [سورة النور7].

وقد وردت كلمة (عذاب) وكلمة (عقاب) وكلمة (هلاك) وكلمة (تدمير) وكلمة (استبدال) في النصوص الشرعية بمعنى ما يصيب الناس من أذى أو مصائب **بحسب سنة الكون، وبحسب الأسباب والمسببات**، مثل قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، [سورة الأنفال 68]، أي إن ترك القتل أثناء المعركة والحرص على الأسر طمعاً بأخذ فدية الأسير قد يؤدي إلى خسرانكم المعركة وأن تصبحوا أنتم القتلى والأسرى. **فهذا يرينا أهمية فهم السنن حتى لا نقع في مظنة السبب فتنزل المسببات بساحتنا!**

ومثل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، [سورة التوبة 14]. فتعذيبهم يتم: بأيديكم، بأن تحققوا شروط نصر الله، فينصركم، فيكون نصركم، وقتالكم لهم إمضاء للسنن الإلهية والمجتمعية في خزيهم، (لذلك: فلا يسألن سائل لماذا ترتفع أكف مليارات المسلمين تلهج إلى الله تعالى بخالص الدعاء أن يقوم بإنزال الصواعق والزلازل ويقتلع كيان يهود، أو أن يقتص من مجرم رماهم بالبراميل المتفجرة، وأهلك الحرث والنسل كالمجرم بشار الأسد، أو أن يظن ظان: أن مشهد الأطفال الذين يقتلهم كيان يهود صباح مساء في غزة بتفجير بيوتهم ومساجدهم ومستشفياتهم كفيل بأن يستجلب غضب الله عليهم فيعاجلهم بالعقوبة، لا يسألن سائلٌ اللهَ ذلك، منتظرا الصواعق والزلازل والصيحة والدمار من الله، دون أن يقومَ السائلُ والداعي بإمضاء السنن التي أمره الله بالنظر فيها، وبإمضائها وتفعيلها، كي يقوم بواجبه، ويقوم المسلمون بواجبهم، فيعذب الله كيان يهود بأيدي المؤمنين ويشفي صدورهم منهم).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾، [سورة الإسراء 16]، **وذلك حين تقع حروب أهلية بسبب كثرة الفساد، والذي يفضي إلى الظلم والتفاوت الاقتصادي/ الاجتماعي، ويولد النقمة وعدم استقرار المجتمعات، فتنشأ الصراعات والحروب والإهلاك للوقوع في مظنة تلك الأسباب**، أو يطمع عدو خارجي حين يرى تلك القرية غارقين في الترف واللذات ومهملين في أسباب القوة والجهاد.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾، [سورة محمد 38]. **فتولّي المسلمين عن شريعة الله سيؤدي بهم إلى التمزق والضعف ما يجعل أعداءهم يقضون عليهم حتى يأتي من الأمة غيرُهُم يتمسكون بدين الله**.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾، [سورة طه 123 ــ 124]. **فأي النظم غير نظام الإسلام يجلب للناس السعادة وحسن التصور لسبب وجودهم، ويجلب حسن تطبيقه عليهم الرخاء والرضا، والتكافل الاجتماعي، وحسن رعاية الرعية من قبل الدولة وتحمل مسئولياتها؟ فإذا ما أعرضوا عنه وقعوا ضحية الأنظمة البشرية الجائرة! فهذه كلها سنن مجتمعية ينبغي فهمها ودراستها**!

ومثل حديث الرسول ﷺ وقد سُئِل: «أَنَهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كَثُرَ الخبث» [رواه البخاري ومسلم]. ومثل ذلك قول الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليوشكَنّ اللهُ أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعُنّه فلا يستجاب لكم» [رواه الإمام أحمد والترمذي]. **وهنا الكلام عن سنة إلهية، فالله لا يستجيب حينها للدعوات، ويقع الناس في عقوبات ما تجلبه عليهم المنكرات من أمراض لم تكن فيمن قبلهم، أو في استشراء الفساد والمنكرات والنظم الوضعية الربوية وما شابه**!

هذه النتائج التي تنتج حسب قانون السببية ليست هي الحساب على الذنوب، بل الحساب على الذنوب سيأتي يوم القيامة.

لاحظوا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [سورة طه 124 . 126]. فالإعراض عن ذكر الله (أي شرع الله) تنتج عنه المعيشة الضنك (أي الشقاء) في الحياة الدنيا، وهذا الشقاء لا يجبر عن صاحبه عذاب يوم القيامة. العذاب الدنيوي الذي يجبر عن صاحبه عذاب يوم القيامة هو العقوبات الشرعية من حدود وتعزير، إذ إن هذه العقوبات هي زواجر وجوابر. أما المصائب والأمراض التي تحصل جراء الأسباب والمسببات فهذه ليست عقوبات تجبر عقوبات يوم القيامة. فالذي يرتكب الزنا ويصاب بمرض الإيدز مثلاً لا يقال بأن هذه هي عقوبته عجلها الله له في الدنيا ليسقطها عنه في الآخرة. بل مرض الإيدز هو نتيجة حينما تتوفر أسبابه، وتبقى عقوبة الزنا إلى يوم الحساب.

أما الأمور التي تحصل في الكون، وليس للإنسان فيها أي دور، مثل الزلازل والأعاصير والفيضانات والبراكين وانحباس المطر وشدة الحر وشدة البرد وما ينتج عنها من آثار، **فإنها من أفعال الله وحده، حسب السنن التي أودعها الله في الأشياء، هذه الأمور تصيب الناس لا فرق بين مؤمن وكافر، ولا بين صالح وطالح.** وهي ليست شراً بالمعنى الشرعي للشر. وهي بالنسبة للمؤمنين ابتلاء فإن صبروا واحتسبوا كانت خيراً ونعمة. وهي بالنسبة لجميع الناس: مؤمنين وكافرين آية من الله تدعوهم للتفكر والاعتبار، وهي تخويف لهم من عاقبة إهمالهم واستغراقهم في الشهوات العابرة ونسيانهم ما هم مقدمون عليه من نعيم أو جحيم.

إن هذه الأحداث لا تحدث عشوائياً ولا صدفة، إنها تحدث حسب التقدير والترتيب الذي اختاره الله سبحانه بحكمته وعلمه[86]. كذلك: نلاحظ أن الله تعالى يقول: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد: 13: 13]، وقد أهلك الله تعالى أربَدَ بن ربيعة، بصاعقة إذ حاول اختراط رسولِ الله ﷺ بسيف، وأنزل هذه الآية، وقد دعا عليه رسول الله ﷺ : «اللهم اكفنيهما بما شئت» يعني أربداً وعامر بن الطفيل، فقضاء من الله تعالى بالموت، كما يقضي بالموت بزلزال أو غيره، وعقوبة فعلتهما تكون يوم القيامة، إعمالا بالآيات السابقة التي بينت أن الله يؤخر العقوبة والحساب إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة 9: 46]، ونحوها من أن يبتلي الله تعالى من ترين الذنوب على قلبه بأن يصبح قلبه غافلا عن ذكر الله، فلا يتفطن إلى ذلك، أو أن لا يقوم الله، فلا يتفطن إلى أن الله كره انبعاثه فثبطه عن أن يتقرب إليه، فأيضا تفهم في ظلال الآيات المحكمة السابقة التي بينت تأخير الله للعقوبة إلى القيامة، وقعودهم نتيجة طبيعية لما ران على قلوبهم، فلم يتحركوا بعزيمة المؤمنين ليمضوا مع رسول الله ﷺ، واستمرأوا القعود، وكره

[86] هل مصائب الدنيا هي عقوبات على الذنوب؟ مجلة الوعي العدد 150 بتصرف

الله تعالى منهم هذا الخُلق وتلك الأعمال، فكانت ســنة الله تعالى أن القلوب إذ تتراكم عليها الذنوب لا تجد ما يدفعها للقيام بالخيرات، قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين 83: 14].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السـجدة 32: 21]، جاء في تفسير ابن عاشور: "والمقصود من هذا: التعريضُ بتهديدهم لأنهم يسمعون هذا الكلام أو يبلغ إليهم. وهذا إنذار بما لحقهم بعد نزول الآية وهو ما مُحنوا به من الجوع والخوف وكانوا في أمن منهما وما يصيبهم يوم بدر من القتل والأسر ويوم الفتح من الذل. وجملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ استئناف بياني لحكمة إذاقتهم العذاب الأدنى في الدنيا بأنه لرجاء رجوعهم، أي رجوعهم عن الكفر بالإيمان. والمراد: رجوع من يمكن رجوعه وهم الأحياء منهم. وإسناد الرجوع إلى ضمير جميعهم باعتبار القبيلة والجماعة، أي لعل جماعتهم ترجع. وكذلك كان فقد آمن كثير من الناس بعد يوم بدر وبخاصة بعد فتح مكة" إذن: فعدم خضوع أعناقهم للحق ومخاصمة الرسول ﷺ والتدبير لحربه أوصلهم للحرب، ولقطع المؤن عنهم، وخوفهم من ترقب الحروب، وتقتيل رؤسائهم في بدر، كل هذا العذاب الذي نتج عن سنة مخاصمة الحق، وعن الحرب ضد الرسول ﷺ لحكمة إرجاع من عاش منهم إلى الحق، وأما عقوبة من قاتل في بدر وغيرها وقُتل فمؤجلة إلى يوم القيامة.

وقد كانت العقوبة الأخيرة التي نزلت من السماء على البشر على شاكلة الأمم السابقة هي رمي الطير الأبابيل لجيش أبرهة بحجارة من سجيل، جعلتهم كعصف مأكول، ولذلك، حين هاجم القرامطة بيت الله الحرام في مكة، وقتلوا مقتلة عظيمة في الحرم، وانتزعوا الحجر الأسود من مكانه، وأخذوه معهم إلى عاصمتهم في هجر بالبحرين، صاح أفجرهم عند البيت الحرام: أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل!، ولم تتنزل عليه لأن الله تعالى يؤخر العقوبات إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلى وأعلم.

الخلود في النار جزاء وفاق:

ولرب سائل يقول، هل من العدل أن يعذب الله تعالى خلقاً من عباده على جرائمهم عذابا لا نهاية له؟ يخلدون فيه في نار لو غمس واحد فيها غمسةً واحدةً لأنكر أن يكون مر عليه نعيم قط في حياته!

أما العدل الإلهي فلا يقاس بمقاييس البشر، ولا يستطيع العقل البشري العاجز الضعيف أن يكون حَكَماً على عدل الله أو على شيء من صفاته، لضيق أفقه، ومحدودية مواهبه، وضعف مقاييسه ومُثُلِهِ، فتراه في نظرته إلى الأمور الأبسط من هذا، يتقلب بين الضد والضد، يقرر قوانين ويعدل عنها بعد أن يتبين له سوؤها وعواقبها، ويخضع لأهوائه وشهواته، ومطامعه ومطامحه، فينظر النظرة الضيقة العجلى إلى الأمور ولا يزنها بميزان قويم، لذا فلا يمكن لمن كان هذا حاله أن يكون حَكَماً على صفات الله تعالى وأفعاله،

ولقد أخبرنا رب العالمين وهو أصدق القائلين أن عذابه وفاق الجريمة التي اقترفها من يعذبه في النار، فقال: ﴿جزاء وفاقا﴾، ومعلوم أن الجرائم، تتناسب مع عقوباتها، والعبرة فيها عظم الجريمة، وقوة الرادع عن ارتكابها، ليستقيم ميزان الحق قبل اقتراف الجريمة، فتكون العقوبة نصب عين المجرم تمنعه عن ارتكاب جرمه، وتدفعه للتفكر في أمره فيُقبِلَ ويحجِم!

فمثلا جريمة السرقة، تُقطع فيها اليد، وربما يكون قد سرق ألفا، أو أكثر، العبرة أن السارق إذ تقطع يده يكون هذا نكالا من الله، ومخوفاً لغيره من الناس أن يقترف الجريمة، كما قيل: العقوبات جوابر وزواجر، تجبر عقوبة الآخرة، وتزجر المجتمع أن يقوم فيه من يقترف عين الجريمة، الأمر الذي يوفر للمجتمع الأمن والطمأنينة بانعدام الجرائم، وهي رادعةٌ أيضاً من باب أنك ترى في المجتمعات الغربية عقوباتٍ بسيطة على ذنوب كبيرة، فترى أن الناس لا تتورع عن القيام بالجريمة (مثال ذلك قتل النفس).

المهم فيما يخص موضوعنا، أن جريمة القتل العمد قد تستغرق من القاتل دقيقة، أو لحظة انفعال أطارت صوابه فتصرف تصرفاً خطيراً قام بإزهاق روح، ولربما كان طوال حياته صالحاً أو وديعاً، لكنه في لحظة غضبٍ وانفعالٍ قام بتلك الجريمة. وبما أن العقوبةَ الرادعةَ لا بد أن تكون نكالاً على العمل بقدر فظاعته، وربما من جنسه فتكون بإزهاق روحه، بغض النظر عن طيب فعاله قبلها، لأنها لا تشفع له أنه أزهق روحاً بغير حق. وقد أخبرنا رب العالمين ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، هكذا هي هذه الجريمة شديدة العظمة، سواء كان المقتول ملِكاً، أم صعلوكاً، كان ذا مكانة أم من عامة الناس، لا عبرة، المهم أن لنفسه حرمةٌ لا يجوز الاعتداء عليها، ومن اعتدى عليها كانت جريمته فظيعة يستحق عليها أن ننهي حياته قتلاً، لأن جريمته تعادل وتكافؤ قتل الناس جميعاً، وأبسط نظرة للحق أن من قتل الناس جميعا لا بد من قتله وإراحة البشرية من شره!

فكما ترى العقوبات تتفاوت حسب عظم الجريمة، وتقدير فظاعة الجريمة يتفاوت، ما بين جرائم سرقة، قتل، زنا، خمر، مخدرات، ظلم يقع على فرد أو ظلم يقع على أمة بأسرها... الخ.

ومثلا إذا كان المجتمع الاسـلامي مطمئنا مجتمعا تحت كلمة خليفة، وجاء آخر ينازعه الأمر، ويفرق كلمة المسلمين، فهذه جريمة عظيمة يستحق عليها القتل فورا. إذ إن تبعات الاختلاف على مستوى القيادة ومحاولة اغتصاب السلطة قد تدخل المجتمع في حرب أهلية!

إذن، فتقدير فظاعة الجريمة، إذا كانت في حق المجتمع فهي أفظع منها إن كانت متعلقة فقط بحق شخص، وإن كانت في حق الشخص متعلقة بماله، لم تكن حينها بفظاعة تعلقها بنفسه وهكذا، فالجرائم التي تتعلق بجنب الله تبارك وتعالى، أفظع وأفظع!

فقبل أن نُذكّر بأنه هو الخالق الرازق، المنعم، المتفضل، نُذكّر بعظمته، وجلاله، ومقامه سبحانه وتعالى، ولا شك أن الجريمة في حق الله تعالى لا تكافؤها جريمة في حق غيره مهما كان!

ثم إن الله تعالى قبل أن يحرم الظلم في منهجه القويم، حرمه على نفسه، وأقام السماوات والأرض والملكوت الأعلى كله على أساس الحق والعدل، فأن يأتي أخرق أبله فيخرق هذا ويبيح الظلم والبغي بغير الحق في الأرض، وقد حرمها الله في السماوات والأرض، فهذه جريمة ليست بعدها جريمة!

خلقك ورزقك وأعطاك نعمه ظاهرة وباطنة، لا تكاد تتفكر في نعمة من نعمه وتقارن نفسك وقد وهبك إياها بمن حرمه منها، إلا وجدته مستحقاً من الشكر منك ما لا يسعك العمر كله أن تكافئه فيه على نعمة واحدة، فكيف وقد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة! ثم يأتي المشرك فينكر وجوده، ويسبّه، ويقول عنه أن له ولد، أو كذا وكذا، فهذه الجرائم لتعلقها بجنب الله، كانت فظاعتها لا متناهية، لا تقاس بأية جريمة لذلك كانت عقوبتها فظيعة جزاءً وفاقاً. وكما قال رب العالمين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولله المثل الأعلى، لو أسأت بحق ملك، فإن غضبه سيكون كبيرا، فما بالك برب العالمين!! ذي العزة والجلال!

أنت أيها القارئ الكريم لا شك تغضب إن مس أحد عرضك، أو سب والديك، أو أغلظ عليك بفاحش القول، والله أحق منك بأن يكون غضبه أعظم وأعظم، ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لذلك فمن سأل هذا السؤال، واتهم عدل الله، ما قدر الله حق قدره!

ولو نظر من حوله إلى السماوات بعظمتها وعظمة خلق الله تبارك وتعالى وتفكر لحظة في عظمة هذا الخالق سبحانه وتعالى لعلم أن جلاله وعزته وعظمته بمكانة تجعل كل البشر لو عبدوا الله كل حياتهم، قضوها ساجدين، ما كافأوا على نعمة من نعمه، ومن قصر في شكر النعم، استحق أن يكافأ بعقوبة فكيف ورب العالمين يرضى بقليل من الشكر مقارنة بما أسبغ من نعم، ويعطي عليه الجزاء العظيم أما ذلك الشقي الذي كافأ النعماء بالكفر والرزايا العظام والجحود، فما تقول فيه؟

ما تقول فيمن قضى حياته يقتل الناس ويفسد في الأرض، كهتلر وستالين وشارون ونتنياهو ونظرائهم ماتوا وفي أعناقهم ملايين القتلى، والأرامل والأيتام، والخراب في البلاد والعمران الذي امتد لأجيال عاشت البؤس، وتلطخت أيديهم بدماء بريئة لم يتركوها تعيش حياة لائقة بالبشر، إن عقابه له عادلٌ انتقاماً لضحاياه الذين حرمهم من كثير من نعم الله عليهم في ماضيهم ومستقبل أيامهم! ما قولك في فرعون إذ قال عن نفسه أنه هو رب العالمين؟ ما قولك في الطواغيت الذين تسببوا لكل رعاياهم بضنك العيش طيلة حيواتهم؟

لنضرب مثالا يقرب الصورة، هب أن رجلا يعمل في منجم تحت الأرض للفحم، في ظروف بالغة التعقيد والمشقة، وندرة الأوكسجين، يمتلئ وجهه بسخام الفحم صباح مساء، وتمتلئ رئتيه بالكربون وتنغلق شرايينه شيئاً فشيئاً، علاوة على الخطر المحدق من حوله من انهيار المنجم في أي لحظة، والأصوات التي تملؤ أذنيه حتى يذوي سمعه شيئاً فشيئاً، إنه يضحي بحياته وقوته وشبابه لأجل أسرته، ويرضى بالقليل مقابل هذا الجهد العظيم، تخيل أن له ولدٌ يرفض أن يضطلع بدوره في الحياة، ويصر على العبثية والاندماج بمتع صاخبة مكلفة لمجرد ملء فراغ حياته، ويبذل فيها جل ما يُعطى لأبيه من رواتب على عمله الشاق، دون أن يعبأ بهذا، مع أن الأب دائماً يعظه ويبين له أهمية أن يضطلع بمسؤولياته عن الحياة وأن يعيش لغاية وهدف، ويقدم له الأدلة والبراهين المقنعة والحجج الدامغة على هذا، إلا إن الابن يرفض فقط لأنه يؤمن بالعبثية، والأب من فرط محبته لابنه لا يستطيع أن يتركه دون مال، لأنه بهذا يهلك، والابن لا ينفكّ يستغل والده السنوات الطوال، حتى مات، لا يقيم وزناً للنعم التي يسبغها عليه والده، ولا للرحمة، ولا للأدلة والبراهين، فماذا يستحق هذا الابن في نظرك من عقوبة؟

لنعطي مثلين آخرين لمن يتساءل عن مقارنة الأبد بكميات محدودة من الخطايا؟ هب أن ولداً بعد أن بلغ الثلاثين من عمره، واستغنى عن أمه، أتى لأمه ببرميل من الحليب، وبعض الكميات من الطعام، وقال لها: هذا مكافئ للحليب الذي أرضعتنيه، فلا تمتني عليّ بشيء، هذا يكافئ الحليب الذي رضعته منك طيلة سنتين! الواقع أن هذا ينسى كل دفقة حنان غمرته بها أمه وهو بين ذراعيها، وكل لمسة حب مسحت بها جبينه، وكل دقة قلب من قلبها سمعها وهو يرضع أعطته الأمان بأنه في حضن أمه، نسي الشهور التسعة التي حملته فيها وهناً على وهن، والألم في ظهرها جراء حمله في بطنها، ونسي أنّ كلّ لحظة احتاج فيها طاقة تمت عبر حرق السكر عن طريق الأنسولين من جسد الأم، ونسي أنه كان يتغذى بأفضل ما لديها من المعادن والفيتامينات وسائر احتياجاته، كان يتنفس عبر "الغشاء العاقل" الذي يربطه بها، يختار له ذلك الغشاءُ من دم الأم كل مناعتها وجميع اللقاحات التي لقحت بها في صغرها. وجميع الأمراض التي أورثتها مناعة كي يستعد للحياة، كان الغشاء العاقل يعرف احتياجاته لحظة بلحظة، ليزوده بها من مخزون الأم من الغذاء والعافية، ثم نسي كل

ألم مرت به في مخاضــها، في كل طلقة توجعت بها لحظة ولادته، نســي ســهرها عليه في الليل والنهار ترقب عافيته، كل هذا لا يمكن أن يكافأ ببرميل حليب، بل إنه **لا ثمن له** مهما اجتهد!

أما المثال الثاني: فعندما تســتأجر ســيارة من مكتب اســتئجار الســيارات تدفع مقابل نوع الســيارة ومدة استخدامها مبالغ مكافئة لذلك، وكلما انتقيت سيارةً أفخم، وأغلى ثمنا، زادت أجرة الاستئجار، فما هو يا ترى ثمن نعمة البصــر في كل لحظة من لحظات الحياة، تســتعمل فيه آلةً ربانيةً لا يمكن لأي نوع كاميرا بشــرية أن يضاهؤها ولا حتى أن يقترب من جودتها ودقة صنعتها، ماذا عن الكليتين وعملهما الدؤوب ليل نهار على غسل السوائل من الجسم وطرد الفضلات، ماذا عن أي جهاز من الأجهزة المعقدة التي هي قوام جسمك، كم يا ترى ثمن هذه النعم المتراكبة التي تســتعملها ليل نهار مدى الحياة؟ كم يا ترى ثمن كل خلية من خلايا الجســم التي تقوم بأعمال بالغة التعقيد، أشــد تعقيدا من أي مصــنع أنشــأه الإنســان في العالم بآلاف المرات، وفي الجسم تريليونات كثيرة من هذه الخلايا، ولا تنفك هذه الخلايا تتجدد لتحافظ على صحة البدن، وعطائه، وتفاعلاته مع الحياة، فما هو ثمن كل خلية من تلك الخلايا، وما هي العقوبة المقترحة على من ينكر من أمدّ الإنسان بهذه الخلايا وأبقاها تتجدد مدى الحياة، بأرقام فلكية من التريليونات على مدار الحياة، فلو عوقب الإنســان على كل خلية ردحا من الزمن يتناسب مع تعقيدها، ووظيفتها، وأهميتها في جهازه الحيوي، لكان عقابا وفاقاً!

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّــوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فها أنت ترى أن رب العالمين يســبغ نعمه حتى على من يعبد الفأر والبقرة من دونه، ومع ذلك فهو يعطيهم الأدلة الواضــحة الجلية على وجوده، ولكنه يأمرهم باســتعمال نعمة العقل التي وهبها لهم للتوصــل إلى معرفته وعبادته. كمثل الأب يعطي ابنه أفضل ما عنده، ويبذر الابن يصرفها على الخنا والموبقات، وما يضر صحته، فهل ترى من بأس في عقوبة من هذا الاب لابنه؟

وبعد نقول: الآخرة أمرها موكول لرب العالمين، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، ويدخل الجنة أقواما ما عندهم إلا ذرة من إيمان، فدع أمر الآخرة لله تبارك وتعالى واعمل لتنجو من عذابه ودع تصــريف الخلق له يحكم بينهم بعدله وحكمته، واعلم أنه العدل، حرم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرما!

فإن اطمأنت نفســك إلى هذه الحقيقة القطعية، علمت أنه العدل وزالت كل وســاوس الشــيطان من نفســك، ولكني ســأدعك ســاعة تتفكر في حجم هذا المخلوق الصــغير الذي يبارز الله تعالى الكفر، أو الذي يتساءل عن عدله في عقوبة من كفره فنسأله السؤال التالي:

ترى كم حجمك في هذا الكون؟ ألا ترى أيها القارئ الكريم، أن الإنســان مركزي في خطة الوجود؟ هل أنت على علم بدورك المحوري في نســيج الخلق الكبير؟ اعلم أن الامتداد الشــاســع للكون، بكل أجرامه الســماوية ونجومه ومجراته، كانت البشرية في المحور الأساس لخطة الوجود، ونظام الوجود، يجب أن يؤدي هذا الإدراك إلى لحظة من الاســتبطان والتأمل، تأمل في التصــميم الدقيق والتفاصــيل المعقدة للكون، وكلها موجودة

لإرشـــادك، وتعزيز العقل بداخلك، وفي النهاية، لتقودك نحو الاعتراف بخالقك. هذا الترتيب الكوني بأكمله بمثابة شـــهادة، أو منارة تشـــير إلى الألوهية. الآن، توقف وفكر. عندما يتم وضـــع مثل هذا الإعداد المتقن والعميق لهذا الكون الشـاسـع أمامك، والذي اسـتغرق نحو أربعة عشـر مليار سـنة، ليصل إلى هذا التوسـع المذهل، ويبرز هذا الانتظام البديع الدال على وحدة الخالق وعظمته وعلمه وحكمته، لغرض أســـاس هو التنوير والاســـتدلال، ومع ذلك يُقابل بالتجاهل، ماذا بعد؟ إذا اخترت التغاضـــي عن هذه الأدلة الدامغة، وغض الطرف عن العلامات المنسوجة بشكل معقد في نسيج الوجود، أليس حقيقا أن تكون العقوبة شديدة؟ تأمل حجم هذا الدليل السماوي، النطاق الكبير لهذا الوحي الإلهي المكتوب على أديم السماء. وينبغي أن تكون العقوبة، إذا اقتضى الأمر، متناسبة بالفعل مع الجريمة، بما يتماشى مع الاتساع الهائل للأدلة المقدمة. تقف العظمة الكونية كشـــهادة، وتجاهل مثل هذه العلامة الضـــخمة هو تجاوز يتطلب المســـاءلة. أدرك أهميتك المركزية في الخطة الإلهية. احتضـــن المســـؤولية التي تأتي معها، ودع المشـــهد الكوني ينير طريقك نحو الحكمة والاتصـال بخالقك. لأنك باعترافك بذلك، فإنك تتماشى مع العدالة، وتضـمن أنك لا تقف إلى جانب الجحود والإنكار، عندما يدعوك الكون نفسه إلى الإيمان والتأمل. وحتى أقرب لك المثال، هب أن وكالة الفضاء أرسلت مســـبارا إلى أبعد نقطة في المجموعة الشـــمســـية، وقد انطلق الفوياجر 1 منذ ســـنة 1977، وقد تجاوز حافة المجموعة الشـــمســـية ودخل في الفضـــاء ما بين النجوم، وبلغت تكلفته مع الفوياجر 2 ما يزيد عن 3.5 مليار دولار بتكلفة هذه الأيام، الآن هب أن المركبة عثرت على دليل دامغ علمي يحتاجه العلماء بشـــدة، وأخذ عينة بالغة الهشـــاشـــة بالغة الصـــغر من جرم ســـماوي بالغ البعد، وقفل راجعا إلى الأرض، وأراد العلماء الاحتفاء بإنجازهم العظيم، فعرضـوا العينة بالغة الهشـاشـة على الجمهور، واحترزوا من الحوادث التي قد تتعرض لها، فوضـــعوها خلف ألواح زجاجية، لكن أحد الناس لم تعجبه العملية كلها، فدخل إلى المعرض، وقرر أن يغافل الحرس ويطلق النار على تلك العينة التي لا تقدر بثمن ويهشـــمها ويمحو كل ما حوته من دلائل بالغة الأهمية للبشـــرية قاطبة، فهل يا ترى لو حكمت عليه المحكمة بأقســـى العقوبات التي يمكن أن تتخيلها هل تكافئ جريمته؟ إن واقع ذنب وجريمة من أحجم عن دليل بحجم الكون كله لاستعماله للاستدلال على خالقه، وقرر أن يبارز الخالق العداء لأشد فظاعة من ذنب ذلك الرجل، ويستحق عقوبة أشد!

قابلت شابا ولد ونشأ في كندا، مقبلا على الإسلام، وسألني فقال: نحن لم نُسْتَشَرْ في أن نقدم على هذه الدنيا، ونخضع لامتحان رهيب فيها، نتيجته إما جنة وإما نار! ولو كان لي الخيار لربما رفضت دخول الامتحان أصلا، لأني لا أعلم ما يكون مني أو علي!

ذكرني سؤاله بقصة، تُدْرَسُ في إطار مسألة أخرى، لكنها تصلح تماما للإجابة على سؤاله!

في تفسير القرآن العظيم تصنيف الشيخ فخر الدين الرازي في سورة الأنعام: "أن الإمام أبا الحسن الأشعري لما فارق مجلس الأستاذ أبي علي الجبائي وترك مذهبه وكثر اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما، فاتفق يوما أن الجبائي عقد مجلس التذكير، وحضر عنده عالمٌ من الناس، فذهب الأشعريُّ إلى ذلك المجلس، وجلس في بعض النواحي مُختفيا عن الجبائي، وقال لبعض من حضره من النساء: أنا أعلمكِ مسألة فاذكريها لهذا الشيخ، ثم علَّمها سؤالا بعد سؤال،

فقالت: أيها الشيخ، ما قولك في ثلاثة مؤمن وكافر وصبي؟

فقال الجبائي: المؤمن من أهل الدرجات، والكافر من أهل الهلكات، والصبي من أهل النجاة.

فقالت المرأة: فإن أراد الصبي أن يرقى الى أهل الدرجات هل يمكن؟

قال الجبائي: لا، يقال له: إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة، وليس لك مثله.

فقالت: فإن قال: التقصير ليس مني، فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن.

قال الجبائي: يقول له الله: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وعوقبت، فراعيت مصلحتك، وأَمَتُّكَ قبل أن تنتهي إلى سن التكليف.

قالت: فلو قال الكافر: يا رب، علمتَ حالَهُ كما عَلِمْتَ حالي، فهلا راعيت مصلحتي مثله.

فانقطع الجبائي"!

تذكر هذه الحادثة في مجال الرد على المعتزلة في قولهم إن الله تعالى يتوجب عليه أن يختار الأصلح لعباده، وليست هذه مسألتنا هنا، فلن نخوض فيها، ولكني أذكرها هنا لأبين لكم مسألة أخرى تظهر جلية من هذه المسألة، وهي ما أجبت به السائل آنفا! وهي أن الله تعالى وهو الحكم العدل القائم بالقسط الرحيم بعباده، إذ يقارن عدله في صبي مات ولم يستحق عذابا، وكان في هذا عدلا مقارنة بتعذيب مجرم بالنار، فهما متكافئان في الاشتراك بأسباب النجاة ويسرها عليهما وتمكنهما من الأخذ بها سواء، إننا حين ننظر في أسباب النجاة والعقاب، ونركز النظر عليها، تحل لدينا الإشكالية بسهولة.

وأقول فوق ذلك فإنا لا نعلم من حال الصغير في الآخرة ما يناله، وأما المحسن والمسيء فقد آتاهما الله آلات التفكير والأدلة التي تملؤ جنبات الكون، وأنزل البينات وأرسل الرسل بالنذارة والبشارة، فاستحقا جزاء

أعمالهما، فلم تكن عقوبة المسيء بغير سابقة نذارة وإقامة للحجة عليه، فاستحق ما قارفت يداه، وأما الصغير فلم يدخل هذا الاختبار برمته، فلم يكن دخوله الجنة ونجاته من العذاب ظلما للكبير؛ فالله تعالى يخلق الوِلدان المخلدين ويدخلهم الجنة لا جزاء على أعمالهم، ولكن فضلا منه وكرما لم يستحقهما المسيء فتأمل!

من هذه القصة يظهر أن قياس عدل الله تعالى على عدل البشر يوقع الناس في مشاكل فكرية أصل التفكير فيها هو الخطأ، فالإنسان يقيس العدل والخير والشر بمقاييس أرضية محدودة، لذلك لا يجوز قياس عدل الله على مفهوم العدل عند البشر. ﴿ألا يعلم من خلق؟ وهو اللطيف الخبير﴾!

فإن الله تعالى لا يعذب حتى يبعث رسولا نذيرا ببلاغ مبين بما تحويه هذه الجملة من معان تامة، بلاغٌ مبينٌ، واضحٌ لا لبس فيه، حُجَّةٌ بالغةٌ، ونذارةٌ تامةٌ فيها مكاشفةٌ تامةٌ عن المصائر، ويسبقها أن يمد الله تعالى الإنسان بأعظم آلة في الكون، ألا وهي العقل، بما فيه من قدرات خارقة على الربط والتفكير والتحليل، وما يحتاجه من أدوات استكشاف كالأسماع والأبصار والإحساس، فالعقل الحجة الأولى على الخلق، ثم تأتي الحجة الثانية على الخلق بأن يمتلك النبي معجزة خارقة لقوانين الكون، تفرض نفسها على السامع والقارئ فرضا فلا يجد بدا من أن يراها علامة واضحة على صدق النبي في رسالته!

وبعد هذه المعجزة الخارقة تأتي الحجة الثالثة الدامغة متمثلة بأدلة تملأ جنبات الإنسان، وتملأ أرجاء الكون، لا مجال فيها لنقض ولا حيرة ولا شك، كون منظم لا فوضى فيه، مضبوط كأدق ساعة، فالعالم يجد من الأدلة ما يناسب أبحاثه وعقله وتفكيره ونظره، والأديب يجد كذلك إذ ينظر في بلاغة القرآن ونظمه، والطبيب يجد كذلك، إذ يرى أنسجة الإنسان وأجهزته، ولقد خضع أكبر ملحد في القرن العشرين "أنتوني فلو" لمعجزة الدي أن إيه، ولم يملك منها فرارا بالتسليم باستحالة أن تكون إلا من صنع خالق قدير حكيم! والفلّاح إذ ينظر في البذرة والأرض والثمرة والمطر ودورته، وكل إنسان يرى في جنبيه من الآيات ما لا مجال لرده بأنه مخلوق لخالق عظيم كريم.

ثم تأتي الحجة الرابعة، فقد أتبع الله تعالى العقلَ والمعجزةَ والأدلةَ بالدين نفسه، بكتاب حكيم فيه فصل الخطاب، وفيه عقيدة تطمئن لها العقول وتستبشر بها القلوب، قولا فصلا حكيما موافقا للفطرة، ثم انبثق عنه نظام حياة يضمن السعادة والرفاهية والطمأنينة والعدالة والقيام بالقسط للناس،

فهذه الأسباب الأربعة: العقل والمعجزة، والآيات، والدين نفسه بشقيه العقدي والتشريعي حجة واضحة لا لبس فيها على الناس جميعا! وهي من البساطة والوضوح، والقوة في الدلالة بمثابة أنها لو عرضت على أي عاقل خال من المعوقات الناشئة عن زخرف الأهواء وضلالة الرغبة في الإعراض عن الحق، أو الإعراض بالكلية عن محاولة التفكير والإخلاد للأرض أو الركض وراء المال بطرق غير مشروعة، وغير ذلك من الأسباب

التي تتسبب في إعراض الكافر عن النظر في هذه الآيات البينات الواضحات التي هي حجة دامغة واضحة، لما وسعه إلا أن يتبعها!

وهي من السهولة كما لو أنها عرضت على صبي لم يبلغ سن التكليف، فقبلها فنجا من العقاب!

وهي بالسهولة والبلاغة نفسها بالنسبة لذلك الشقي الذي اختار الإعراض عنها مع ما فيها من بيان مبين وحجة قائمة لا يمكن لعاقل أن يدفعها لشدة سهولها ووضوحها!

وأما الكافر فتلك الحجة أمامه بنفس الوضوح ولديه نفس القابلية للنظر من عقل تام، وليس بينه وبين تلك الحجج أي معوقات جبرية تحمله على الكفر، إنما قام بذلك بمحض اختياره، فاستحق العذاب التام، لذلك فالعدل تام متحقق فقد كان الذي أعرض عنه بمنزلة مشابهة تماما للصبي، ليس فيها تعقيد يبعده، ولا باطل يصرفه، وإنما هي شقوته التي هو السبب فيها، قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾، نعم، تبين الرشد من الغي لدرجة أن لا حاجة للإكراه على قبول الدين لشدة وضوحه وتبينه وانفصاله عن الغي ومبالغته في صفة الرشد، أي أن أي حمل على الاتباع لا حاجة له، لأنه حق بالغ الوضوح، وإنما الغرابة في الإعراض عنه، لذلك، فمن دخل هذا الامتحان، فقد وجد أنه قد زوده الله تعالى بكل أسباب النجاح سهلة ميسرة، العقل والمعجزة والأدلة ومنهاج الحياة، فهو امتحان في كتاب مفتوح لا مغاليق فيه!

ومنشأ هذا السؤال – الاعتراض- متعلق بكمالات الله وصفاته، وبشكل أدق هو متعلق بصفة العدل الإلهي، والأسئلة التي من هذا القبيل عادة ما تكون مشكَلَة ان لم تكن طريقة التفكير فيها مبنية على أسس صحيحة، وهذا الذي أوقع المعتزلة في إلزام الله بأمور بناء على مقاييس بشرية للعدل.

ولو عدنا لالتماس الجواب من المصادر الشرعية لما وجدنا جوابا مباشرا، فالله تعالى لم يخبرنا عن تجليات صفات الخالق بكمالها فيما يتعلق بهذا السؤال ونظائره، وهذه الأسئلة، مثل لماذا خلقنا الله تعالى، تتفرع عن السؤال الكبير الذي يسبقها وهو من هو الله تعالى الذي آمنا به وخلقنا على غير إرادة منا؟ هل يتصف الله تعالى بصفات الكمال المطلق وبالتالي لا يعتري أفعاله ما يعتري أفعال البشر من عرضة الصواب والخطأ؟ أم يتصف بالنقص فيحتمل فعله الخطأ؟ إن التنظيم العظيم الذي نراه حيثما وجدنا في الكون من حولنا، وتقدير كل شيء بدقة متناهية وبإحكام صنعة ظاهر يدل دلالة قاطعة على صفات الكمال، واستحالة الخطأ والنقص، مما يوجب أن يقع الجواب إلى جانب الصحة والحكمة في خلق الإنسان وامتحانه.

وللإجابة على هذا الاعتراض يجب مراعاة الأمور التالية:

الأمر الأول: أن هذا الاعتراض مبني على مغالطة عقلية ظاهرة، وهي أن الانسان قبل وجوده يمكن أن يُسأل ويُستشار، ويمكنه أن يشعر ويريد ويحدد اختياراته، وهذا أمر مستحيل، لأن هذه الأمور لا يمكن أن تتحقق الا ممن يملك أدواتها وشروطها، وأهم ذلك الحياة ووجود البنية والعقل والتمييز، والمعدوم لا يملك من مقومات الحياة شيئاً، فكيف يمكنه أن يُسأل ويُستشار ويتخذ القرارات المصيرية في حياته؟!

الأمر الثاني: أن هذا الاعتراض منطلق من التعامل مع الانســـان على أنه ند لله تعالى ومناظر له، ولهذا استساغ أن يسألَ الله، ويعترضَ على فعله وخلقه، والحقيقة أن الانسان هو مجرد مخلوق صغير لا يحق له التعامل مع الله بندية ومناظرة، وانما يجب عليه أن يخضــع لله ويســلم لأمره تعالى، ويفكر فيما يجب عليه القيام به، ويبتعد عن الأمور التي لن تغير من حقيقة كونه مخلوقاً، ومع ذلك فالتكليف في ضــمن المســتطاع، والاعتقاد قامت عليه أدلة سهلة قاطعة، الأمر الذي يجعل الامتحان "في كتاب مفتوح".

الأمر الثالث: أن هذا الاعتراض عادة ما يصـدر من انسـان متألم في حياته، ولا تكاد تجد انســاناً يعيش في رغد من العيش وسعة من الرزق واستقرار في الحال يتأفف من وجوده، ويعترض على خلق الله له، وهذا يدل على أن منبع هذا الســؤال العاطفة، فهو اعتراض عـاطفي بامتياز، ولا يصــح في مقاييس العقل أن تكون العاطفة معياراً تقاس به أحداث الوجود ومظاهره وحكمه، فالعاطفة عادة ما تكون غير منضـــبطة وخارجة عن الموضوعية والاعتدال.

الأمر الرابع: أن المعترض بهذا الاعتراض يميل الى اعتبار العدم أفضـل من الوجود، وهذه المفاضـلة مبنية على أسس غير صحيحة، فالعدم بالنسبة لنا مجهول تمام الجهل، ولا يصح تفضيل شيء على شيء الا بعد العلم، فانحصر حال الانسان بين أمرين: الأول: حياة يعلم ما فيها، ويشعر بحجم ما يصيبه من الآلام ويمكنه أن يســعى في التخلص منها، والثاني: عدمٌ لا يدري ما فيه، ولا يعلم شــيئاً عن حقيقته وماهيته، ولا يدري أفيه خير أم شر، أم لا خير ولا شر؟

والعقل الســليم والفطرة المســتقيمة توجبان تقديم الحال الأولى على الحال الثانية، لأن الحال التي فيها خير وشـر أفضـل من الحال التي لا خير فيها ولا شـر، ومن الحال التي لا يعلم الانسـان عنها شـيئاً، والحال التي فيها شـر يمكن أن تفعّل النواميس والسـنن التي سـبق ذكرها ليخرج بها الإنسـان من ضـنك العيش إلى رغده، فعلى الإنســان مســئوليات، ولديه قدرات (فردية وجماعية) تمكنه من التغيير، ورغد العيش لا يعني أن الغنى أفضــل له من الفقر، بل قد يكون الإنســان الرضــي بما قســم له ولديه قوت يومه وطمأنينة قلبه أســعد من غيره، وبالتالي لا بد من إعادة النظر في المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تؤســس لنظرة الإنســان إلى واقعه، في ظل قدراته ومسئولياته عن التغيير.

الأمر الخامس: أن هذا الاعتراض مبني على نظرة ناقصـــة للحياة والوجود، فالمعترض حين وجد حياته الخاصـــة مليئة بالأتعاب والمشـــاق والتكاليف طفق يتذمر منها، ويعترض على أصـــل وجوده في الحياة، وكأنه بذلك يشترط لقبول الحياة في الأرض أن تكون حسنة وجميلة في كل وقت، وفي كل مكان، وأن تكون جارية على ما يحب أبداً، فان لم يجدها كذلك حكم عليها بالبطلان والفســاد، وأخذ يعترض عليها! فحَكَمُهُ هي أهواؤه وما وافقها!

والحقيقة أن طبيعة الحياة كلها ليست قائمة على أذواق الناس ولا على رغباتهم، وكل انسان يجد من المشاق والأتعاب ما يتناسب مع حاله، بل كل الحيوانات لا تجري الحياة بالنسبة لها على وفق ما تشتهي، وليس ما يُشتهى ويوافق الأهواء بحسن دائما، والإنسان لا يعلم الخير من الشر في حاضر أمره وعاقبته، فرب إنسان طُرد من عمله، فدفعه طموحه للقيام بعمل أفضل منه جر عليه نفعا عاجلا أو آجلا ما كان ليبلغه لو بقي في عمله الأول، فسؤاله إذن مستظل تماما بظلال جهله بالخير والشر، والحسن والقبح، وجري وراء الأهواء، لا يجعل من تأففه وأهوائه مرجعا للصواب والخطأ، ولا يدري عواقب الأمر الذي لم يعجبه لعل فيه الخير له في الدنيا والآخرة!

فظهر بذلك أن المعترض في الحقيقة لا يعترض على حاله فقط، وانما يعترض على قانون الحياة كله، وهو لا يتأفف من طبيعة وجوده فقط، وانما يتأفف من طبيعة الوجود كله، والمطلوب من الانسان أن يتفاعل مع قوانين الحياة وطبيعة الوجود، لأنه جزء منها، ولا يصح أن يطالب بتغييرها وتبديلها، لكون ذلك أمراً مستحيلاً متعذراً.

هل يقع السؤال "نحن لم نُسْتَشَرْ، ولو خُيِّرْنَا ربما رفضنا الحياة أصلا" تحت بند العدل أم الحكمة؟

فأما العدل، (نقيض الظلم) فيتجلى في حياة البشر في أربع صور:

العدالة التوزيعية (تحديد من يحصـــل على ماذا بناء على معايير متناســـبة (وقد يكون من العدل تفاوتها أحيانا أو تســـاويها في أحيان أخرى)، والإجرائية procedural (تحديد كيفية معاملة الناس بإنصـــاف، كما يحصـــل في الحكم)، والعقاب (على أســـاس العقوبة على الفعل الخاطئ بأن تكون العقوبة مكافئة للجريمة ورادعة للمجتمع)، والتصالحية (الذي يحاول إعادة العلاقات إلى "الصواب"، أو الحقوق إلى أهلها).

فبالتأمل في هذه لا نجد مســـألتنا منطوية تحت أي منها، لأن الخلق كلهم وضـــعوا في هذا الاختبار وفقا للمعايير نفســـها، والمقومات التي يســـتطيعون معها اجتياز الاختبار، وفي التنبيه المســـبق (البلاغ المبين) لمآلهم، فلا ظلم، ولا يرد السؤال تحت بند العدل،

بل هو ألصـــق بمفهوم الحكمة، هل من الحكمة أن يخلق الله خلقا ويعطيهم الأمور الأربعة الســـابق ذكرها في المقال لتســـاعدهم على اجتياز الاختبار؟ وهل هي كافية؟ هل فيها مثالب لا يســـتطيعون معها النجاح، فإذا خلت من المثالب، فالحكمة تامة.

"عرف ابن تيمية والماتريدي والغزالي العدل على أنه من أفعال الحكمة، قال ابن تيمية: "الظلم وضـــع الشيء في غير موضعه، والعدل وضع كل شيء في موضعه، وهو سبحانه حكم عدل يضع الأشياء موضعها، ولا يضـــع شـــيئا إلا في موضـــعه الذي يناســـبه وتقتضـــيه الحكمة والعدل، ولا يفرق بين متماثلين، ولا يســـوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يســـتحق العقوبة فيضـــعها موضـــعها في ذلك من الحكمة والعدل"[87]، وعليه، فالحكمة في تزويد الناس بما يلزمهم لإتمام الاختبار بنجاح تفضي إلى تحقق العدل كاملا.

[87] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص 40.

عدل الله، تأملات في مناظرة أخرى رائعة!

وســألني ســائل، قد أفهم قضــية تعذيب المترفين الذين كذبوا في هذه الحياة الدنيا، وعاشــوها "بالطول والعرض" ونالوا كل حظوظهم فيها، أو المتجبرين الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفســاد، وعم طغيانهم البر حتى ضاق عنهم، فملأت جرائمهم الجو براميل متفجرات، والبحر "سفينا" حاملاتٍ الهاربين منهم ومن جورهم!

قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَظَهرَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِيْنَا

لم يكن يعلم أن البشــر الظالمين ســيملؤون الجو أيضــا بظلمهم بعد أن يضــيق البر والبحر بهم! يتابع السائل: ولكن، ماذا عن ذلك الفلاح البسيط الذي عاش في "كوريا الشمالية"، ولم يسمع عن الإسلام شيئا، أو ذلك الذي عاش في الهند، واتبع دين آبائه وعاش "مســخما"، ثم يقضــي على الكفر فيعذبه الله، كيف أفهم ناموس العدالة؟

ذكرني هذا السؤال بمناظرة، دخل رجل على أبي علي الجبائي، فقال: هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلاً؟

فقال الجبائي: لا؛ لأن العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حق الله تعالى محال، فامتنع الإطلاق.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه فقلت له: فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيماً؛ لأن هذا الاسم مشتق من حَكَمَة اللجام، وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت:

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وقول جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني اخاف عليكمُ أن أغضبا

أي نمنع بالقوافي من هجانا، وامنعوا ســفهاءكم فإذا كان اللفظ مشــتقا من المنع، والمنع على الله محال لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه سبحانه وتعالى.

قال: فلم يحر أبو علي جواباً، إلا أنه قال لي (لأبي الحسن الأشعري): فلم منعت أنت أن يسمى الله سبحانه وتعالى عاقلاً واخترت أن يسمى حكيماً؟

قال: فقلت له: لأن طريقي في مأخذ أســماء الله الإذن الشــرعي دون القياس اللغوي، فأطلقت حكيماً؛ لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلاً؛ لأن الشرع منعه؛ ولو أطلقه الشرع لأطلقته!

لقد تسمت فرقة المعتزلة بأهل العدل والتوحيد، لأنهم اتخذوا قاعدة نسبة العدل المطلق لله تعالى أساسا لفهمهم للعقيدة، ولكن وفقا لفهمهم هم لمفهوم العدل الذي يتم بين البشر ومن ثم إسقاط هذا المعنى والفهم على الله تعالى، فإذا ما تعكر ذلك الإسقاط، حارت ألبابهم وأسقط في أيديهم!

إذن، فمقاييسنا نحن البشر لمفهوم العدل والأصلح والأنفع والخير والشر مفاهيم قاصرة، ناقصة، لا ترى الصورة الكبيرة كما هي، وتقيس ما يحصل في عالم البشر على خالق البشر وهو قياس لا يصح!

لكننا سنحل الإشكال بإذن الله حلا يطرح رؤية جديدة كل الجدة، ناتجة عن تفحص وفهم ودراسة عميقة للموضوع نسأل الله أن تبلغ الاستنارة:

لقد زود الله تعالى البشر كلهم بآلة العقل، فأما من لا عقل له فقد رفع عنه القلم!

وجعل في الإنسان نجدين يستهدي بأحدهما فيقوده للهداية، ويستدرجه الآخر في مغاوي الضلالة فيضله، والنجدان هنا هما اختيار الإنسان لكيفية إشباع رغباته وحاجاته العضوية، فله مطلق حرية الاختيار أن يشبعها بأوامر الله ونواهيه أم بما يخالف ما أمر الله، وجعل له مطلق حرية الاختيار المبني على استعمال العقل أو الهوى والعمى، وزوده بالمنهج القويم ليرشده للحق، ويبين له ما يحذر منه!

ولما لم يكن الإنسان من طبعه أن يعيش في غابة منفردا مع الوحوش، فكان لا بد من سنن مجتمعية تلزم الإنسان كي يدركها ويستعملها ليمنع ظلم أخيه الإنسان الذئب عنه، فإن الإنسان إن استطاع في أحيان أن يختار سبيل الرشاد ويقوده ذلك الاختيار لسعادة الدنيا والآخرة، فإن آخرين ستجبرهم كياناتهم المجتمعية، وتسلط القوي فيها على الضعيف، والرأسمالي على الفقير، والدكتاتور على الشعب كله على اختيار العمى على الهدى، أو للعيش عيشة كريهة لولاها لما كان الرأسمالي يتحكم بتسعة أعشار ثروة المجتمع ويترك للفقير فتات العيش!

لذلك كان لا بد من سنن مجتمعية يستطيع معها "الفرد" و "الجماعة" أن تغير مفاهيم المجتمع وتركيبته وتوزيع ثروته وأن تحتكم لشرعة ترضاها، وهذه السنن المجتمعية في متناول اليد، على الفرد والجماعة أن تتعلمها وتستعملها فيحصل التغيير المرجو ويسقط ظلم الإنسان عن أخيه الإنسان!

فالإنسان المسحوق سيبقى مسحوقا إذا استسلم لفرديته، ولم يدرك السنن المجتمعية التي تمكنه من أن يتقوى بأخيه في المعاناة في نفس المجتمع، فيتحصل باجتماعهما لهما ما لم يحصل لأحدهما بفرديته، لذلك كان التحزب من صميم سنن المجتمع التي خلق الله تعالى المجتمعات وتدافع البشر على أساسها بحيث تتشكل الأحزاب على فكر معين مثل فكرة رفع الظلم أو على فكرة أن تسود الشريعة في الحياة محل التشريعات الظالمة التي تفضي للاستبداد، فإذا ما أخذ البشر بتلك السنن المجتمعية فإن أحوالهم ستتغير، فيمحى الفقر، ويرفع الظلم، ويحكم الناس بالعدل، يأتون به رغم أنف القلة التي تستأثر بالحكم وبفرض الأنظمة التي تفضي للقهر والطغيان والجهل والأمراض، لذلك فالمسئولية تقع على كاهل الناس أن يفهموا سنن الله تعالى في الخلق، تلك السنن التي تتعلق بالفرد وكيف يستعمل عقله وحواسه لفهم الوجود ويستنير بالهدى المرسل له من رب العالمين ليعيش حياة سعيدة راضية مرضية، أو تلك السنن المتعلقة بتغيير المجتمعات وأطر الظالم على الحق أطرا ومنع الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تسود القيم الفاضلة في المجتمعات

وتوزع الثروات توزيعا عادلا، ولا يتسلط القوي على الضعيف، لذلك، فالوضع الغلط الذي تحياه البشرية والذي يفضي لأن نرى ذلك الفقير المتعوس في الهند وكوريا الشمالية أو في أمريكا وأفريقيا وغيرها يعيش حياة كد وشقاء ليعيش الرأسمالي حياة رفاه، ويعيش بلا هداية لأن أنظمته تمنع عنه النور وتعمي حقيقة الهدى عنه بغلاف من التضليل الإعلامي، هذا الوضع الغلط الذي سيفضي لنتساءل فيه عن كيفية تحقيق العدل، هو من صنع البشر، من صنع الرأسمالي ومن صنع الدكتاتور، والأخطر: هو من صنعنا نحن حين نسكت عن الظلم ونسكت عن الأنظمة الفاسدة والحكام الفاسدين وعن العُرف الفاسدة في المجتمع حتى تسحقنا تحت أرجلها سحقا، ثم نسأل أين عدل الله!

إنه سؤال بالغ الظلم!

وأما كيف سيتحقق عدل الله، فليطمئن السائل، فإن الله تعالى بعباده خبير!

فلسنا نشك في أن عدل الله تعالى سيتحقق في الدنيا والآخرة حتى يقول كل كائن حي: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزمر 39: 75]، من شدة ما يرون من عدل الله ورحمته وقيام الحجة على الظالم وإنصاف المظلوم، كل هذا سيكون وهو من تمام النظرة الكاملة للصورة الكاملة لنرى تكامل الحق في الدنيا والآخرة، وحال العباد في الآخرة لله تعالى يحاسبهم وينتصف لضعيفهم من قويهم، ولكن في الوقت نفسه، فإنه قد أخبرنا عن أولئك الذين سكتوا على الطواغيت والأشرار فأوردوهم النار، فطلبوا من الله أن يضاعف لهم العذاب، فقال لكل ضعف! لأن هؤلاء لم يتجبروا إلا بسكوت هؤلاء!

كتبه العبد الفقير إلى رحمة ربه: **ثائر أحمد سلامة، أبو مالك،**

لكل من يعاني الصعوبات والشقاء والمرض والألم، ومن يريد فهم الابتلاءات والمحن التي نواجهها في الحياة، إلى من يعيش غموضا يحيط بهم من كل جهة، إلى من يعاني الاكتئاب والقلق، والبعد عن الله، إلى من يسأل عن الغاية والهدف من الحياة، إلى الباحثين عن حل شامل للتحديات والصعاب، هذا الكتاب مكتوب خصيصًا من أجلكم، إن المعلومات المدعومة برؤية مستنيرة وشرح واضح ستقدم لهم نهاية لآلامهم وإجابات صحيحة ومعقولة لفهم العالم، وفهم أسباب الشر والمسؤولية عنه، وستوفر لهم مسارا واضحًا نحو السكينة، والسعادة، والطمأنينة، والإيجابية، والإيمان، وسيعرفون أين يقع مكان الله في إدارة شؤون هذا العالم.

في وسط عواصف الحياة وعدم اليقين، من الطبيعي أن تسأل وتشك، وتتساءل عن دور الله تعالى، بل وعن عدالة الله لتفسير ما يجري من حولك. إنه جزء من رحلة الإنسان الأهم: أي البحث عن إجابات للأسئلة العميقة التي تكمن في قلب وجودنا. تمت كتابة هذا الكتاب بأخذ ذلك في الاعتبار، لتزويدكم برؤى عميقة ومعرفة تساعدكم على التنقل في التضاريس المعقدة لتحديات الحياة. لا يكتفي الكتاب هذا بتقديم الإجابات، بل سيقدم لكم مسارا نحو الشفاء والسلام الداخلي، والطمأنينة والحبور.

في هذه الصفحات، ستجدون تجليات الحكمة التي يمكنها وضع نهاية لآلامكم. ستجدون إجابات معقولة لأسئلتكم الأكثر إلحاحا حول العالم ومكانتكم فيه. ستحصلون على وضوح حول دور الله في إدارة شؤون هذا العالم، وستدركون أنه حتى في أظلم اللحظات، هناك هدف إلهي إيجابي رائع يتم تحقيقه، لمنفعتكم، ومصلحتكم، ولخيركم، ستجدون الدافع للإيجابية ونفي السلبية عن تصوراتكم، وفهمكم للملمات والابتلاءات والمحن.

التجارب والمحن هي جزء من تجربة الإنسان، ولكنها ليست تعريفا لنا. من خلال الإيمان والفهم والاتصال الأعمق بالله، يمكنكم العثور على السكينة والفرح وإحساس متجدد بالغرض والهدف من الحياة، والدافع للعيش. إن هذا الكتاب هو دليلكم في هذه الرحلة التحولية نحو حياة أكثر إشراقا وإشباعا.

